سُجناءُ الـ 1500 عام

ⓒ دار صفحات كتاب للنشر والتوزيع ، ١٤٤٥هـ

عبدالله ، هاشم
سجناء ال ١٥٠٠ عام. / هاشم عبدالله - ط١. .- الاحساء ، ١٤٤٥هـ

٥٠٠ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٨٨٨٩
ردمك: ١-٩-٩٢١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

دار صفحات كتاب للنشر والتوزيع

للتواصل مع الدار:
رقم الجوال: 0556902621
الايميل: darpagesbook@gmail.com
الموقع الإلكتروني: darpagasbook.com
حسابات التواصل: dar_pages_book

الحقوق محفوظة: لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

جميع العبارات و الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر.

سُجناءُ الـ 1500 عام

هاشم عبدالله

2024م – 1445هـ

إهداء إلى كل من ساندني ووقف بجانبي لإتمام كتابي الأول الذي لولا اللّه ثمّ لولا تشجيعكم ودعمكم لما أبصرَ النور.. شكرا لكم؛ لقد كنتم خير عونٍ لي.

بين الدّيدان

- (يزن) أيها الأحمق.. كفّ عن التّواثُب كالبراغيث وإلا هلكنا.

توقف (يزن) بغتة وقد تنبه إلى تسارع خطواته وهمس ضاغطا على أسنانه:

- قل هذا لنفسك يا (إميل) فأنا أحاول اللحاق بك.

زفر (إميل) بضيق وقال:

- أيا يكن.. لنتحرك ببطء وحذر لقد قطعنا مسافة لا بأس بها.

قالها بتَوَتُّر وهو يُصوب مصباحه إلى الأمام ويتحسس طريقه بين مئات وربما آلاف الديدان كبيرة الحجم طول الواحدة منها (30-40) سم، والتي تزحف على أرضية وجدران النفق الصخري المظلم الموحل قليلا.. كانا يسيران صعودا مع النفق الصاعد لأعلى والديدان لا تنفكّ عن إصدار أصواتها المُتقزّزة مما ضاعف تَوتُّر الصديقين وهما يخطوان بينها ببطء وفجأة أحس (يزن) بشيء لزج يحاول تسلق ساقه فأطلق صرخة قصيرة:

- تبا ابتعدي أيتها الدودة اللعينة.

قالها وهو يحاول إبعاد الدودة بيده كيفما اتفق..

(إميل) بتَوَتُّر وهو يراقب حركة الديدان والعرق يغمر جبينه:

- كف عن الحركة حالا.. إنك تجذب الديدان.

نظر (يزن) برعب إلى الديدان التي بدأت تزحف إليه فتسمّر في مكانه والعرق يملأ جسمه وهو ينقل بصره بين الديدان و(إميل) الذي أشار له بالهدوء والتماسك قليلا...

- (إميل) افعل شيئا.

قالها (يزن) بتَوَتُّر وهو يحاول إبعاد الديدان التي ضاعفت من سرعة زحفها وبدأت بالفعل بتَسلّق ساقيه مصدرة أصواتها الرفيعة في حين تسمّر (إميل) في مكانه، انتبه إلى أن الديدان بدأت بتسلق ساقيه هو الآخر وشحب وجهه وهو يردد:

- اللعنة يبدو أنها بدأت تميز رائحتنا.

- وما العمل؟

- خيارنا الوحيد هو أن نثبت في أماكننا كالجماد قدر الإمكان.. فالحركات المفاجئة ستثيرها وتنبهها لتواجدنا بينها كما تعلم.

(يزن) بعصبية وهو يجول ببصره بين الديدان التي تتسلّق ساقيه:

- بالتأكيد أعلم.. ولكن..

جمدا حيث هما وكتما أنفاسهما وهما يتابعان بقلق ورعب الديدان التي وصلت لخاصرة (يزن) الذي تأوّه بصوت مكتوم عندما شعر بعضّة إحدى الديدان في خاصرته تبعتها عضّة أخرى في فخذه فأفلتت منه صرخة عصبيّة متألمة وهو يضرب الديدان بكلتا يديه:

– كفى.. كفى أيتها القاذورات.. كفى.

– (يزن) توقف حالا.. ستقتلنا.

قالها (إميل) وهو يكتم صرخة ألم إثر عضّة دودة لساقه.. خُيل إليه أن (يزن) لم يعد يستمع إليه وهو يصرخ بهستيريا ويضرب الديدان التي ارتفعت أصواتها الرفيعة ورفعت أجسادها كالثعابين استعدادا للانقضاض عليهما... أغمض (إميل) عينيه وتراجع برعب رافعا يديه أمام وجهه صارخا بيأس وهو يرى بعين الخيال آلاف الديدان تثِب عليهما وتفترسهما أحياء في هذا النفق المظلم... وفي اللحظة التالية تَواثبت الديدان عليهما وامتزجت أصواتها الرفيعة التي تصمّ الأذان مع صرخات الصديقين... أدرك (إميل) أنها النهاية.. نهاية مغامرته التي بدأت منذ وقت قريب...

لكي نفهم كيف انتهى المطاف بـ (إميل) و(يزن) في ذلك النفق.. علينا العودة بالزمن إلى الوراء بضعة أيام...

يا للملل والرتابة.. كل 24 ساعة هي تكرار للـ24 ساعة السابقة وحتى القادمة...!

دارت هذه الخواطر في ذهنه وهو يغادر نادي الرماية والمبارزة متوجها إلى منزله متأملا المارّة بوجه بات واضحا أن صاحبه لم يعد يُثيره أي شيء... حانت منه نظرة عابرة إلى النقوش المحفورة على إحدى المباني الحجرية والتي تمثل أشكالا لمخلوقات غامضة لا تمت للبشر بصلة.. الطريف أنه لا أحد يعلم من نقشها ولا متى.. والأكثر طرافة أن هناك من حاول مَحوَها بتَفتيتها في ما مضى لكنه لم يفلح لأن النقوش -كما يعلم الجميع-محفورة في عمق الجدران مما يعني بالضرورة هدم الجدران بالكامل لمحو تلك النقوش لكن من الواضح أن الأمر لم يستحق كل هذا العناء ولهذا اكتفى من حاول مَحوها بطمسها بطبقة من الطين التي جفّت بمرور الزمن ولكن تمّت إعادة اكتشاف ما خلفها بعدها بسنوات.. كيف عرف هو وعرف الجميع هذه التفاصيل؟! الخبراء هم من قالوا هذا -وإن كان لا يصدّق حرفا مما يقولونه- وإلا ما الذي يدفع أحدهم في الماضي إلى محاولة محو هذه النقوش المبهمة السخيفة؟! فهي لا تحمل سرا خطيرا ولا تشكل خطرا من أي نوع على حد علمه.. فليذهب الخبراء إلى الجحيم مع نظرياتهم التي لا يملون من طرحها بين الحين والآخر...

ما يزعجه بحق هو أن هذه النقوش موجودة في أغلب جدران ومباني بلدته الحجرية التي على الرغم من اتساعها إلا أنها مُحاطة بالجدران

الصخرية العالية من جميع الجهات حتى السقف، وتظلّ في حيّز تجويف صخري هائل يكفي لاحتواء بلدةٍ كبَلدتِه وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية البلدات والقرى المجاورة وحتى الغابات الرمادية والبحيرات التي زارها من قبل والتي تربط بينها شبكة من الأنفاق ويتم التنقل بينها بالعربات التي تجرها مخلوقات المندالون... فأينما ذهب سواء إلى بَلدتِه أو قرية أخرى تظل الصخور تحيط بعالمه الذي لم يعرف سواه...

قطع حبل أفكاره انخفاض سطوع إنارات السقف الحجري المرتفع بشكل ملحوظ معلنة انتهاء ساعات العمل لتبدأ ساعات الراحة والخلود إلى النوم.. تنهد بمَلَل قبل أن يتخذ طريقه إلى داره بين المباني ذات التصميم الذي يمزج ما بين الشكل اللولبي والمخروطي في تناسق عجيب.. سار في ذلك الزقاق بخطى متمهلة كعادته و...

- هيه أنت أيها الشارد.. ألن تفيق أبدا؟ دعني أساعدك.

قالها أحد الفِتية الثلاثة المشاغبين الذين تحلقوا حول فتًى أبيض البشرة ذا شعر ذهبي، قسيم الملامح عينيه خَضراوين وقد جلس على جانب الزقاق الواسع قليلا الذي يكاد يخلو من المارة وقد بدا غير مُبالٍ بهم بنظراته الشاردة التي تعطي الانطباع بأنه ينظر من خلالهم وليس إليهم.. أتبع الفتى المشاغب قوله الساخر بأن سكب ما تبقى من مشروب في كأسه بشكل مفاجئ في وجه الفتى الشارد الذي شهق من أثر

المفاجأة كما لو أنه أفاق من حلم مخيف للتوّ.. انفجر الفِتية ضحكا لكن ضحكاتهم سرعان ما اختنقت في حلوقهم عندما انهالت عليهم اللّكمات بَغتة من القادم الذي انقضّ عليهم صارخا بغضب:

- ابتعدوا عنه أيها السّفلَة.. ابتعدوا.

شلّت المفاجأة الفِتيَة الثلاثة للحظات قبل أن يستوعبوها ويشتبكوا مع القادم وقد اختلطت صرخاتهم الغاضبة مع شتائمهم بتَهافت بعض المارة عليهم لفَضِّ الشجار في حين عادت نظرات الفتى ذو الشعر الذهبي إلى شرودها وكأن الأمر لا يعنيه...

أحد الفِتيَة المشاغبين:

- لا شأن لك بنا.. عد إلى جُحرك أيها الانطوائي المَخبول.

القادم والدم ينزف من شفته السفلى:

- بل شأني وسترى أيها الحقير.

أحد المارة:

- كفى شجارا.. لينصرف كل منكم في حال سبيله وإلا سأبلغ رجال القانون.

تبادل القادم والفِتيَة نظرات الكراهية قبل أن ينصرف الفِتيَة في الاتجاه المعاكس ويلوّح أحدهم بيده بإشارة بذيئة لم يَنتبِه لها القادم لحسن الحظ وهو يتوجه للفتى الشارد الذي بادر بقوله:

– (إميل).. ما كان عليك أن تُورّط نفسك بالشجار معهم من أجلي فلست أُبالي بما يفعلونه.

مسح(إميل) بعض الدم عن شَفتِه قائلا:

– هذا بالضبط سبب تماديهم معك يا (أوليفر) وما كنت لأقف متفرجا فقط لأنك لا تبالي بأفعالهم.. الأوغاد.. لو لم يتدخل المارة للقّنتُهم درسا.

(أوليفر) برجاء:

– لكنني حقا لا أبالي.. ولا أريدك أن...

قاطعه (إميل) بحزم وهو ينظر إلى عينيه بثبات:

– (أوليفر).. أنت تعلم أنني لن أغير موقفي مهما قلت ولن أتخلى عنك فقط لأنك تريد ذلك.. فأنت صديقي.. هل هذا واضح؟

أومأ (أوليفر) برأسه موافقا ونظرات الشرود لم تفارق عينيه..

(إميل) بنبرة آمِرة يشوبها المَرَح:

– حسنًا إذا.. ما رأيك أن ترافقني إلى منزلي؟ فالعشاء ينتظرنا.

(أوليفر):

- ولكن...

قاطعه (إميل) وهو يلتقط ذراعه ويساعده على النهوض:

- لا يوجد لكن... هيا بنا.

توجه الاثنان لمنزل (إميل) الذي لا يبعد كثيرا عن موقع الشجار. ما إن دَلفا حتى استقبلتهما رائحة الطعام الطيبة...

- أخيرا عدت؟

التفت (إميل) إلى والدته التي أولتْه ظهرها وهي تعد الطعام بالمطبخ المفتوح على صالة المعيشة، رد قائلا وهو يهم بالصعود إلى غرفته:

- نعم عدت ومعي صديقي (أوليفر)...

قاطعته دون أن تلتفت إليه:

- جيد.. ستتناول العشاء مع ضيفك فهو ينتظرك في غرفتك.

توقف(إميل) عند بداية الدرج المؤدي للطابق العلوي والتفت إليها متسائلا:

- ضيف؟ من هو؟!

– ابن خالتك (يزن).

– رائع.

قالها بضيق وهو يواصل الصعود إلى غرفته و(أوليفر) يتبعه بصمت وشرود.. توقف (إميل) عند باب غرفته وأغمض عينيه للحظات كأنما يدعو لنفسه بالصبر قبل أن يدلف الغرفة راسما ابتسامة مصطنعه قدر الإمكان..

(إميل):

– أهلا (يزن).

(يزن):

– أهلا (إميل).. كيف حالك؟

قالها بابتهاج وهو يترك البُندُقيّة التي كان يتفحصها على المِنضدة ويتجه لـ(إميل) مصافحا إياه بحرارة...

(إميل):

– بخير. ماذا عنك؟

(يزن):

– بخير حال.. لم نلتق منذ وقت طويل فأحببت أن أزور...

قطع جملته وهو يحدق في وجه (إميل) بتمعُّن وتساءل:

- وجهك.. هل تشاجرت ثانية؟

قالها وهو يُصوّب عينيه بنظرة اتهام صريحة نحو (أوليفر) الذي انزوى على مقعد مجاور للنافذة بركن الغرفة وأخذ يحدق إلى لا شيء وكأن الأمر لا يعنيه البتّة...

(إميل) وهو يلوّح بيده ويلقي بجسده الرياضي على الأريكة:

- لا عليك.. مجرد عِراك بسيط.. لكن أخبرني لماذا لم تتصل بي قبل مجيئك؟ فأنت تعلم أنني لا أحب الزيارات المفاجئة.

أطلق (يزن) ضحكة مرحة قصيرة كما لو أنه اعتاد هذا الكلام غير اللائق وقال:

- بالتأكيد أعلم ذلك يا سَليط اللسان كما يعلمه الجميع.. ولكن صدقني لدي سبب قوي وسيَروقُك حتما.

(إميل) وهو يتّكئ على خدّه بنبرة متهكّمة مَلولًا:

- هاه.. أشكّ في ذلك.. من يعيش حياتنا في هذه التجاويف الصخرية والتي لا تختلف كثيرا عن حياة الديدان سيكون من الصعب ولا أبالغ إن قلت من المستحيل أن يجد ما يُثيره ويكسر مَلَله.. حتى الذهاب للنادي وممارسة الصيد والتخييم في الغابات الرمادية لم يعد مُسليّا كما في السابق.

سكت للحظة قبل أن يثبت عينيه بعينيّ (يزن) وتابع:

– دعني أُخمّن سبب زيارتك وآمل أن أكون مخطئا.. ستعرض علي إحدى الأشياء الغريبة التي تهوى جمعها والتي عثرت عليها مؤخرا.. أليس كذلك؟

(يزن) بارتباك وهو يحكّ رأسه ويتحاشى نظرات (إميل) الحادة:

– في الواقع نعم ولكن...

قاطعه (إميل) بضيق وهو يُلوّح بيده:

– كما توقعت تماما.

استأنف (يزن) كلامه بحماس وكأنه لم يسمع شيئا:

– ولكن ما سأريك إياه ليس إلا عيّنة مما وجدته.. صدقني إن ما ستراه سيذهلك بكل المقاييس.. أترغب برؤيته الآن؟؟

– سأموت كمَدا لو لم تفعل.

– مرحى.. هذه هي الروح.

قالها (يزن) بمرح حقيقيّ أغاظ (إميل) وهو يخرج –أي (يزن)–من الكيس الورقي الذي جلبه معه ما بدا ككتاب سميك ذو غلاف أسود..

(إميل) بسخرية لاذِعة:

- كتاب؟! يا للروعة.. مذهل.

مد (يزن) بالكتاب إلى (إميل) وقال رافعا أحد حاجبيه بتهكّم:

- ليس قبل أن تعرف محتواه يا ظريف.

التقط (إميل) الكتاب بلا مبالاة وقلبه بين يديه.. أول ما لاحظه هو ملمس الغلاف الغريب وكأنه مصنوع من مادة غير معروفة.. فلا هو مصنوع من الجلد ولا من الورق المقوى.. أما الملاحظة الأخرى فهي النقوش البارزة على الغلاف والتي تشكل كلمتي:

((ألبوم الصور))!!!.

- ألبوم الصور؟! ما معنى هذا؟!

قالها (إميل) وهو ينظر متسائلا إلى (يزن) الذي أجاب:

- أظن أن ما يحتويه الكتاب هو المقصود بالصور.. لم لا تُلقي نظرة؟

حانت من (إميل) نظرة سريعة نحو (أوليفر) الذي اتّكأ على إطار النافذة وشرد ببصره نحو أسطح مباني البلدة التي تجمع بين الشكل اللّولَبي والمخروطي.. عاد (إميل) ببصره إلى الكتاب وفتحه...

- ما هذا؟!

بدا الاهتمام على (إميل) وهو يتفحص الصفحة الأولى من الكتاب ثم قلب باقي الصفحات بسرعة قبل أن يعود للصفحة الأولى وهو يردد بذهول:

– يا لروعة هذه الرسومات.. إنها تبدو حقيقية.. الناس في هذه الرسومات ملابسهم تختلف عن ملابسنا.. المباني التي خلفهم.. الأشجار.. الحيوانات.. وحتى السقف الذي يعلوهم.. إنه أزرق ولا يبدو لي صخريا مثل سقفنا.. كل شيء في هذه الرسومات يختلف عما نعرفه.. أي سحر هذا؟؟!!

تأمل (إميل) الرسومات بالصفحة الأولى بتَمعّن وذهول.. الرسمة الأولى تمثل رجلا وسيما أشقر الشعر أبيض البشرة يرتدي زيّا أسود ذا تصميم غريب ويقف وسط ما بدا كحديقة ذات أشجار خضراء ومن خلفه مَبانٍ طويلة للغاية ذات شكل أقرب للمستطيل القائم والسقف الذي يعلو كل هذا أزرق اللون مُلبد بكُتل دخانية بيضاء.. الرسمة الثانية تجمع نفس الرجل مع امرأة ذات شعر أسود وبشرة سمراء يرتديان ملابس غريبة وقُبعة أغرب وكل منهما يمتطي حيوانا غريبا طويلَ القوائم والعنق والخَطم والشعر الأسود يغطي الذّيل كاملا والطرف العلويّ من العنق في حين بدَت أقدامه الأربعة صلبة وبلا أصابع! الرجل يمتطي حيوانا بنيّ اللون في حين امتطت المرأة حيوانًا أبيض اللون وسط غابة

خضراء بالكامل على خلاف الغابات الرمادية التي لم يعرف (إميل) سواها..

تفحص (إميل) باقي الرسومات بتَأنٍّ ومحتوى كل رسمة يضاعف من ذهوله.. حتى (أوليفر) ترك مكانه ليجلس بجانب (إميل) ويرى ما يراه...

رفع (إميل) عينيه المتّسعتين انبهارا نحو (يزن) قائلا:

– إنها رسوم مذهلة بحق.. يخيل إلي أن من رسمها قد نقل ما رآه أو تخيله بشكل حقيقي.. أيا كان الرسام الذي ابتعتَ منه الكتاب فهو موهوب جدا.

(أوليفر) بشرود:

– ليس موهوبا فحسب.. إنه عبقري.

(يزن) بحماس موجها كلامه إلى (إميل):

– ألم أقل لك أن ما ستراه سيذهلك؟ ألم أقل لك؟

صمت للحظة وكأنه يستمتع بردة فعل (إميل) ثم أضاف بخُبث:

– يبدو أنك نسيت أني أخبرتك أن هذا الكتاب ليس إلا عيّنة مما وجدته ولم أبتعْه من أحد.. دعني أؤكد لك أن من رسم تلك الرسومات

ليس من هنا.. ليس من عالمنا إن شئنا الدقة.. يمكنك زيارتي غدا إن شئت لتلقي نظرة على كل ما وجدته وتفهم ما أعنيه.

(إميل) باستهجان:

- لحظة.. من قال لك أني أرغب بزيارتك من الأساس؟

(يزن) وهو يسحب الكتاب بغتة من يد (إميل):

- أعلم أنك ستأتي لأنك تشعر بالملل ووجدت ما يُثيرك فلا تُكابر.

ثم غمزَ بعينه بابتسامة مستفزّة ليُغيظ (إميل) وهو يتوجه نحو باب الغرفة قائلا:

- أراك غدا في مثل هذا الوقت لا تتأخر.

وقبل أن يعترض (إميل) غادر (يزن) الغرفة تاركا وراءه المزيد من الغموض.

رسالة من الماضي

كان (يزن) مُنهمكا في تنظيف مُقتنياته الثمينة التي تملأ غرفته والتي تنوّعت ما بين المَنحوتات والمُجسّمات مختلفة الأشكال والأحجام سواء كانت لأشكال بشرية أو لمَخلوقات غامضة، وما بين الكتب والمخطوطات العتيقة وحتى الأحجار النادرة والخرائط التي توضح آخر ما توصل إليه البشر في حملاتهم الاستكشافية في محيطهم الحجريّ والتي كثيرا ما يشارك فيها.. كان منهمكا عندما تنبّه لطرقاتٍ تتعالى من باب المنزل فابتسم قائلا:

- ها قد جاء.

سمع والدته وهي ترحب بـ(إميل) و(أوليفر) فتمتمَ بضيق:

- كان ينبغي أن يأتي لوحده.. لماذا جلب غريب الأطوار معه؟

ما هي إلا ثوانٍ حتى تعالت الطرقات على باب غرفته...

(يزن) وهو يفتح الباب بابتسامة من ربحَ الرهان:

- أرى أنك قد جئت.

(إميل) وهو يدلف الغرفة بطريقة غير مهذبة ومن خلفه (أوليفر) الشارد:

- اختصر وأرني ما لديك.

- اخرس.

- ليكن.. هيا لا تُضِع وقتي.

أطلق (يزن) ضحكة مرحة وهو يتجه لدولابه قائلا:

- كالعادة تُخفي لهفتَك بكبريائك.

اتخذ (إميل) مجلسه على الأريكة وتأمل محتويات الغرفة من مُقتنيات بازدراء كمن يتأمل مكبّ نفايات وقال:

- أتساءل متى ستنجح والدتك في الدخول إلى هنا لتُحطّم كل هذه الأوثان؟!

(يزن) وهو يحمل علبة أسطوانية الشكل كبيرة نوعا ما ليضعها على المنضدة أمام (إميل) وهو يجلس بجانبه قائلا:

- دعك من محاولات أمي فهي لن تفلح أبدا.. وإن حدث فهي لن تمسَّ مقتنيات المرحوم والدي على الأقل.. والآن ها نحن ذا.

أدار (يزن) جزءًا من العلبة الأُسطوانية لتواجه (إميل) وأضاف:

- اقرأ النقش هنا.

قرأ (إميل) بصوت مسموع وببطء:

- كبسولة زمنية.. أغلقت عام (2063م).. تفتح عام (3063م).. ما معنى هذا؟!

رفع (إميل) عينيه نحو (يزن) مضيفا:

– نحن في العام (1488) منذ أن اتّحد أسلافنا حسب تقويم الخبراء.. لا بد أن في الأمر مزحة.

– أنا مثلك شككت بالأمر منذ البداية.. لكني أعتقد أنها ليست مزحة لسببين.. الأول أنني وجدت هذه العلبة أثناء آخر حملة استكشافية في منطقة جديدة تم اكتشافها للتو.. أي أنه لم يَطأها البشر بعد.

تطلع (يزن) إلى عيني (إميل) مباشرة وأضاف:

– السبب الثاني هو أنني عرضت العلبة على العجوز (بيكاسو) خبير الأثريات المعروف.. فحصها وأكد لي أن عمرها يقارب (1500) عام إن لم يتجاوزها.. حتى أنه حاول شراءها بمبلغ باهظ لكنني رفضت وبالطبع لم أسمح له بالاطلاع على محتواها.. أضف لذلك نوع المعدن المصنوعة منه والذي من الجليّ أنه غير معروف عندنا مما يعني أنها ليست من صنعنا حتما.

تبدّت الحيرة على (إميل) وهو يحاول استيعاب هذه المعلومات وحانت منه نظرة سريعة إلى (أوليفر) الذي كان يتأمل المنحوتات بعينين ساهمتين..

(إميل):

– أرني محتوياتها.

ابتسم (يزن) وهو يفتح العلبة ويفرغ محتوياتها المغلفة كلّا على حدة بما يشبه الورق المقوى الفضيّ اللامع على المنضدة.. التقط (يزن) إحدى المحتويات وأزال المغلف الفضي عنها قائلا:

– لقد رأيت كتاب الرسومات أو ((ألبوم الصور)) كما هو منقوش على غلافه.. لذلك سنتجاوزه لنرى المحتوى التالي.

التقط (إميل) من يد (يزن) ما بدا كنَموذج مصغر لعربة حمراء اللون غريبة التصميم ذات أربع عجلات سوداء مرفق معها بطاقة صغيرة.. قرأ (إميل) ما كتب عليها بصوت مسموع:

– ((نموذج سيارة فيرا.. موديل عام 2063 م)).

تأمل (إميل) البطاقة والنموذج باهتمام وحيرة ثم قال:

– ما هذا الشيء؟ يبدو لي كعربة من نوع ما...

لم يجبه أحد فوضعها جانبا وامتدت يده تلقائيا نحو المغلف التالي والذي كان كتابا آخر ذا غلاف لامع ملوّن وقد رسمت على غلافه رسمة لرجل وسيم يرتدي ملابس عجيبة لكنها أنيقة.. بدت الرسمة حقيقية جدا مثل رسومات الكتاب السابق وقد كتب على الغلاف ((مجلة عالم الأزياء)).. تصفح (إميل) الكتاب بذهول واهتمام ليجد المزيد من الرسومات الحقيقية لرجال ونساء بملابس وتسريحات شعر غريبة وغير مألوفة..

ساد الصمت الغرفة و(إميل) ينتقل للمحتوى التالي الذي كان عبارة عن دُمية لإنسان يرتدي حلّة بيضاء بالكامل مع خُوذة نصف زجاجية مرفق معها بطاقة كتب عليها:

((بذلة رائد فضاء –وكالة ناسا)).

قلب (إميل) الدّمية بين يديه متفحصا ثم التفت إلى (يزن) متسائلا:

– رائد فضاء؟! وكالة ناسا؟! ما معنى هذا؟!

رفع (يزن) كتفيه ثم خفضهما بمعنى أنه لا يعرف.. انتقل (إميل) للمحتوى التالي الذي كان عبارة عن ما بدا كعملات ورقية تختلف حتما عن عملتهم المعروفة.. تفحصها (إميل) وحيرته تتضاعف كلما فحص شيئا من هذه الأشياء.. لم يُعلق أو يتساءل هذه المرة لأنه أدرك الجواب مسبقا وهو يضع العملات جانبا ويلتقط المغلف التالي الذي احتوى على كتاب كتب على غلافه ((روائع ويليام شكسبير)). تصفّح الكتاب ليدرك أنه يحوي مجموعة قصصية سيقرؤها لاحقا.. انتقل إلى المغلف الأخير الذي احتوى ما يشبه سِوارَ اليد متصلة بقطعة زجاجية داكنة مرفق معها بطاقة كتب عليها ((ساعة ذكية –إصدار شركة تكنو عام 2063م)). بالإضافة إلى ورقة مطوية تشرح كيفية الاستعمال ومعها ورقة مطوية أخرى فتحها وبدأ يقرأ:

((الآن يتوجب على القارئ فتح المظروف لمعرفة محتوى الرسالة كما رآها وقرأها (إميل).. ماذا؟! هذا مُربك ومزعج؟ أجل أعلم ذلك..

ولهذا ومن باب الاحتياط ولعدم إزعاج القارئ كتبتُ نصّ الرسالة في الأسفل.. إن كنت تفضل قراءة الرسالة المرفقة في المَظروف فيمكنك قراءتها والانتقال إلى الفصل التالي مباشرة.. وإن كنت تفضل قراءتها ضمن الكتاب فصوّب عينيك إلى الأسفل.. فضلا تابع القراءة وأعتذر عن هذا الإزعاج غير المبرر)).

– (عزيزي.. أهلا من الماضي.. إن كنت تقرأ هذه الرسالة فأنت حتما قد حصلت على كَبسولتي الزمنية التي دفنتُها وعلّمتها بنصبٍ لا تُخطئه العين في حديقة منزلي والتي يفترض أن تفتح بعد ألف عام.. لذا إن كنت تقرأ هذه الرسالة فهذا يعني أنك في العام 3063م.. من المؤكد أنني ميت الآن.. لا بأس فقد عشت 38 عاما بسعادة حتى وقت كتابة هذه السطور.. بالمناسبة اسمي هو (بيتر نوردستروم)...

مُحتويات الكبسولة تخبرك قليلا عن كيف عشنا وماذا استخدمنا ولبسنا في زمننا.. فنحن نستخدم السيارات الكهربائية كوسيلة مواصلات عوضا عن السيارات القديمة التي تحتاج الجازولين والتي اندثرت منذ سنوات.. هل ستَستخدمون السيارات في زَمنكم أم المركبات الطائرة كما تخيّلنا دوما؟ لن أعرف أبدا.. على كل حال تركت نموذجًا مُصغرا لإحدى السيارات المعروفة بزمننا حتى تأخذ فكرة عن شكلها..

بالنسبة إلى نسخة ألبوم صوري الشخصية ونسخة مجلة عالم الأزياء فستخبرك بوضوح عن نوع وشكل الملابس التي كنا نرتديها وطبيعة الحياة التي كنا نحياها.. كما ستلاحظ بعض التفاصيل في ألبوم الصور على سبيل المثال لا الحصر أنني أعشق ركوب الخيل وأحب الطبيعة.. وبالنسبة لبقية المحتويات فستخبرك عن ماذا ارتدى رواد الفضاء في وقتنا.. وماذا كنت أقرأ، والعملة المتداولة وحتى نوع الساعات الذكية المستخدمة بيننا.

على أي حال.. أعتقد أن كبسولة زمنية واحدة غير كافية.. من يدري.. ربما أصنع واحدة أخرى أكثر نفعا من هذه ولهذا أرفقت الساعة الذكية التي تعمل على حرارة الجسم مع شرح الاستعمال حتى تَدُلّك على موقع الكبسولة الأخرى في حال قررت صنعها..

بالمناسبة أنا أعمل حاليا مع مجموعة من المهتمين على مشروع أكبر كبسولة زمنية بالعالم تكفي لتخزين كل ما توصل له البشر من علوم ومعارف مما قد يخدم البشرية في المستقبل.. ستطلق في الفضاء خلال عامين أو ثلاثة وستعمل بالطاقة الشمسية ومن المقرر أن تهبط بعد خمسين ألف سنة ما لم تتعرض لنيزك أو ما شابه..

أتمنى أن يصبح العالم أجمل وأن تختفي الحروب والأمراض والمجاعات في الوقت الذي تقرأ فيه كلماتي..

لكَم تمنّيت أن أرى كيف تعيشون بعيني وأن أجلس معك لنتحدث وجها لوجه كصديقين.. لكن من المؤسف أن البشر لا يستطيعون العيش لمدة ألف عام كما تعلم.. آمل أنك استمتعت بقراءة رسالتي كما استمتعت أنا بالكتابة لك.. تحياتي لك من الماضي).

بيتر نوردستروم

2063/7/12

رَدةُ فعل

لدقيقة أو أكثر ســاد الصــمت الغرفة و(إميل) يحدق إلى الرســالة بذهول وحيرة و...

(يزن):

- ما رأيك؟

انتبه (إميل) على صــوت (يزن) كما لو أنه أفاق من ســبات عميق والتفت إليه بعينين لا تريان قبل أن يُجيــل بصــرَه بين محتويات الكبسولة مرددا:

- مذهل.. أكره أن أقول ذلك لكنها الحقيقة.

- مرحى.. أخيرا اعترفت أيها ال... (أوليفر).. اتركها حالا.

هتف (يزن) بآخر ثلاث كلمات وهو يندفع نحو (أوليفر) وينتزع من يده حجرًا أحمر اللون بحجم كفّ اليد تقريبا وواصل كلامه:

- اتركها حالا إنها خطرة.. ألا تعلم أن هذا حجر متفجر؟! لو سقط من يدك لنسف المنزل بأكمله.

(أوليفر) بشرود:

- آسف (يزن) لم أقصد ذلك.

(يزن) وهو يعيد الحجر لمكانه:

– رجاءً توقف عن تفحّص مُقتنياتي بيديك.. هل من الضروري أن أضع لافتة ((ممنوع اللمس)) لتفهم ذلك؟!

(إميل) وهو يهب من مكانه بامتعاض:

– كفى (يزن).. (أوليفر) لم يفعل ما يستحق منك ذلك.. ثم أخبرني لماذا تحتفظ بحجر متفجر في غرفتك؟! كلنا نعلم أنها شديدة الخطورة ويُحظر اقتناؤها أو استخدامها لأغراض شخصية وأن استخدامها محصور لأعمال التنقيب.. يكفي أن أُبلغ عنك لتتمّ مصادرتها وتعاقب.

التفت (يزن) إلى (إميل) بتَحدّ:

– أتهددني يا (إميل)؟! هيا افعلها إن كنت رجلا.

احمر وجه (إميل) غضبا وتحركت شفتاه للرد لولا أن سبقه (أوليفر) قائلا:

– أرجوكما توقفا... (يزن) أنت تعلم أن (إميل) لم ولن يفعلها.. أليس كذلك يا (إميل)؟

(إميل) دون أن يرفع نظراته الحادة عن عيني (يزن):

- للأسف لن أفعل.. لكني آمل أن تتخلّص من هذا الحجر يا (يزن).. فقط لمصلحتك.

(يزن) باستهتار ولا مبالاة:

- سوف أرى لاحقا.

ثم أضاف محاولا تغيير دفّة الحديث:

- والآن لنعد حيث كنا.

قالها وهو يلتقط دمية رائد الفضاء ويتأملها بإعجاب وكأنه أب فخور يتأمل طفله الأول متابعا بينما نظرة عدَم ارتياح تطلّ من عيني (إميل) و(أوليفر) وهما يحدقان لمكان الحجر الأحمر:

- أعتقد أن محتويات هذه الكبسولة تدعم ما كنا نسمعه في طفولتنا من حكايا الأجداد عن وجود عالم يختلف عن عالمنا في مكان ما بالأعلى فوق طبقات الصخور التي نعيش تحتها.. ربما لو تجاوزنا طبقة الديدان الشّرِهة لوجدنا هذا العالم ولربما..

قاطعه (إميل):

- مهلا مهلا.. هل سنعود لهذا الهراء؟! كلنا نعلم أن حكايا الأجداد مجرد أساطير لم تثبت صحتها.. أعترف أن محتويات هذه العلبة عجيبة ولم

أرَ مثيلا لها لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تكون قد جاءت من عالم آخر.. أعني ماذا لو كان العالم الذي جاءت منه هو نفسه عالمنا هذا ولكنه كان مختلفا وقتها عما نعرفه الآن؟ أليس هذا واردا؟

(يزن) وهو يعيد الدُّمية ويلتقط نموذج السيارة ويجلس بجانب (إميل):

- (إميل).. انظر جيدا إلى محتويات الكبسولة وأخبرني بصراحة.. أأنت مقتنع حقا بما تقوله؟ أتبدو لك هذه الأشياء من صنعنا؟ قطعا لا.

سكت لثوان باحثا عن الكلمات المناسبة لما سيقوله قبل أن يضيف بجدية:

- ثم إنني لم أخبرك بعد بمعلومة تهدم افتراضك وتؤكد كلامي.. وهي أن العجوز (بيكاسو) فحصَ الكبسولة قبل أن أقوم بتنظيفها من الأتربة العالقة بها وخبير مثله لم يَفُته فحص تلك الأتربة وأكّد لي أن الكبسولة قد انحدرت مع انزلاق التربة من طبقات أعلى من التي نعيش فيها.. بل إنها مرت بطبقة الديدان الشرِهة وربما أعلى حسب قوله.. لأنه وجد بقايا تربة لم يرَ مثلها في حياته.. وهذا يعني أنها حتما لا تنتمي إلى عالمنا.

التقط أنفاسه وأردف:

– وهذا يؤكد كلامي السابق.. إن تمكنا من تجاوز طبقة الديدان الشرهة فأنا واثق بأننا سنجد العالم الذي جاءت منه الكبسولة.

تبادل (إميل) نظرة عابرة مع (أوليفر) الذي بدا مُنصِتا لحديثهما قبل أن يعيد بصره إلى (يزن) قائلا:

– ولكن كل هذا عسير التّصديق.. فكلنا نعرف أنه لم ينجح أحد في تجاوز الديدان الشرهة.. فكل من حاولوا إما أنهم لم يعودوا قط أو عاد من بقي منهم ليحكي عن أشنع تجربة في حياته.. شخصيا أعتقد أننا لن نجد سوى المزيد من الطبقات الصخرية حتى لو نجحنا بطريقة ما في تجاوز تلك الديدان.. فلا أدري لم تركض وراء هذه الأوهام؟!

(يزن) وهو يشيح بيده بازدراء:

– متحجر العقل كعادتك.. حسـنًا.. سـأشرح لك بطريقة مُبسـطة لعلك تفهم.

أردف وهو يعد على أصابعه:

– **أولا**: من سبقونا جرّبوا استكشاف الطبقات السُّفلى فماذا وجدوا؟ وجدوا أن حرارتها مرتفعة ولا يمكن للبشر العيش فيها..

ثانيا: جربوا استكشاف ما يُحاذينا وغالبا ما كانوا يجدون تجاويفَ هائلة تحوي بلدات قديمة كالتي نعيش فيها أو المزيد من البحيرات

والغابات الرمادية أو أطلالًا تحوي ما تَحويه من آثار.. إذن لا يتبقى أمامنا إلا الصعود لأعلى ومحاولة استكشاف ما يعلو طبقة الديدان الشرهة.

أنهى (يزن) كلامه وعيناه تلمعان ببريق بدا غامضا ل(أوليفر) لكن (إميل) أدرك مَغزاه على الفور فقال ببُطء:

- هل أفهم من كلامك أنك تنوي خوض مغامرة الصعود لأعلى؟

- لم تقُل إلا الصدق.

- لا بد وأنك تمزح.

- أتعرف عني المزاح في مثل هذه الأمور؟

ران الصمت الغرفة و(إميل) و(أوليفر) يحدّقان بدهشة إلى (يزن) الذي لمَعَت عيناه بالحماس...

(إميل) بحذر:

- هل تنوي خوض هذه المغامرة لوحدك؟

ابتسم (يزن) ووضع يده على كتف (إميل) قائلا:

- نحن سنخوضها.

- ماذا قلت؟! نحن؟!

هتف (إميل) باستنكار وهو يبعد يد (يزن) عن كتفه متابعا:

- هل جُننت؟ من قال أنني سأقبل مرافقتك؟

– ولم لا ترافقني؟ ألا تريد خوض مغامرة العمر واستكشاف العالم الجديد؟ ألا تريد أن ترى بعينيك كل ما أثار إعجابك وانبهارك في ألبوم الصور على أرض الواقع؟ ماذا عن المجد والشّهرة اللذان ينتظراننا كوننا أول من يستكشف هذا العالم المجهول؟ ماذا عن تَذمُّرك الدائم عن لعنة الملل الخانق والرتابة القاتلة هنا؟ ألست أنت من كنت تقول أن حياتنا هنا لا تختلف عن حياة الديدان؟ أتعلم أنا أوافقك الرأي في هذه.. صدقني إن لم تَخُض هذه المغامرة فسَيلازمك الندم ولن يكون لديك ما تحكيه لأبنائك أو أحفادك إن طال بك العمر سوى رحلاتك السخيفة ما بين البحيرات والغابات الرمادية.. وإن لم تَخُضها ستكمل حياتك المملة وتتزوج وتنجب ثم تموت كأي دودة تحترم نفسها وستُنسى ولن يذكرك أحد.. إنها مغامرة استثنائية يا (إميل) وأنت كما أعرفك تعشق المغامرات الاستثنائية مثلي تماما.

تطلع (إميل) إلى وجه (يزن) ثم شرد ببصره عنه وكأنه يفكر فيما قيل.. أدرك (يزن) أن كلامه قد ترك وقعا لا بأس به في نفس قريبه فتابع كلامه بحماس وهو يلتقط الساعة الذكية ليرتديها على معصمه:

– (إميل).. ماذا لو أخبرتك أن هناك كبسولة أخرى غير هذه.

شدت هذه الكلمات انتباه كل من (إميل) و(أوليفر) اللذان التفتا إليه باهتمام شديد.. ردد (إميل):

– ماذا قلت؟! هناك كبسولة أخرى؟!

أردف (يزن) وهو يحكم ارتداء الساعة:

– أجل هناك أخرى.. وسيكون هدفنا هو العثور عليها سواء وجدنا العالم الجديد أو لم نجده.. انتظر قليلا حتى تعمل الساعة وسترى ما يدهشك.

(إميل):

– لحظة.. كيف لك أن تجزم بوجود كبسولة أخرى؟

(يزن):

– ألم يقُل صاحب الكبسولة أنه قد يصنع واحدة أخرى وأن الساعة ستدلنا عليها؟ في الواقع لقد فعل.. وقد حددت موقعها قبل أن أعرض عليك أي شيء.

(إميل) بحذر:

– لا تقل لي أنك...

قاطعه (يزن) بابتسامة خبيثة:

– أجل.. لم أكن لأعرض عليك شيء دون أن أفحصه أولا وأتعلم كيفية استخدامه.. والآن انظر.

تألقت الساعة بضوء أزرق هادئ مُصدرة أزيزًا ضعيفا للحظة قبل أن ينبعث منها خيط ضوء أزرق تجسد في الهواء أمام الجميع على شكل رموز وكلمات تراصّت على ما بدا كلوحٍ شفّاف ذو حدود زرقاء...

- يا إلهي.. ما هذا؟! أهو سحر؟!

هتف (إميل) برعب وهو ينكمش على الأريكة ليغوص فيها بشكل مضحك في حين ندّت صرخة ذُعرٍ قَصيرة من (أوليفر) الذي تراجع بحركة حادة وسقط على الأرض وعيناه مسمّرتان على ما تجسد في الهواء...

ضحك (يزن) من أعماق قلبه قائلا:

- ردّة فعلكما لم تختلف كثيرا عن ردة فعلي عندما فعلتها أول مرة... هيا (إميل) اقترب والمس هذا الرمز برِفق.

ختم كلامه وهو يشير بيده الحرة نحو الرمز الذي شكّل مُثلثًا زواياه مربعات صغيرة يصل بينها خيوط ضوئية زرقاء...

(إميل) وعيناه مركزتان على ما يراه بمزيج من الذهول والرعب:

- أيمكنني لمسها؟! أليست مؤذية؟!

- أتبدو لك مؤذية؟ هيا لا تكن سخيفا.. المس الرّمز.

تبادل (إميل) نظرات الرعب مع (أوليفر) ثم اقترب ببُطء وحذر ويده تمتد بأنفاس مبهورة للمسِ الرمز.. تردد قليلا ثم حسمَ أمره.. أشاح

بوجهه وأغمضَ عينيه.. لمسَ الرمز.. انبعثَ صوت خفيف أشبه بقطرة ماء جعل (إميل) يشهق ويبعد يده بحركة خاطفة و(يزن) يُقهقِه من قلبه في حين تراصت كلمات بدأت تُومض وتخفت لتحلّ محل الرمز.. قرأها (إميل) ببطء:

– الأج.. هزة.. المر.. تبطة.. جاري.. البحث.. و.. التتبع.. ما معنى هذا؟

كان الصمت هو الجواب الوحيد الذي تلقّاه وهو يُتابع ما يحدث أمامه بذهول.. اختفت جميع الرموز والكلمات لتتجسد مكانها ما يشبه الخارطة المجسمة مع نقطتين مُضيئتين الأولى بيضاء أسفل الخارطة والأخرى حمراء أعلى الخارطة تومض بشكل متقطع وضعيف.. كتب بجانب البيضاء "أنت هنا". والحمراء كتب بجانبها "الجهاز المرتبط: كبسولة 2 "..

تشجّع (أوليفر) واقترب ليرى بشكل أفضل وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.. ابتسم (يزن) بثقة قائلا:

– أعتقد أن كل شيء واضح ولستُما بحاجة إلى الكثير من الذكاء لتدركا أن هذه خارطة للطبقات التي نعيش أسفلها بينما النقطة البيضاء تمثل موقعنا أو موقع الساعة إن شئنا الدقة.. والنقطة الحمراء موقع الكبسولة الثانية والتي من الجليّ أنها في مكان ما فوق طبقة الديدان.

بدا وكأن (إميل) لم يعد يستمع إليه وهو يحدق إلى الخارطة مَشدوها يردد بانبهار:

– مذهل.. مذهل جدا.. لم أتخيل وجود شيء كهذا في حياتي قط.. لو لم تؤكد لي أن ما تَرتديه قد جاء من الماضي لتجرّأت وقلت أنها جاءت من المستقبل.. كل محتويات الكبسولة لا تبدو من الماضي أبدا.

تجاهل (يزن) التعليق وهو يخلع الساعة لتتلاشى الخارطة المجسمة دفعة واحدة وينتفض معها (إميل) و(أوليفر)...

التفت (يزن) إلى (إميل) بعدما وضع الساعة على المنضدة قائلا بلا مبالاة:

– والآن ماذا قلت؟ هل ستذهب معي؟ لا؟ ليكن.. سأُعيرك ألبوم الصور وكتاب القصص لربما..

قاطعه (إميل):

– أخبرني أولا.. هل لديك خطة محدّدة لتجاوز الديدان؟

اتسعت ابتسامة (يزن) وقد أدرك ما يعنيه هذا فأجاب وهو يُلملم محتويات الكبسولة:

– بالتأكيد وإلا لما اقترحت أن نخوض هذه المغامرة من الأساس.

– هل أنت واثق من نجاحها؟

– كل الثقة.

مال (إميل) نحو (يزن) وعيناه تشعّان بحماس قلّما حدث وقال:

– يؤسفني قول ذلك لكني أثق بك.. متى ننطلق إذا؟

(يزن) وهو يغلق غطاء الكبسولة:

– بعد 72 ساعة.. كن مستعدا.

(إميل) وهو يلتقط ألبوم الصور وكتاب القصص:

– هذا وقت أكثر من كافٍ كي أستعد.

(يزن) بجدية:

– ولكن لنتفّق على شيء وهو أننا لن نخبر أحدا بوجهتنا الحقيقية...

أنهى جملته وهو يرمق (أوليفر) بعدم ارتياح...

(إميل):

– مؤكد.. أنا و(أوليفر) لن نخبرَ أحدا.

(أوليفر) بشرود:

– هل هذا يعني أنكما ستسمحان لي بمرافقتكما؟

تبادل (إميل) النظرات الحائرة مع (يزن) الذي رماه بنظرة طويلة صامتة قبل أن ينهمك في حمل الكبسولة إلى مكانها...

تنهد (إميل) وهو يضع يده على كتف (أوليفر) قائلا بأسف:

- آسف يا صديقي.. كنت أتمنى أن ترافقنا ولكن الرحلة خطرة كما تعلم.. لكني أعدك أن أعود لاصطحابك إذا وجدنا العالم الجديد.

ساد الصّمت لهُنيهَة، قال (أوليفر) بوجه خال من التعابير:

- لا بأس (إميل) سأنتظرك.

ارتسم الأسى على مُحيّا (إميل) وهو يبعد عينيه عن (أوليفر) ويوجه حديثه إلى (يزن):

- لقد تأخر الوقت علينا الذهاب.

(يزن) وهو ينسّق مُقتنياته دون أن يلتفت:

- حسنًا.. أراك بعد 72 ساعة سأقوم خلالها بترتيب ما يلزم.

ودون كلمة أخرى غادر الاثنان تاركان وراءهما (يزن) الذي غرق في تفكير عميق..

عبرَ الأنفاق

– ماذا قلتما؟! تريدان مني أن أقلّكما إلى أقرب نقطة إلى طبقة الديدان الشرهة؟! هل جُننتما؟

قالها الرجل النحيل ذو البشرة السمراء والشعر البنيّ المُجعّد القصير باستنكار وهو ينقل بصره بين الشابين اللّذين وقفا أمامه بجانب عربة نقل الركاب خاصّته عند منزله في أطراف البلدة.. كان أحدُ الشابّين ذا بشرة بيضاء وشعرٍ قصير أسود خالطه بعض البياض وعينَين بُنّيتين، بينما كان الآخر أطولَ قليلا من الأول.. وسيمَ الملامح ذا بشرة بيضاء مائلة للحُمرة قليلا وشعرٍ ناعم شديد السواد وطويل قليلا وعينَين سَوداوَين واسِعتَين.. رد عليه الشاب ذو الشعر القصير الأشيب ببرود:

– لكلّ شيء ثمنه يا (قرانو) وأنت ستَتقاضَى أُجرتك ولن تقلّنا بالمجان أو حبا فينا.

ضيق (قرانو) عينيه الصغيرتين وتأملهما قليلا ثم سأل وهو يحكّ ذقنه الحليقة:

– كم تبلغان من العمر؟؟

الشاب الوسيم بحدّة لا مُبرر لها:

– لم تسأل؟؟

(قرانو) وهو يمعن النظر إلى وجه محدّثه بشكّ:

– لكي أتأكد أنكما لستما تحت السنّ القانونية.. فأنتما تَبدوان صَغيرَان في السن.

احمرّ وجه الشاب الوسيم غضبا في حين زفرَ الشاب ذو الشعر الأشيب بنفاد صبر وقال:

– عمري 22 عاما.. صديقي (إميل) عمره 20 عاما.. والآن هل ستقلّنا أم ماذا؟

(قرانو):

– لماذا تريدان الذهاب إلى هناك؟

(إميل):

– أي سؤال هذا؟ للتّخييم بين الديدان بالطبع.

(قرانو):

– أتَستهزئ يا ولد؟

رفع (إميل) حاجبَيه باستِنكار:

– أستهزئ؟ لا أبدا.. أنا فقط أُجيبك على قدر عقلك وسؤالك الغبي.

احتقن وجه (قرانو) حنقا ورفع صوته:

- ماذا تقول أيها ال...

قاطعه (يزن) بأن دسّ شيئا ما في يد (قرانو) وقال بحزم:

- (قرانو) أعتقد أن هذه الأجرة كافية لكي تقلّنا من دون أسئلة.. فالزبون دائما على حق.. أليس كذلك؟

نقل (قرانو) بصره بين ما في يده وبين عيني (يزن) الذي رفع أحد حاجبيه بإشارة واضحة فهمها على الفور فقال وهو يدسّ ما أخذه في جيبه ويتوجه نحو الإسطبل:

- لا تكثر الكلام يا ولد.. استعدا للانطلاق.

(إميل) وهو يتابع (قرانو) الذي دخل الإسطبل بعَينَين لا تَطرفان:

- أخبرني ثانية لماذا استأجرت هذا الأفّاق؟

(يزن):

- لأن هذا الأفّاق هو الوحيد الذي سيقبل بتَوصيلنا طالما أرضينا جَشعَه.

تعالى صوت حيوان ما من الإسطبل ثم خرج (قرانو) وهو يَجرّ المندالون الذي بدا أشبه بسحلية ضخمة ذات خطم طويل تقف على قوائمها الخلفية القوية ويغطي وَبرٌ خفيف جسمَها..

قال (قرانو) بخشونة وهو يربط المندالون الذي تعالى صوته الحاد احتجاجا على إزعاجِه في هذا الوقت بالعربة:

- ماذا تنتظران؟ اركبا.

ركبَ الاثنانُ العربة ذات الكابينة المغلقة وانطلق بهما (قرانو) نحو إحدى بوابات البلدة التي بدأت تخلو من المارة ومنها للأنفاق الواسعة الصاعدة لأعلى...

(يزن) باسترخاء بعد أن أنزل حقيبة ظهره والقفص الذي يَحوي حيوان الحفار بحرص:

- كل شيء يسير حسب ما خططنا له حتى الآن.. هذه العربة ستختصر علينا الكثير من الوقت.

(إميل) وهو يتأمل بُندُقيّتَه وبَلطتَه النّحيفة جدا:

- على الرغم من أنني أفضل السير على الأقدام لوجهتنا على أن نروي جشع هذا الوغد إلا أنك محق.. فالعربة ستختصر علينا مسيرة 24 ساعة إلى خمس أو ست ساعات على الأكثر.

أومأ (يزن) برأسه موافقا ثم سأل:

- لم تخبر أحدا بوجهتنا.. أليس كذلك؟

ابتسم (إميل) بتهكّم وقال:

- أنا وأنت ذاهبان للتخييم في إحدى الغابات الرمادية.. هذا ما أخبرت به الجميع كما اتفقنا.

أشار له (يزن) رافعا إصبع الإبهام بمعنى أنه قام بالفعل الصحيح...

(يزن):

- لم تخبرني عن رأيك بكتاب القصص الذي أعرتُك إياه.. هل قرأته كله؟ هل أعجبك؟

(إميل) بنظرة حالمة:

- كيف لا يعجبني؟ إنها أروع قصص قرأتها في حياتي على الرغم من أنها تحوي مفردات لأشياء لا أعرفها ولم أفهمها إلا أنني حاولت تخيلها.. ولكم أتمنى أن أراها على أرض الواقع.. حتى ألبوم الصور ظللت أتفحص رسوماته المذهلة التي تصور الكثير من الأشياء والأماكن والمخلوقات التي لم نرى مثلها قط.

سكت قليلا ليلتقط أنفاسه ثم تابع:

- أتعلم أن مجرد تصوّر أننا ذاهبان إلى ذلك العالم يثير في نفسي شعورا لا يوصف فارقني منذ زمن.. الإثارة واستكشاف المجهول.. حتى لو لم نجد ذلك العالم.. فعلى الأقل سنحصل على الكبسولة الثانية والتي حتما تحوي أشياء تخبرنا أكثر عن ذلك العالم.

علّق (يزن) على كلام (إميل) بابتسامة هادئة قائلًا:

- كلنا ذلك الرجل.

ساد الصمت بعدها وشرد كل منهما في أفكـــاره قبـــل أن يكســـره (إميل):

- لم تخبرني بعد بخطّتك لتجاوز الديدان.

- سأخبرك عندما نصل.

- ولم لا تخبرني الآن؟ هيا تكلم.. لدينا كل الوقت.

- يا لك من لَحوح! حسن سأخبرك.. ما نعرفه عن تلك الديدان أنها عمياء وصماء.. أي أنها تعتمد على حاسّة الشمّ لاصطياد فرائسها.. من سبقونا لم يُحسنوا استغلال هذه المعلومات.. حاولوا بالقوة وجربوا كل شيء بدءا بالأدوات الحادة وانتهاء بالنار.. أما نحن فسنستخدم عقولنا.

ختم كلامه وهو ينقر بإصبعه على صُدغه.. تساءل (إميل) بجمود:

- وكيف سنفعل ذلك يا ذكي؟

- سنُمرّغ أنفسنا بالوَحل والطين وهكذا ستصبح رائحتنا كرائحة الأنفاق التي تعيش فيها تلك الديدان وسنعبر بسلام.

- هكذا ببساطة؟! أُهنّئك على هذه العبقرية.

- أشكرك.

قالها (يزن) باستمتاع أغاظ (إميل) الذي أشاحَ بوجهه وبدا أنه غير مُقتنع تماما بهذه الخطة.. لدقائق خيّم الصمت بينهما والعربة تندفع بسرعة بفضل قوة المندالون صاعدة الأنفاق الواسعة المُضاءة بمصابيح متفرقة على سقفها.. صمت قرّر (يزن) أن يقطعه ليزجي الوقت الذي لا يملكون سواه فقال:

- بما أنك بدأت تتقبل فكرة وجود عالم غير عالمنا فماذا لو أخبرتك أن هناك فرَضيّة متداولة بين الخبراء تقول أن النقوش التي تملأ بلدتنا ليست من صنع البشر وإنما من صنع مخلوقات سكنت قبلنا ولسبب ما انقرضت تاركة ما بقي من عالمها لنا وأجدادنا حاولوا إخفاء تلك النقوش لسبب مجهول.. ما رأيك بهذه الفرضيّة؟

- هُراء.. رأيي هو أن من نقش تلك النقوش هم أجدادنا الأوائل الذين لم يكن لديهم ما يفعلونه فأصاب الخبالُ عقولهم وشوهوا مباني وجدران بلدتنا بنقوشهم السخيفة ثم عندما أدركوا متأخرين خطأهم حاولوا طمس سوأتهم.. هذه هي القصة بلا تعقيد.

ابتسم (يزن) رغما عنه وقال:

- توقعت أن تقول شيئا كهذا.. من يدري.. ربما كنت محقا وإن كنت أستبعد ذلك.

تثاءب (إميل) بضجر وأغلق عينيه قائلا:

- جيد.. والآن أرحني من هذه الفرضيات.. أيقظني عندما نصل.

أنهى قوله وهو يستلقي كيفما اتفق على المقعد الطويل وتوسّد حقيبة ظهره دون أن ينتظر رد (يزن) الذي رمقَه بضيق قبل أن يتنهد بضجر ويفعل المثل...

- هيا لقد وصلنا.

انتبه (إميل) على الصوت العالي فانتفض في مكانه وهو يرمق (قرانو) الذي فتح باب العربة عليهما بعينَين ناعستَين...

(قرانو): هل سأنتظركما حتى تشبعا نوما؟! هيا انزلا.

- كفى.. سننزل حالا.. ابتعد عن الباب

قالها وهو يقوم من مكانه ليوقظ (يزن) و(قرانو) يسدد إليهما نظرات غاضبة قبل أن يبتعد عن الباب بصمت.. ترجل الاثنان بأمتعتهما ليَستقبلهما (قرانو) الحانق دوما وهو يشير إلى لافتة مُهترئة علقت على قائم خشبي كتب عليها ((منطقة خطرة)) قائلا:

- من هنا تنتهي رحلتي معكما.. سأرحل حالا.. فاتفاقي معكما لا يتضمن أن أنتظركما إلا إذا...

قاطعه (يزن) بنفاد صبر:

- لم ولن نطلب منك انتظارنا.. ارحل.

تبدّت الدهشة على وجه (قرانو) وكأنه لم يستوعب ما سمع فردد بغباء:

- ماذا؟ ماذا قلت؟

تدخل (إميل) بطريقة غير لائقة:

- ما سمعته.. هيا ارحل.

- اسمعا.. سأنتظركما مقابل مبلغ بسيط لا يت....

اختنقت الكلمات في حلقه وهو يراهما يَتجاوزان اللافتة غير مباليَن بكلامه فظلّ يحدّق إليهما ببلاهة وهما يصعدان النفق الصاعد للأعلى المضاء بالمصابيح حتى اختفيا عن ناظريه قبل أن يستعيد نفسه ويعود إلى عربته وهو يردد:

- مَجنونان.

استقرّ على مقعد القيادة وصاح مخاطبا حيوان المندالون:

- هيا (ليمبو).. لنرحل.

اتبع قوله بضربة سوط تعالى معها صوت الحيوان الحاد وهو يستدير عائدا من حيث أتى.

- لحظة (إميل) هنالك ما ينبغي فعله قبل أن نواصل.

قالها (يزن) وهو يعبث بالساعة الذكية التي كان يرتديها منذ البداية... انطلق منها الخيط الضوئي الأزرق ليجسد اللوحة الشفافة ذات الإطار الأزرق برموزها وكلماتها.. نقرَ (يزن) على رمز يشكل سهمين متعاكسين لتحل محلها كلمات "جاري حفظ المسار" و(إميل) يراقبه بصمت.. أوقف (يزن) عمل الساعة وتبخرت اللوحة الشفافة في الهواء أعقبها بقوله:

- منذ هذه اللحظة ستحفظ الساعة المَسار الذي نسلكه.. هكذا يمكننا العودة دون أن نَتوه.. هيا لنواصل السير.

(إميل) وهو يحثّ السير:

- هذه الأداة رائعة بحق.. لكني أتساءل منذ متى أتقنت استخدامها لهذا الحد؟!

- لم أتوقف عن استخدامها واستكشاف ما تَحويه منذ أن وجدت الكبسولة.. وفي كل مرة أكتشف أشياء جديدة مذهلة.

– على ذكر الكبسولة.. هلّا أعطيتني الرسالة المرفقة معها؟

– على الرحب والسعة.

قالها (يزن) وهو يخرج الرسالة من جيب قميصه ليناولها إياه...

انهمكَ (إميل) بالقراءة بعينيه أثناء سيرهما قبل أن يقول كما لو أنه يحدث نفسه:

– هذه الرسالة تحوي الكثير من الألغاز وتتحدث عن أشياء غريبة.. مثلا ما هو الفضاء؟ وما هي الطاقة الشمسية أو حتى النيزك؟! لن نعرف حتى نصل لذلك العالم.

أنهى كلامه وأعاد الرسالة إلى (يزن)..

(يزن) وهو يدس الرسالة في جيبِه:

– آملُ ذلك...

فجأة وبلا مقدمات توقف (إميل) بغتةً عن السير والتفت إلى الخلف بحدة...

(يزن):

– ما بك؟ ماذا حدث؟

(إميل) هامسا:

– هناك من يتبعنا.

(يزن) وهو يلتفت للخلف بشكل غريزي:

- ماذا؟ هل أنت واثق؟

- أجل.. لقد سمعت صوت خطوات خلفنا.

أصاخا السمع قليلا وهما يُحدّقان في النّفق الصخري ذو الأرضية الترابية المضاء النازل خلفهما على امتداد بصرهما وقد بدا خاليا إلا منهما..

(يزن):

- لا بد أنك تتوهم.. فلا أحد هنا سوانا.. هيا لنتابع.. فالمنعطف المظلم أمامنا يقود للأنفاق التي تقطنها الديدان.

لم ينطق (إميل) بحرف وهو يلقي نظرة شكّ أخيرة للنّفق خلفه قبل أن يحث السير صعودا وإن لم يفارقه الشعور بأن هناك من يتبعهما.. وصلا لمنعطفٍ مُظلم صاعد وتوقفا قبل بدايته بمسافة لا بأس بها.. أنزل (يزن) حقيبة ظهره وأخرج منها قنّينة ماء سكبَ منها على أرضية النفق الترابية لتتكون بركةُ وَحل صغيرة ثم فتح القفص ليخرج حيوان الحفار الذي يُشبه الجُرذ إلى حد ما إلا أنه ذو أطراف ومخالب أطول وجسمه عارٍ من الوَبر ولون جلده الأملس رمادي والذي تلوّى محاولا التّملُّص من بين يدي (يزن) مطلقا صوته القريب من صوت الجرذان...

(يزن):

- هيا.. حان دورك أيها البطل.

قالها باستمتاع و(إميل) يراقبه بوجهٍ خال من التعابير قائلا:

– ما الذي تفعله؟

(يزن) وهو يقلب الحفار على بركةِ الوَحل:

– ما الذي تراني أفعله؟ أليس واضحا لكي يَستوعبه أي عقل حتى لو كان كعقلك؟

تجاهل (إميل) إهانة (يزن) وهو يتأمل الحفار الذي تلوّث بالطين بالكامل..

(إميل) ببرود:

– الآن فهمت.. وأنا الذي ظننتُك جلبتَه ليسلي مَعتوهًا مثلك أثناء الرحلة.. يا لك من مريض.

أطلق (يزن) ضحكة قصيرة ثم قال وهو يحمل الحفار نحو بداية المنعطف المظلم:

– أليس من الحكمة والذّكاء إجراء تجربة عملية لما نحن مُقبلين عليه قبل أن نخوضه؟

أنهى كلامه وقذف بالحفار الصارخ وسط ظلام المنعطف المظلم ليختفي فيه.. (يزن) وهو يتراجع للخلف ليقف بجانب (إميل):

– الآن ننتظر.. إن افترستْه الديدان فسنعرف من ارتفاع أصواتها.

أصاخا السمع لبضع دقائق قبل أن ينطلق شيء من ظلام المنعطف مطلقا صوتا أقرب لصوت الجرذان ليَمرقَ كالسّهم من بين أقدامهما.. قَفزا ذعرا وأطلق (إميل) سبّة غاضبة قبل أن يَستوعبا أن هذا الشيء لم يكن سوى الحفار المذعور الذي واصل انطلاقه لا يَلوي على شيء...

(إميل):

- لقد.. لقد هرب.

(يزن):

- ولم تَمسَسه الديدان بسوء.. هذا يُثبت صحة خطتي.. هيا لنُمرّغ أنفسنا بالوحل.

(إميل) وقد ارتسم على وجهه مزيج من التردّد والتقزّز وهو يقول:

- هل أنت واثق من نجاح هذه الحِيلة البدائية؟

- (إميل) ما بك؟ ألم ترَ نجاح التجربة بنفسك؟ هل ستَنسحِب الآن؟

- لا بالطبع ولكن...

قاطعه (يزن) بلهجة حاسمة شابها بعض التردد:

- إذا ثق بي.. هيا لا تضيع الوقت.

أنهى كلامه وهو يُمرّغ نفسه بالوَحل.. تردد (إميل) قليلا قبل أن يحسم أمره ويحذو حذوَه...

(يزن):

- ها قد أصبحنا جاهزين.

(إميل) بقرَف وهو يتأمل جسده وجسد (يزن) الملطّخان بالوحل:

- كأننا عدنا لأيام الطفولة عندما كنا نتسلى باللعب بالوحل.

(يزن) ضاحكا:

- لا بأس بالحنين لأيام الطفولة بين الحين والآخر.

ثم أضاف بجديّة وهو يشعل مِصباحه ويحمل أمتعتَه:

- هيا لنتجاوز هذه الديدان ونكتشف حقيقة ما وراءها.

حانت من (إميل) نظرة عابرة نحو (يزن).. لاحظ أنه يرتجف!

(إميل):

- (يزن).. إنك ترتجف.. هل أنت خائف؟

(يزن):

- ماذا؟ آه.. إنني أرتجف حماسا كما ترى.

قالها بابتسامة مصطنعة لم تفُت على (إميل) الذي قال:

- (يزن) يمكننا التراجع.. لم يفُت الأوان بعد.

(يزن) بإصرار:

- يمكنك العودة إن شئت.. أما أنا فسأمضي.. لن أتراجع الآن.

- ولا أنا.

- ماذا تنتظر إذن؟

أشعل (إميل) مصباحه.. أغمض عينيه وأخذ نفسا عميقا في محاولة لتهدئة نفسه واستعادة شجاعته قبل أن يفتح عينيه بحذر نحو المنعطف المظلم:

- هيا بنا.

حتى وهو يتوغل داخل النّفق لم يفقِد شعوره أن هناك من يتبعهما.

الآن فهمنا كيف وصلا إلى ذلك الموقف الذي بات واضحا لـ(إميل) أنها النهاية وهو يشعر بكل دودة وثبتْ على جسده لتطرحه أرضا لافتراسه.. ولكن دون أي مقدمات انفضّت الديدان فجأة عنه مُصدرة أصواتًا رفيعة تختلف عن أصواتها المعتادة.. بدت كأصوات ذُعر وهلَع حيواني امتزجَت بصوت زئير مرعب.. وقبل أن تظلم الدنيا من حوله تراءى له حدود كيان غامض على ضوء مِصباحه الذي سقط بجانبه.. كيان أسود ضخم أقرب لوحش مفترس أخذ يمزّق الديدان بلا رحمة

وهي تفرّ منه لا تلوي على شيء حتى بدا أنّ النّفق ذو الأرضية الطينية قد خَلا من الديدان أو هكذا خُيل إليه قبل أن يلتفت الكيان الغامض إليه بعينين حَمراوين كالدم.. لا يدري ماذا حدث بعدها.. فقد أظلمَت الدنيا من حوله وغاب عن العالم.

- إنه يتنفس.. إنه حي.

- (إميل) استيقظ.

بدت هذه الأصوات وكأنها آتية من أعماق سحيقة و(إميل) يفتح عينيه ببطء ليرى الوجهين المحدّقين إليه بقلق على ضوء المصباح الذي رفعه أحدهما...

- ما الذي.. ما الذي حدث؟

قالها وقد بدأ يُميز صوت صاحبي الوجهين.. (يزن) و(أوليفر)!

- لقد استعاد وعيَه.

قالها (يزن) وهو يسند ظهر (إميل) على ذراعه ويتابع موجها كلامه لـ(أوليفر) بلهجة آمرَة:

- ناولني قربة الماء.

نفّذ (أوليفر) الأمر وقد عادت نظرة الشرود تملأ عينيه...

(يزن):

- اشرب.

تجرع (إميل) الماء ليروي جفاف حلقه وهو يعتدل جالسا ويبدأ باستيعاب ما حوله.. أول ما وقعت عليه عيناه بعد رفيقيه هو بقايا الديدان التي تناثرت أشلاؤها من حولهم وقد بدا أن النفق قد خلا من أي مخلوق حي سواهم...

(إميل) وهو يُجيل بصره إلى ما حوله بشرود:

- إذن فقد نجونا.

ثم تذكر شيئا فالتفت إلى (أوليفر) متسائلا باستغراب:

- (أوليفر) ما الذي تفعله هنا؟! وكيف وصلت إلينا؟!

(يزن) موجها كلامه إلى (أوليفر):

- أخبره ريثما أنظّف ما أستطيع من جراحه.

تنبه (إميل) إلى الجراح الصغيرة التي خلفتها الديدان على أنحاء متفرقة من جسده وتقلص وجهه ألما عندما باشر (يزن) بتنظيف جراحه بما تيسّر له من ماء وقماش نظيف جلبَه مع أمتعته...

(أوليفر) وهو يَتحاشى عيني (إميل) كما لو أنه اقترف فعلا مُشينا:

– في الواقع كنت أريد اللحاق بكما.. راقبتكما منذ البداية ودفعت لأحد سائقي العربات ليقلني ويتبع عربتكما.. كان هذا سهلا لأني شاهدتكما وعرفت أي بوابة سلكتُما.. وهكذا بقيت وراءَكما تفصل بيننا مسافة لا بأس بها حتى توقف سائقكما ففعل سائقي المثل على بعد مسافة.. ترجّلت واختبأت من سائقكما وهو يعود أدراجه ثم تبعتكما بحذر حتى لا تلحظاني، فلما توَغّلتما في المنعطف المظلم لم أجد في نفسي الشجاعة للّحاق بكما ولم أشأ العودة خالي الوفاض في ذات الوقت.

(إميل):

– إذا فقد كنت أنت من يتبعنا طوال الوقت؟

(أوليفر) وقد تبدى الخوف على ملامحه القسيمة كما لو أنه يستحضر ذكرى مرعبة وجسده يرتعش:

– بقيت في مكاني لا أدري ما أفعل حتى سمعت صراخكما وبعدها سمعت ذلك الزئير المُرعب مختلطا بأصوات الديدان التي فاجأتني وأثارَت ذُعري وهي تفرّ زاحفة بسرعة بين قدمي دون أن تمسّني بسوء.. بعدما عمّ الهدوء وترددت كثيرا قبل أن أتجرّأ وأدخل خلفكما بحذر و.. و...

شحب وجهه وارتجفَت شفتاه وهو يقول بصوت أقرب للهمس:

– ورأيته.. لقد كان واقفا على أطرافه الخلفية وطوله يناهز سقف النفق.. كان يحدّق إلي بعينَيه الحمراوين.. تصلّبتُ في مكاني.. حاولت الصراخ لكنني لم أستطع.. أظن أنني فقدت الوعي عندها.. لأنني استيقظت لأجدكما ممدّدين أمامي.. أظن أن ذلك الشيء قد جرّني إليكما.

ختم كلامه والارتِعاشة تُواصل عملها في جسده...

بعد هُنيهة من الصمت قال (يزن) وهو يواصل تنظيف جراح (إميل):

– أيا كان ذلك الشيء فقد أنقذ حياتنا.

أما (إميل) فقد ظل يحدّق إلى (أوليفر) بنظرات غريبة قبل أن تحلّ محلها نظرة تعاطف وهو يُربت على كتفه قائلا:

– لا بأس عليك.. لقد انتهى كل شيء.. نحن بأمان الآن.

أومأ (أوليفر) برأسه موافقا...

(إميل) موجها كلامه إلى (يزن) وهو يبعد يده عنه:

– يكفي يا (يزن).. فأنا بخير وأستطيع مواصلة السير.

(يزن):

– لكن جراحك بحاجة للمزيد من...

قاطعه (إميل) بحزم وهو ينهض ويلتقط أمتعته ومصباحه:

- لنواصل السير.

تنهد (يزن) باستِسلام:

- كما تشاء.

(إميل) وهو يمد يده ليساعد (أوليفر) على النهوض:

- هيا يا (أوليفر).. لنذهب.

تطلّع إليه (أوليفر) بشرود قائلا:

- نذهب إلى أين؟

- إلى أين؟ يا له من سؤال؟ ألم تلحق بنا لخوض هذه المغامرة معنا؟ إذن لنذهب معا.

أطلّت نظرةُ امتِنان من عيني (أوليفر) وارتسمت ابتسامة باهتة على مُحيّاه وهو يمسك بيد (إميل)...

أشاح (يزن) بوجهه ليخفي ضِيقه وهو يحمل أمتعته ومصباحه قائلا:

- ماذا لو عادت الديدان؟

(إميل):

- لو كانت ستعود لعادت الآن.. من الواضح أنها فرّت من الكيان الغامض مؤقتا على الأقل.. لذلك لنستغلّ الفرصة ونعجّل بالرحيل.

لم يصادفوا أية ديدان مع تقدمهم صعودا كما لو أن الديدان قد قررت فعلا هجر الأنفاق بسبب هجوم الكيان الغامض.. أمضوا وقتهم وهم يتساءلون.. لماذا لم يفترسهم الكيان الغامض؟ بل لماذا أنقذهم من الأساس؟ ولماذا فرّت منه الديدان ولم تفترسه؟ دار نقاشهم هذا دون جواب...

كان (يزن) يتفقد مسارهم من خلال الساعة كلما واجهوا مفترق طرق.. لم يَمضِ عليهم الكثير من الوقت حتى...

- انظر.. إنه ضوء.

هتف (يزن) وهو يشير إلى نهاية النفق الصاعد.. تراءى للجميع ما بدا كأغصان شجر متشابكة تسد نهاية النفق وقد سطعَت أضواء متفرقة من خلالها...

تابع (يزن) بحماس:

- أخيرا تجاوزنا طبقة الديدان.. الآن سنعرف الحقيقة.

أنهى كلامه وهو يسرع الخطى واللهفة تَملأ عينَيه...

(إميل) وهو يحاول اللحاق به لاهثا:

- آمل ألا يكون تجويفا آخر.

لم يكلّف (يزن) نفسه بالرد وهو يندفع عبر الأغصان مع مرافقيه و.. صرخ الجميع ألما عندما لامسَ الضوء الساطع أعينهم وأغشاها فغطّوها بأيديهم لبضع دقائق قبل أن تتكيّف أعينهم مع هذا الضوء.. أزاحوا أيديهم ببطء وحذر ثم...

تسمّر الجميع في أماكنهم واتّسعت الأعين ذهولا.. فغر (إميل) فاه وشهق (يزن) و(أوليفر) بقوة.. فما رأوه أمام أعينهم لم يكونوا ليصدقوا وجوده لولا أنهم يقفون وسطه الآن.

عالمٌ جَديد

لخمس دقائق كاملة لم ينطق أحدُهم بحرف.. مهما احتشدت الكلمات والمعاني فهي لن تكفي أبدا لوصف شعور (إميل) وهو يُجيل بصرَه لما حوله بعينَين متّسعتين وأنفاس متلاحقة.. هذه الغابة.. إنها أجمل غابة رآها في حياته.. غابة خضراء بالكامل -على النّقيض من غاباتهم الرمادية الكئيبة-تتوسطها بحيرة متصلة بنهر ويعلوه شلال مُتدرج.. وكل هذا يعلوه سقف أزرق تعلقت به كتل دخانية بيضاء مع أقوى مصباح ينير هذا كله.. وما زاد عذوبة المنظر هو نسمة الهواء الباردة التي داعبت أجسادهم...

- فعلناها.. لقد فعلناها.. يا هووووو.

هتف (يزن) بأعلى صوته وهو يقفز فرحا مُلوّحا بقبضته في الهواء ثم التفت إلى (إميل) المبهور ووضع يديه على كتفيه وتابع بسعادة غامرة:

- ألم أخبرك أننا سنجده؟ ألم أخبرك؟

(إميل) بأنفاس مَبهورة:

- وكنت محقا طوال الوقت.. انظر إلى هذا السقف الأزرق إنه ممتد إلى ما لا نهاية.. انظر إلى المصباح المعلق به.. انظر إلى الغابة.. قل لي إنني لا أحلم.. قل لي إن كل هذا حقيقي!

- حقيقي يا (إميل).. حقيقي.. وإن كان حلما فهو حلم لا أرغب بالاستيقاظ منه.

قالها (يزن) قبل أن يخطو نحو الشلال يتبعه رفيقاه.. الجميع يتأمل ويتحسس ما حوله من أشجار وأعشاب بمنتهى الانبهار.. وصل الثلاثة إلى البحيرة...

(أوليفر):

- ما هذا؟!

التفت الجميع إلى المخلوق العجيب الذي يشرب من مياه البحيرة وقد انتبه لهم فتطلع إليهم بفضول حيواني.. كان المخلوق بنيَّ اللون ذا أعيُن سوداء وخطمٍ طويل وأربعُ قوائم طويلة وقرنين أشبه بأغصان الشجر الجافة بارزَين من رأسه.. تعلقت أعين الجميع بترقب وحذر على المخلوق الذي لم يلبث أن استدار مسرعا وتوغّل في الغابة..

(إميل):

- يا له من مخلوق عجيب.. ماذا يطلق عليه يا ترى؟!

(يزن):

- سنعرف ذلك لاحقا.. أما الآن فكل ما أريده هو الاغتسال وتناول بعض الطعام.

(إميل):

- معك حق فنحن لم نأكل شيئا منذ أن بدأنا الرحلة.

اغتسل الجميع ثم جلسوا يتناولون الطعام على ضفّة النهر والانبهار لم يفارقهم لحظة واحدة شأنهم شأن من يكتشف عالما جديدا يختلف تماما عن عالمهم..

(إميل) وهو يمضغ آخر قطعة من طعامه ويتأمل ما حوله:

– أتدري يا (يزن).. أظن أنني لن أعود إلى عالمنا.. أعني لم نعود طالما بإمكاننا العيش هنا؟ لم لا نخبر الجميع لينضمّوا إلينا؟

(يزن):

– كلامك سابق لأَوانه.. فنحن لم نستكشف هذا العالم بعد ولا نعرف ما ينتظرنا سوى ما رأيناه في الكبسولة.. لنتريّث قليلا.

(أوليفر) بعينَين ساهمتَين:

– (يزن) معه حق.

نظر إليه (يزن) باستغراب ورمقَه (إميل) باستِهجان فأشاحَ بوَجهه بضيق قائلا:

– آه.. ليكن ما دمتما ترَيان ذلك.

ابتسم (يزن) للحظات ثم حمل صوته نبرة جادة وهو يشغل الساعة قائلا:

– والآن بعدما استرحنا لننتقل إلى الخطوة التالية.. سنتوجه مباشرة إلى موقع الكبسولة الثانية وبعدها لنقابل أحد سكان هذا العالم.

وافقه الاثنان بإيماء رأسيهما وأكد (إميل) على كلامه قائلا:

- مؤكد.

(يزن):

- هيا بنا.. من هذا الاتجاه.

قالها وهو يغلق الساعة بعد ما تفقد مسارهم لموقع الكبسولة... ما إن تحركت المجموعة لمسافة بسيطة حتى اهتزّت الغابة وتناهى لمسامعهم هديرٌ عالٍ مَصحوب بصوت أشبه بسقوط شيء ضخم وثقيل! تسمّر الجميع في أماكنهم وهو يلتفتون حولهم برعب لدرجة أنهم لم يلتفتوا للطيور التي حلقت مبتعدة مع اهتزاز الغابة مصدرة أصواتها المختلطة...

(إميل):

- يا إلهي ما هذا؟!

لم يكد ينهي تساؤله حتى اهتزت الغابة ثانية وتعال الصوت الضخم...

(يزن):

- لا أدري.

اهتزّت الغابة وتعالى الصوت الضخم مجددا حاجبا أي صوت سواه...

(يزن):

- من هذا الاتجاه.

توجه الجميع إلى حيث أشار وهم يترنّحون مع كل مرة تهتز فيها الغابة.. ما إن وصلوا لحدود ساحة خالية تقريبا من الأشجار حتى اتّسعت أعينهم على أقصاها واحتبست الكلمات في حلوقهم.. فأمامهم وعلى مسافة لا بأس بها اهتزّ كل شيء من حولهم حتى الهواء على وقع خطوات ثقيلة لعملاق يُناهز ارتفاعه ارتفاع سقف بلدتهم ذو وجه حيواني وجلد رمادي يميل للأسود يرتدي قطعًا حجريّة مُزخرفة أشبه بالدروع على ذراعيه وكتفيه وركبتيه ويحمل هِراوةً حجرية هائلة الحجم مزخرفة بعناية.. الشعر الأسود الثائر يغطي رأسه وكتفيه وظهره وصدره.. يبرز قَرناه من جانبي رأسه، وعيناه صَفراوان مُدوّرتان بالكامل.. قدماه أشبه بصخرتين منحوتتين على شكل شبه دائري علّق عليهما حلقات معدنية متفرقة على مسافات متساوية.. وفوق كتفيه وقف مخلوق لم يتبيّنوا ملامحه جيدا.. فقط تبين منه لون بشرته الأزرق المائل للرمادي قليلا وشعره الطويل الأبيض المتطاير من خلفه مع تطاير حرملته الملتفة حول كتفيه وظهره، وانعكس النور على دِرعِه التي غلفَت جسده وذراعاه تقبضان على لِجام التفّ على رأس العملاق وبدا واضحا أنه يقوده وأنه قائد المجموعة التي تمشي راجلة خلف العملاق والتي تميز عنها قائدها بحرملته الحمراء.. بعضهم ذو شعر طويل والآخر بدون..

وبعضهم يخفي رأسه تحت جماجم حيوانية يبرز شعرهم الطويل من أسفلها.. جميعهم طوال القامة يَمتشِقون أسلحتهم ويلبسون دروعهم...

(يزن) بأنفاسٍ مبهورة:

- أترَيان ما أراه؟!

ما إن أنهى تساؤله حتى توقف الموكب فجأة وأشار أحدهم باتجاههم وفي اللحظة التالية شقّ الهواء شيء ما صفر بجانب أذنه اليمنى! وقبل أن يستوعب الثلاثة ما حصل انفصل اثنان من الموكب واندفعا نحوهم بسرعة لا تصدق.. إنهما من اللذين تغطي رؤوسهم الجُمجمة الحيوانية ذات القرون القصيرة!

(إميل):

- اللعنة.. إنهم يطاردوننا.

(يزن) و(أوليفر) في آن واحد:

- لنهرب.

(إميل):

- كلا.. عندي فكرة أفضل.

قالها وهو يمسك بمعصم (أوليفر) الخائف واندفع الثلاثة عائدين إلى الغابة.. ما هي إلا لحظات حتى وصل مطارديهم إلى المكان الذي كانوا يقفون فيه ودخلا الغابة و...

فجأة تَصلّبا في مكانهما وهما يلتفتان ويبحثان بأعينهم الغاضبة عن الثلاثة وسط كومات الأعشاب الكثيفة المنتشرة بالغابة التي بدَت خالية وهادئة.. تقدم المخلوقان وأحدهما يحدث الآخر بنبرة غاضبة وبلغة عجيبة وصوت أعجب لا يمتّان للبشر بصِلة وهما يضربان بسيفيهما كومات الأعشاب بشكل عشوائي...

مدّ (إميل) رأسه قليلا ليتمكن من الرؤية من وسط كومة العشب التي اختبأ فيها مع (أوليفر) وتطلع إلى ظهر أحد المخلوقين.. اتّسعت عيناه وكتمَ صرخة فزَع كادت تفلُت منه بيده.. فقد كان لأحد المخلوقين أربعة أياد.. في كل يد سيف مُسنّن غريب التصميم.. طوله -المخلوق لا السيف- لا يقل عن المترين إن لم يكن أكثر.. كان يُزمجر بغضب شأنه شأن من يبحث عن فريسة أفلتت منه.. الآخر كان مثل البشر تقريبا وإن كان أطول وقد استند بإحدى قدميه على جذع شجرة مُجوّفة غطّتها طبقة كثيفة من الأعشاب القصيرة وهو يهزّها بحنَق ويتمتم بلغته العجيبة قبل أن يرفع سيفه ويغرسه بقوة في الجِذع الذي اختبأ فيه (يزن)! مرقَ السيف المسنّن أمام عيني (يزن) بالضبط فلم يتمالك نفسه وندّت منه شهقةُ فزع قصيرة سرعان ما كتمها بيده.. لا يدري هل سمعها المخلوق أم لا.. بدأ

السيف ينسحب ببطء أمام عينيه وبعدها هبط صمت ثقيل للحظات مرت بطيئة على (يزن) وهو يكتم أنفاسه بصعوبة وضربات قلبه تتسارع والعرق يتفصّد على جبينه قبل أن يتناهى لسمعه صوت خطوات تدور حول الجذع وتتوقف أمام الفتحة التي تواجه رأسه.. صوب عينيه نحو الفتحة لتَصطدما بالساقين العضليّتين بلَونهما الأزرق المائل للرمادي المَحشورتَين في صنادل جلدية على شكل خيوط تغطيهما بالكامل.. انخلع قلبه رعبا وانسحبت الدماء من وجهه وهو يرى اليد المخلبيّة التي امتدّت لتقبضَ على طرف الفتحة العلوي.. تحفّز (إميل) وهو يشاهد ما يحدث من مكانه فاستلّ بُندُقيّتَه بهدوء وأحكم تصويبها نحو رأس المخلوق الذي ينحني نحو... فجأةً اهتزت الغابة واهتز الهواء إثر هدير العملاق... تبادل المخلوقان حديثا سريعا قبل أن تختفي الساقان واليد من أمام ناظري (يزن).. تصاعدت أصوات خطوات سريعة مبتعدة لتمتزج بعدها اهتزازات الغابة بأصوات خطوات العملاق الثقيلة معلنة تحرك الموكب...

تنفس (يزن) الصعداء وخرج من مكانه بعد أن اطمئنّ لخلوّ المكان قائلا:

– تبا.. كان هذا وشيكا.

(إميل) وهو يخرج من مَخبئه مع (أوليفر) الذي عاد لشروده وكأن شيئا لم يكن:

– يا لها من طريقة ترحيب غريبة في هذا العالم.

(أوليفر) بشرود:

– لماذا طاردونا هكذا؟! ولماذا رحلوا فجأة؟!

(إميل) وهو يتقدم قليلا ويُحملِق نحو الموكب الذي لم يعد ظاهرا منه سوى كتفي العملاق مع قائده:

– بالنسبة لسؤالك الأول لا أدري.. أما الثاني فمن الواضح أن هدير العملاق هو السبب.. الأرجح أنه نداء يأمرهم بالعودة.

(يزن) وهو يقف بجانبه ويُحملق نحو كتفي العملاق:

– وهذا ما أنقذنا لحسن الحظ.. أيا كان هؤلاء فهم ليسوا بشرا بكل تأكيد.

(إميل):

– كل ما آمله هو أن نجد بشرا في هذا العالم لنعرف منهم كل شيء.

(يزن):

– سنجد حتما.. والآن لنركّز على ما جئنا من أجله.

عاد الثلاثة لمَسارهم وهم يتوغلون في الغابة...

(إميل):

- (يزن).. هل يمكن أنّ من رأيناهم سكان هذا العالم؟! أعني أمن الممكن أن يكون هذا العالم خاليا من البشر؟

(يزن):

- أستبعد ذلك.. وإلا من أين أتت الكبسولة ومن صنعها؟

(إميل):

- حسب كلامك الكبسولة صنعت قبل مئات السنين فماذا لو انقرضَ البشر من هذا العالم خلال تلك الفترة الطويلة؟ أليس هذا واردا؟

(يزن):

- ربما.. وعلى أي حال لن نعرف حتى نستكشف أكثر ولن نفعل ذلك قبل إيجاد الكبسولة الثانية.

ساد الصمت بعدها وهم يواصلون سيرهم و(يزن) يتفقد مسارهم بين الحين والآخر حتى مضت عليهم ساعات وبدأ الضباب يتكاثف من حولهم حاجبا النور الذي بدأ يخفت مصحوبا برائحة غاية في الشّناعة!

(إميل) وهو يسدّ أنفه باشمئزاز:

- ما هذه الرائحة الكريهة؟! وما هذا الدخان ومن أين يأتي؟!

(يزن) وهو يسدُّ أنفَه ويشير إلى مرتفع أمامه:

- وما أدراني؟ تجاهلها فنحن على الطريق الصحيح.. هيا لنتجاوز هذا المرتفع.

تبعهما (أوليفر) وهو يسدّ أنفه هو الآخر مُتمتِما بكلمات غير مفهومة...

تقدم (يزن) صاعدا المرتفع و...

تجمّد في مكانه وهو يحدّق في شيء ما أمامه وسط الضباب بعينين جاحظتين!

(إميل) وهو يلحق به ليقف بجانبه:

- ما بك؟ لماذا توق...

انعقد لسانه هو الآخر وامتَقعَ وجهه ولم يكن (أوليفر) أحسن حالا وهم يحدقون بعيون اتّسعت حتى كادت تخرج من مَحاجرها من الهول الذي أمامهم.. هول يفوق أشنعَ كوابيسهم!

اكتشافٌ غير سارّ

الآن فقط فهموا سرّ الرائحة الشّنيعة.. لم يحتمل (يزن) أكثر فأفرغ كل ما في معدته وأشاح (أوليفر) بوجهه وقد تسلّلت صرخة فزع إلى شَفتيه ونزل عن المرتفع وانكفَأ على نفسه وهو يرتعش في حين ارتجفت شفتا (إميل) وشحبَ وجهه وجفّت الدماء في عروقه.. فأمامهم وعلى مساحة واسعة كانت الوجوه تتطلع إليهم... غابة وجوه بشرية لم ينجح الضباب في حجبها.. وجوه لمئات الجُثث المُسمّرة على أوتاد خشبية تدخل من أسفلهم ليبرز طرفها المدبب من أعلى الكتف.. وجوه تبدّت عليها ملامح الرعب والألم.. جثث رجال ونساء وأطفال لا تسترهم إلا الأسمال البالية... بعضها تَحلّل أو نصف مُتحلّل.. وبعضها تحول لهياكل عظمية.. والأسوأ أن بعضهم ما زال حيا ويئنّ ألما بخفوت عاجزا عن الصراخ وأطرافهم ترتعش مع أنينهم...

أول من استعاد نفسه وهو يصارع خوفه هو (إميل) الذي هتفَ بصوت مختنق:

- يا إلهي.. ما هذا؟!

لم يَتلقّ إجابة سوى المزيد من الأنين الذي بدأ يتَصاعد وكأن الأحياء من تلك الأجساد قد أدركَت وجودهم.. امتدت بعض الأيدي المرتعشة نحوهم وكأنها تطلب العون...

(يزن) بصوت مرتعش:

- (إميل).. (أوليفر).. لنبتعد من هنا.

بدا وكأن (إميل) لم يسمعه وهو يشير نحو أحد الأجساد قائلا:

- (يزن).. إنه يُحاول أن يقول شيئا ما.

- (إميل) ماذا تفعل؟! عد.

قالها (يزن) بصوتٍ مُختنق غير مصدق لما يفعله (إميل) الذي لا يدري كيف واتتْه الشجاعة لينزل المرتفع ويتقدم ببطء وحذر ليقف تحت قدمي رجل مُسمّر على أحد الأوتاد.. غارت عينا الرجل وهو يتنفس بصعوبة ويهمس بضعف بكلمات سمعها (إميل) بذهول...

(يزن):

- (إميل).. عُد!

لم يُبد (إميل) أية استجابة فقد ظل يحدّق إلى الرجل بعينين ذاهلتين.. هنا قرر (يزن) نزول المرتفع بعد تردد وما إن اقترب من (إميل) حتى عرف سرّ ذهوله.. كان الرجل يهمس بضعف شديد:

- أرجوكم.. اقتلوني...

تملك الذهول (يزن) هو الآخر وبدا منظرهما كتمثالين تعلو ملامحهما أعتى أمارات الرعب...

(إميل) وعيناه مسمرتان على الرجل الذي لم يعد يقوى على الهمس:

- (يزن).. ماذا سنفعل؟

(يزن) وعيناه على الرجل وهو يمسك معصم (إميل):

- دعنا نغادر هذا المكان.

- هل سنتركه هكذا؟!

- لا يمكننا فعل شيء.. لنرحل.

قالها وهو يشد معصم (إميل).. تناهى لسمعهما وسط الأنين وقع أقدام ثقيلة تقترب ممتزجة بصوت غريب حاد...

(يزن) هامسا:

- هناك أحد قادم.. لنَختبئ.

قالها وهو يسحب (إميل) معه إلى ما خلف المرتفع و(أوليفر) ما زال منكفئا على نفسه ويرتجف بصمت.. بحذر شديد رفع (إميل) و(يزن) رأسيهما من خلف المرتفع.. ومن وسط الضباب والأجساد المسمرة تبدى لهما خيال شيء ضخم يقترب بهدوء وثقة والضباب يَنقشع عنه شيئا فشيئا حتى اتّضحت معالمه.. تجمّدت الدماء في العروق وانحبسَت الأنفاس.. فأمامهما وعند الرجل الذي كانا عنده منذ قليل توقف مخلوق ضخم غطّت ظهره الأحدَب عباءة صوفية سوداء ثائرة واختفى رأسه خلف جمجمة حيوانية ذات أربعة قرون ضخمة متفرعة كالأغصان الجافة وبرزت من أسفلها ضَفيرتا شعرٍ أبيض امتدّتا حتى ركبتيه في حين

انسدلَ شعره الأبيض على ظهره وقد ارتدى أسفل العباءة مِعطفا رماديّا أنيقا يصل إلى ركبتيه.. ساقاه الضّخمتين مَحشورتين في حذاءين يُغطّيانِهما بالكامل.. إنه إحدى تلك المخلوقات التي طاردتهم إلا أنه بدا أضخم قليلا...

ولسبب لا يدريه (إميل) ارتعدَت فرائصُه خوفا وهو يحدق لهذا الشيء الذي امتدت يده ذات الأصابع الأربعة المخلبية لتربت بهدوء على كاحل الرجل قائلا بلغة بشرية وبصوت عميق مخيف لا يمُت للبشر بصلة:

- لا بأس عليك يا عبدي المُخلص.. لا بأس عليك.. لقد أبليتَ حسنا ببقائك حيا حتى الآن.

همس (إميل) بصوتٍ منخفض للغاية:

- إنه يتحدث لغتنا.

أشار له (يزن) بالصمت.. تحركت شَفتا الرجل المسمّر في محاولة لقول شيء ما لكنه لم يفلح.. تحسّس المخلوق عروق قدم الرجل بهدوء عجيب قائلا:

- أعلم أنك تشتهي الموت يا عبدي.. ولكن الحياة هِبة مقدّسة.. لا تفرّط بها.

أعقب قوله بأن مزّق عروق قدم الرجل الذي تأوّه بضعف وامتدت يد المخلوق الأخرى بكأس فضيّة مُزخرفة ليملأها بالدماء و.. ارتشف المخلوق الدماء بتلذُّذ وسط الأنين والضباب والأجساد ليخلق لوحةً جسدت كل الرعب بالنسبة ل (إميل) و(يزن) اللّذان شلّ الخوف أركانهما.. وليكتمل المشهد شقّ صوتٌ حاد الهواء وحلق شيء ضخم يغطي الريش البني كامل جسده عدا رأسه ورقبته الطويلة فوق الجثث قليلا قبل أن يحطّ على كتف المخلوق الغريب...

همس الرجل المُسمّر بتهالك شديد بشيء لم يسمعه سوى المخلوق الذي التفت إليه ومد الكأس ليلامس شفتي الرجل قائلا بصوته العميق:

- اشرب.. ارو ظَمأك.

ارتشف الرجل قليلا قبل أن يسيلَ ما ارتشفَه على جانبي فمه وتهمد حركته إلى الأبد..

- يا للأسف.

قالها المخلوق وهو يبعد الكأس عن شفتي الرجل.. في اللحظة التالية انقضّ الطائر على الجثة وأنشبَ مخالبَه ومنقارَه المعقوف وتعالى صوته الحاد ممتزجا بصوت تمزيق اللحم المحطّم للأعصاب.. كتم (إميل) و(يزن) شهقة رعب كادَت تفلت منهما وبسرعة أنزلا رأسيهما في ذات اللحظة التي التفت فيها المخلوق ببطء نحو البقعة التي يختفيان خلفها

كما لو أنه شعر بوجودهما.. حبس (إميل) و(يزن) أنفاسهما ولحسن حظهما أن (أوليفر) لم يرَ ما رأياه وإلا لملأ الدنيا صراخا...

مضت دقيقة كاملة والمخلوق يحدّق إلى البقعة التي كانت تحتل رأسيهما قبل أن يستدير عائدا من حيث أتى وهو يردد:

- يا للأسف.. يا للأسف!

تناهى إليهم صوت الخطوات الثقيلة وهي تبتعد ثم لحق بها صوت الطائر الحاد.. ولدقائق طالت لم يجرؤ أي منهما على الحركة أو إصدار أي صوت...

باستِثناء الأنين الذي لم ينقطع لحظة واحدة يمكن القول أن الصّمت قد خيّم عليهم لدقائق قبل أن يهمس (إميل):

- هل.. هل رحل؟

(يزن):

- أظن ذلك.

رفع (إميل) رأسه ببطء وحذر من خلف المرتفع بأقل قدر ممكن لتصطدم عيناه بغابة الوجوه المعذبة قبل أن يعيده لموضعه ويردف:

- إنها فرصتنا.. لنرحل من هذا المكان المشؤوم.. هيا يا (أوليفر).

قالها وهو يرفع (أوليفر) الذي ما انفكّ يرتجف من ذراعه مجبرا إياه على النهوض قبل أن يستديروا جميعا عائدين من حيث أتوا بصمت.. صمت لازمهم حتى كشّر الظلام عن أنيابه زاحفا نحو الغابة التي يسيرون فيها والتي بدت موحشة أكثر من أي وقت مضى.. صمت لم يَقطعْه سوى وقع أقدامهم وأصوات الحشرات الليلية الغامضة وقد بدا من الواضح أن لا أحد منهم يرغب بالحديث عما شاهدوه إلى أن قطعه (يزن) وهو يوقد مصباحه قائلا:

– لقد انخفضت الإضاءة إلى حد كبير.. يبدو أنهم يستخدمون ذات نظام الإضاءة المستخدم في عالمنا.

سكت قليلا ثم أضاف ساخرا:

– يبدو أن سكان هذا العالم يعشقون الظلام الدامس في ساعات الراحة.

(إميل) بشرود وكأنه يحدث نفسه:

– بعد ما رأيناه لم أعُد أطيقُ البقاء لحظة واحدة في هذا العالم.. لا أدري ما الذي جرى في السنوات الماضية.. لكن من المؤكد أن كل ما رأيناه في ألبوم الصور من حضارة وتطور للبشر لم يعد لهما وجود.

صـــمت قليلا باحثا عن الكلمات المناســبة وابتلعَ ريقَه ثم أردف بصوت سرت فيه الارتجافة:

– وأخشى أن ما شاهدناه هو مصير البشر في هذا العالم.. وربما مصير كل من سبقونا إن وجدوا.

سرَت القَشعريرة في أجسادهم لمجرد التفكير في هذا الأمر فلاذوا جميعا بالصمت لدقائق قبل أن يتنهد (يزن) قائلا وهو يتفقد مسار العودة من خلال الساعة:

– إننا حتى لم نحصل على الكبسولة الثانية.

نظر إليه (أوليفر) بدهشة في حين توقف (إميل) عن السير والتفت إليه هاتفا باستنكار:

– ما هذا الذي تقوله؟ أهذا كل ما يشغل بالك؟ بعد ما رأيناه؟!

(يزن) وهو يوقف عمل الساعة مُشيحا ببصره:

– ربما لو التفَفنا حول تلك ال...

– لمَ لمْ تفعل إذن؟

لم يجد (يزن) جوابا وهو يلتفت لتَصطدم عيناه بوجه (إميل) الجامد الخالي من التعابير قبل أن يوجه بصره –أي (يزن)–إلى الفراغ ويبتلع ريقَه بصمت...

(إميل) بامتِعاض وهو يواصل السير:

- لتذهب تلك الكبسولة إلى الجحيم ولنَنسَ كل شيء يتعلق ب...

بتر (إميل) عبارته وتصلّب في مكانه بغتةً وامتدت يده لتَستلّ بُندُقيّتَه بسرعة وهو يتلفت حوله بتحفُّز.. تأوه (أوليفر) عندما اصطدم بظهر (إميل) وقال (يزن) بتعجب:

- ما بك؟ لم توقفت؟!

همس (إميل) ضاغطا على كلماته وهو يجيل بصره ويُصوّب فُوّهَة بُندُقيّتِه بين أشجار الغابة الكثيفة مهتديا بضوء مصباح (يزن):

- أخفِض صوتك يا غبي وأصِخ السمع.. هناك من يتبعنا.

- ماذا؟!

قالها (يزن) وهو يتلفّت حوله بقلق مُصوّبا نور مصباحه في جميع الاتجاهات كيفما اتّفق في حين ارتسم الخوف على ملامح (أوليفر) وهو يلتصق بكتف (إميل) مُجيلا بصره بين الأشجار بذُعر.. أصاخَ (يزن) السمع.. بالفعل هناك صوت خافت لحفيف أوراق الشجر.. هناك أشياء تتحرك من حولهم بخفة وسط الظلام...

همس (يزن) وهو يتراجع ليلتصقَ برفيقَيه:

- ماذا سنفعل؟

(إميل) بتَهكّم وهو يُدير عينيه ويُصوّب بُندُقيّتَه حيثما تعالى صوت الحفيف:

- ماذا سنفعل؟! يا له من سؤال.. سنُقاوم بالطبع يا أحمق.. لن نكون لقمة سائغة.. خذ البَلطَة من حزامي.

سحب (يزن) البلطة الرفيعة كالسّيخ من حزام (إميل) وهو يلتفت حوله بترقب وحذر.. تزايد صوت الحفيف وتعالى وقع خطوات كثيرة من حولهم بشكل ملحوظ مما ضاعف من تأهّب وتوتر الجميع...

(أوليفر) بصوت خفيض:

- إنهم يحاصروننا.

(يزن) شاهرا البلطة:

- (إميل) أنا لست بارعا باستخدام هذا السلاح.

- فقط لوّح به واضرب بقوّة.

تعالى الحَفيف ووقع الأقدام أكثر وأكثر بشكل فَجّ وواضح لثوان ثم خفتَت واختفَت دفعة واحدة.. عمّ الهدوء والسكون الغابة.. بلغَ التوتر ذُروته وهم يتلفتون حولهم على غير هدى...

(إميل):

- لا ترخوا دفاعكم.. ابقوا مُتأ...

وقبل أن يكمل (إميل) عبارته شعر بشيء ثقيل يهوي عليهم من الأعلى! شيء مُتّشح بالسواد التحمَ مع (إميل) ولم يَمنحْه فرصة الدفاع عن نفسه.. وفي اللحظة التالية وقبل أن يفهم أحدهم ما حدث أو يتخذ رد فعل مناسب انقضّت عليهم أشياء متّشحة بالسواد من جميع الاتجاهات دفعة واحدة.. أطلق (أوليفر) صرخة مُدوّية وصاح (يزن) بكلام غير مفهوم وهو يُلوِّح ويضرب بالبَلطَة المجموعة التي أطاحت به.. أصاب بعضهم قبل أن يُباغته أحدهم من الخلف ليَلوي ذراعَه التي تحمل البلطة ليفلتها ويعتصر عنقه.. صرخ (يزن) بغضب ويأس وهو يقاوم باستِماتة من تَكالبوا عليه في حين أطاحت المجموعة الثانية ب(إميل) الذي لم يجد الفرصة لتصويب بُندُقيّتِه على خصمه الذي برَك عليه وتمسّك بالبُندُقيّة بكلتا يديه بقوة محاولا انتزاعها بينما رقدَ (إميل) على ظهره متمسّكا هو الآخر بالبُندُقيّة قبل أن يَستنفرَ عضلاته ويدفع بكل ما أوتي من قوة ليقلب خصمه على ظهره ويبرك هو فوقه.. هوى برأسه على وجه خصمه الذي تأوّه ألما وتراخَت يَداه عن البُندُقيّة ليسحبها (إميل) ويهم بضرب رأسه بطرفها الخشبي لولا أن أحاطت ذراعين قويّتين برقبتِه وسحبتْه ليقف على قدميه ثم هوَت قبضة قوية على

خدّه الأيسر وأخرى على بطنه لتتراخى يديه عن البُندُقيّة وينتزعها أحدهم.. صرخ (إميل) بقوة:

- أيها الملاعين.

هوى برأسه للخلف ضاربا وجه من يُكبله ودفن ركبتَه في بطن من يقف أمامه و...

فجأة تعالى الصّراخ ودبّت الفوضى بين المهاجمين وهم يتدافعون هربا من شيء مُتّشح بالسواد يمتطي حيوانًا كبيرا لم يَتبيّنه (إميل) جيدا بسبب الظلام وإن بدا مألوفا نوعا ما.. اندفع الحيوان ذو القوائم الأربعة الطويلة والعنق الطويل بصاحبه واخترق صفوف المهاجمين المذعورين واصطدم ببعضهم وهو يطلق أصواتا غريبة لم يسمع (إميل) و(يزن) مثلها من قبل.. تفرّق المُهاجمون عن (يزن) الذي شعر بيد قوية تقبض على معصمه وترفعه لأعلى ليجد نفسه على ظهر الحيوان الأسود الذي واصل اندفاعه وسط الظلام.. وقبل أن يلتفت أو يقول شيئا لصاحب الحيوان شعر بضربة قوية على مؤخرة رأسه فغامت الدنيا من حوله وفقد الوعي..

في خضمّ ما حدث حاول (إميل) البحث عن (أوليفر) وهو ينادي عليه دون أن يتلقى أي رد ودون أن يعرف ما إذا تمّ أسره أم أفلت بطريقة ما؟ اندفع بين الأجساد محاولا إيجاده.. اعترض بعض المهاجمين طريقه

فهوى بقبضتِه ليُهشّم أنف أولهم واستدار ليَلكمَ آخر ويركل ثالثا.. كان (إميل) يقاتل ببأس وبَسالة لكن المثل القديم يقول:

((الكثرة تغلب الشجاعة))...وهذا ما حصل..

على الرغم من إصرار (إميل) واستِبساله إلا أن المهاجمين أطبقوا عليه أخيرا لتنهال عليه اللّكمات والرّكلات حتى خارَت قواه وسقط بين أقدامهم.. رأسه ينبض بالألم بعنف.. رأسه يتثاقل.. الدنيا تظلم أكثر من حوله.. إنه.. إنه يغيب عن الوعي...

أشياء غير مُتوقّعة

تَأوّه (يزن) وفتح عينيه بتَثاقل والصداع يَكتنِف رأسه.. اصطدمت عيناه بالسقف الحجري الذي يعلوه ثم تطلع إلى ما حوله بحيرةٍ ليجد نفسه مُستلقيا على حَشيّة بسيطة في ركن تجويف صخري متوسط الحجم مُضاء بمصباح يتدلى من سقفه وتتوسطه طاولة خشبية مع مقعدين مَصنوعين بشكل بدائي في حين علقت قطع ملابس بعضها بدا مألوفا وبعضها غريبا على مَشاجب جدارية.. الهواء البارد يتسلل بهدوء مع إحدى فتحتي التجويف ليخرج من الأخرى.. حاول رفع رأسه والنهوض لكنه سقط بسبب الدوار الذي جعل من رأسه يزن أطنانا.. استسلم وأغمض عينيه وهو يسترجع بذاكرته ما مر به منذ عثوره على الكبسولة وحتى لحظة فقدانه الوعي على يد مُنقذِه.. وربما مُختطفِه! لا يدري.. عند هذه النقطة فتح عينيه وقد بدأ الدوار ينحسر شيئا فشيئا.. ما الذي حل بـ(إميل) و(أوليفر)؟ وأين هو؟ هل هو في عالمهم السفلي؟ لا.. مستحيل.. حدسه يخبره أنه لم يعد لعالمه.. كما إن معظم محتويات هذا التجويف لا تمت لعالمه بصلة.. من الواضح أن هذا التجويف يعتبر بمثابة غرفة المعيشة لساكنيه اللذين هم في الغالب شخصين.. أم تراهما شيئين؟! لا يدري بالضبط.. أيا كان من جلبَه فقد أخطأ بعدم تقييده.. كل ما عليه الآن هو التسلل بهدوء والفرار من هنا.. بعدها يبحث عن رفيقيه ويعودوا جميعا إلى عالمهم.. لحسن الحظ أن من جلبَه لم يسلب منه ساعته أو حقيبة ظهره المركونة بجواره.. اعتدل في جلسته وتفقد ما يحمله في حقيبته بشكل سريع ثم تنهد بارتياح قائلا بصوت خافت:

- عظيم.. كل شيء في مكانه.

ارتدى حقيبته ووقف حائرا أمام فتحتي التجويف.. أيهما يسلك؟ التي على يمينه أو التي بالطرف الآخر من التجويف؟ لم تطل حيرته.. ابتسم بتهكُّم وهو يشغل الساعة قائلا:

- يا لضعف ذاكرتي.. كيف نسيت أمر الساعة!

أنهى كلامه وهو يتفقد المسار الذي سلكه حتى وصوله إلى هنا.. إذن فقد تم جلبه من المسار الأيمن.. أصاخ السمع قليلا.. كل شيء هادئ.. حزم أمره وتقدم بهدوء نحو الممر الأيمن.. تصلب في مكانه بَغتةً وأصاخ السمع ثانية.. لا شك في هذا.. هناك وقع أقدام خافتة تقترب.. إنها قادمة من الممر الذي ينوي عبوره! بلغ تَوتُّره ذُروته والخطوات تقترب أكثر وصداها يتردد من حوله.. انتهى وقت التعقّل وحان وقت الهلَع.. لا.. لن يشتبك معهم فهو غير متمرّس على القتال مثل (إميل).. سيفر من الممرّ الآخر وليكن ما يكون.. هكذا وجد نفسه يجري بسرعة نحو الممر الآخر دون أن يلتفت خلفه.. عبر فتحته.. وفي جزء من الثانية لمحَ أمامه رجلًا مُلتحيا في منتصف العمر غزا الصّلع مقدمة رأسه ترافقه فتاة شقراء ذات أعين خضراء ناعسة ترتدي لباسًا أسودَ فَضفاضا وقد تبدّت على وجهيها علامات الدهشة والمفاجأة! كيف ظهرا أمامه؟! تبا.. إنها ألاعيب الصدى اللعين الذي جعل من صوت خطواتهما وكأنها آتية من

الممر الأيمن.. حاول كبح نفسه والتوقف أثناء ركضه المحموم.. لكنه قانون القصور الذاتي الذي لا يُحابي أحدا -وهذا ما لا يعلمه (يزن)- ولهذا وجد نفسه يصطدم بالرجل الملتحي الذي تأوّه وقال شيئا ما بصوته المبحوح وهما يسقطان معا على الأرض.. حاول النهوض ومواصلة الفرار لكن الفتاة كبّلته بسرعة ولوَت ذراعه بقوة لم يعهدها لدى أي فتاة من قبل! تأوّه وهي تدفعه بخشونة إلى داخل التجويف قائلة ببرود:

- أرى أنك قد استيقظت أخيرا.

سـحبت أحد المقعدين وأجبرته على الجلوس في حين صرخ وهو يحاول التملُّص منها:

- ابتعدي عني.. لا تلمسيني.. ابتعدي.

تجاهلته الفتاة وهي تلتفت إلى الرجل الملتحي متسائلة:

- هل أنت بخير يا أبي؟

أشار الرجل الملتحي بيده أنه بخير ثم نهض نافضًا الغبار عن ملابسه وقال بصوته المبحوح:

- كدت تقتلني يا بني.. لو أنك انتظرت قليلا ل...

قاطعه (يزن) صارخا وهو يقاوم باستماتة:

- من أنتم؟ ولماذا اختطفتموني؟

الرجل الملتحي باستنكار وهو يسحب المقعد المقابل ويجلس عليه:

- اختطفناك؟! أي قول هذا؟!

- ماذا تسمون ما ف...

امتدّت يد الفتاة لتسدّ فمه وتمنعه من مواصلة الصراخ في حين التفّت ذراعها الأخرى حول عنقه لتُثبته على مقعده وهو يحاول التملُّص ويصدر من فمه هَمهمةً غاضبة غير مفهومة..

الفتاة ببرود:

- يا لك من أحمق.. هل أنت أبلَه لدرجة أنك تعجز عن التمييز بين الإنقاذ والاختطاف؟! حكّم عقلك البالي قليلا.. لو أنك مختطف لوجدت نفسك مقيدا على الأقل.. ولو أردنا بك سوءا لما انتظرنا استيقاظك ولفعلناه أثناء نومك الهانئ.

صمتت الفتاة قليلا و(يزن) ما زال يهمهم ويقاوم.. الرجل الملتحي يحدق بوجهه باهتمام بالغ.. أضافت الفتاة:

- والآن سأحرّرك بشرط أن تكفّ عن الصراخ وتستمع إلينا.. بعدها يمكنك الرحيل إن شئت.. اتفقنا؟

هدأ (يزن) قليلا وهزّ رأسه بالموافقة.. حررته الفتاة ليلتقط أنفاسه ثم دارت حول الطاولة لتقف بجانب أبيها الذي لم يرفع عينيه عن (يزن) لحظة واحدة..

(يزن) وهو يتحسّس عنقه:

- أفترض أنك أنت من داهم مهاجمينا؟

لم تجبه الفتاة فتابع:

- إن كان كذلك فلمَ أفقدتني الوعي؟

الفتاة ببرود:

- كنت ستقاوم وتجعل من مهمة إنقاذك أصعب.

رماها (يزن) بنظرة ازدراء قبل أن ينتبه إلى نظرات أبيها الغريبة فالتفت نحوه متسائلا باستغراب:

- أنت.. لم تُحدق بي هكذا؟!

خيل إلى (يزن) أن نظرات الرجل الملتحي قد تسلّل إليها الارتباك والخوف وانعكسا على صوته وهو يقول بخفوت:

- أهو أنت؟

(يزن) بعدم فهم:

- ماذا؟ ماذا قلت؟

لكن الرجل الملتحي لم يُجبه بل ظل يُحدّق إليه بحذر قليلا ثم هز رأسه وكأنما ينفض فكرة ما ولوّح بيده قائلا:

- لا.. لا شيء.. انسَ الأمر.

الفتاة وهي تنحني على أبيها واضعة يدها على كتفه:

- أبي لا يمكن أن يكون هو.. أنت أخبرتني مرارا بما حصل له ولو كان هو لكان بعمرك الآن وليس شابا هكذا.

أنهت كلامها وهي تلتفت إلى (يزن) وترمقه بنظرات مريبة..

الرجل الملتحي بشرود وبصوت تخنقه العبرات:

- لكنه يُشبهه يا (أدريانا).. يُشبهه كثيرا.

(يزن) باستغراب وهو ينزل حقيبته عن ظهره وينقل بصره بينهما:

- ما الذي تتحدثان عنه؟ ومن هذا الذي أشبهه؟!

برقت عينا الرجل الملتحي وكأنما سطعت في رأسه فكرة ما وقال:

- بنيّ أخبرني من أين جئت؟ لا.. لا تقل شيئا.. أنا سأخبرك.. جئت من الأسفل.. من العالم السفلي.. أليس كذلك؟

اتّسعت عينا (يزن) ذهولا قبل أن يتمالك نفسه سريعا.. لكن الصدمة التي تبدت عليه للحظات كانت أكثر من كافية ليدرك كل من الرجل

الملتحي وابنتُه الجواب.. ولكن كيف لهما أن يعرفا بأمر العالم السفلي؟ والأهم كيف عرفا أنه جاء من الأسفل؟! قالت الفتاة وكأنها تقرأ أفكاره وهي تشير بعينيها الناعستَين نحو ملابسه:

- تتساءل كيف عرف أبي بأمرك؟ إنها ملابسك يا ذكي.

نقل (يزن) بصره نحو ملابسه وكأنه يراها لأول مرة.. ربما تشي ملابسه بأنه لا ينتمي إلى هذا العالم.. ولكن..

تابع الرجل الملتحي بحماس بصوته المبحوح:

- نعم.. أنت جئت من الأسفل.. لا شك في ذلك.. أنا (رايان) وهذه ابنتي (أدريانا).. أخبرني ما اسمك يا بني؟

ظهر التردد على وجه (يزن) وهو ينقل بصره بينهما قبل أن يجيب:

- (يزن).

انتفضَ (رايان) بمجرد سماعه الاسم وهبّ من مكانه مستندا بيديه على الطاولة واللهفة والاهتمام يُطلان من عينيه:

- (يزن)؟ هل قلت (يزن)؟! أخبرني ما اسم أبيك يا (يزن)؟

(يزن) بتعجّب وحذر:

- (نايل).. (نايل بنُ سيف).

هبط الصمت على المكان.. ارتجفت شفتا (رايان) واتسعت عيناه وانحدرت دمعة ساخنة من عينه اليمنى وهو يردد:

- يا للمصادفة.. يا للمصادفة!

(أدريانا) تنظر إلى (يزن) بحيرة.. تحرك (رايان) نحو (يزن) الذي ارتبك وهو يتطلع إليه باستغراب قبل أن يمسكه (رايان) من كتفيه ويرفعه برفق ويتطلع مباشرة إلى عينيه للحظة ثم يحتضنه بقوة! علَت الحيرة والدهشة ملامح (يزن) و(رايان) ينتحب بصمت على كتفه ويُبلّله بدموعه.. كم تمنى (يزن) أن يبعد (رايان) عنه لكن قلبه لم يطاوعه فتركه على حاله حتى اقتربت ابنته ووضعت يدها بهدوء على كتفه في محاولة لإبعاده عن (يزن) قائله بنبرة حانية لم يتوقعها (يزن):

- أبي.. اهدأ أرجوك.. سأجلب لك شرابك المفضل.. هيا تعال.

سحبت (أدريانا) أباها برفق فاستجاب لها وهو مستمر بالنّحيب مُغطيا عينيه براحة يده.. اقتادَته ابنته لتجلسه على مقعده.. لا يدري (يزن) لم عاد للجلوس هو الآخر على مقعده.. ربما هو الفضول.. غابت (أدريانا) في الممر الذي جاءت منه وخلال فترة غيابها لم ينطق كل من (يزن) و(رايان) بأي حرف.. استمر (رايان) بالنحيب وبدأ يهدأ قليلا بينما كان (يزن) يرمقه بمزيج من التعاطف والحيرة وعدم الفهم.. هذا الرجل يعرف أباه المتوفي ولكن كيف؟! بعد بضع دقائق عادت (أدريانا)

حاملة كوبين من الخشب.. قدمت أحدهما لأبيها والآخر لـ(يزن) الذي لاحظ أنها تمسك بالكوبين بطريقة غريبة.. فقد كانت تحملهما بأطراف أصابعها من الأسفل!

(رايان) وهو يتجرع ما في الكوب ويمسح دموعه:

- المعذرة يا بني لأني لم أستطع تمالك نفسي.

تأمل (يزن) ما يحويه الكوب ليجد سائلا ذا لون أصفر قاتم.. ظهر التردد على وجهه وهو يتشمّم الكوب بحذر..

(أدريانا):

- اشرب فلست أنوي تَسميمَك إن كان هذا ما تخشاه.

رمقها (يزن) بحدة وقال:

- ما هذا الشراب؟

- إنه عصير برتقال.

- عصير ماذا؟! بر.. برتقال؟! ما هذا البرتقال؟

زفرت (أدريانا) بضيق وأشاحت بوجهها قائلة:

- لا أدري حتى لماذا أكلّف نفسي بالشّرح لمَعتوهٍ متخلف مثلك.

تجلى الغضب على ملامح (يزن) وهب واقفا وهتف بحدة:

- ماذا تقولين؟

تدخل (رايان) مُؤنّبا ابنتَه:

- كفى (أدريانا).. كوني لطيفة مع ضيفنا فهو لم يعش هنا مثلك.. لذا لا يمكنك لومه على جهله ببعض الأمور.

أدار عينيه نحو (يزن) الغاضب متابعا وقد تبدى الرجاء في عينيه:

- (يزن) اغفر لابنتي تصرفها.. فهذه أول مرة تتعامل مع شخص غيري بشكل مباشر.

أنزل (يزن) رأسه وأغمض عينيه في محاولة لتهدئة نفسه قبل أن يعاود الجلوس والضيق باد على وجهه..

(رايان): اشرب هذا العصير.. صدقني سيُنعشك ويهدئ أعصابك.

تردد (يزن) قليلا قبل أن يحسم أمره ويرتشف ببطء وحذر.. ليس سيئا.. حامض لكنه منعش بالفعل.. تقلّص وجهه قليلا من الطعم اللاذع للعصير.. نحّى كوبه جانبا ومال نحو (رايان) قائلا باهتمام:

- سيدي منذ متى تعرف أبي وكيف حدث هذا؟ أليس من الوارد أن تكون مخطئا وكل ما في الأمر هو تشابه أسماء؟

ابتسم (رايان) وقال:

- من الوارد فعلا أن أكون مخطئا ولكن ليس إلى حد أن أعرف اسم والدتك.. (دينا).. أليس كذلك؟

بهتَ (يزن) وفغرَ فاه بشكل مضحك قبل أن يردد:

- ك.. كيف عرفت؟!

اتّسعت ابتسامة (رايان) في حين تأملته (أدريانا) بعينين ناعستَين ووجه خالٍ من التعابير.. تمالك (يزن) نفسه وأضاف بحذر:

- لا يمكنك معرفة جميع أفراد أسرتي ما لم تكن..

قاطعه (رايان) وابتسامته تتّسِع أكثر:

- ما لم أكن أنا نفسي من العالم السفلي.. أهذا ما أردت قوله؟

هبط صمت ثقيل هُنيهَة وتبدى أثر المفاجأة على وجه (يزن) الذي تراجع في جلسته وحدق بدهشة نحو (رايان)...

ردد (يزن) بذهول:

- أنت جئت من الأسفل؟!

أومأ (رايان) برأسه بالإيجاب دون أن تفارق ابتسامته شفتَيه..

(يزن):

- ولكن إن كنت صادقا كيف تجاوزت الديدان الشرهة؟! وهل تجاوزتها لوحدك؟!

تلاشت ابتسامة (رايان) لتحل محلها تعابير الأسى والحزن وهو يقول:

- لم أكن لوحدي.. كان معي (نايل).. والدك.

(يزن) باستنكار وعدم تصديق:

- ماذا قلت؟! أبي كان معك؟! مستحيل.. أبي لم يغادر قط العالم السفلي؟!

كانت الدهشة من نصيب (رايان) هذه المرة:

- (نايل) لم يغادر العالم السفلي؟! أي قول هذا؟! لقد كان معي حتى آخر لحظة.

- عذرا سيدي ولكن كلامك يُخالف ما أعرفه وما أخبروني به.

عقد (رايان) حاجبَيه ومال للأمام متسائلا:

- وبماذا أخبروك؟

تنهد (يزن) ثم قال:

- حسنًا.. أخبرتني والدتي أن أبي توفي أثناء إحدى الرحلات الاستكشافية عندما كنتُ طفلا لا أتجاوز الأشهر من العمر.. أخبرتني أنه قد تم التِهامه بواسطة إحدى فصائل المندالون المفترسة الضخمة أثناء رحلته الأخيرة.

(رايان) باستِنكار:

- (دينا) قالت ذلك؟! لقد كذبت عليك.. لقد أخفت عنك حقيقة أن والدك لم يعد من رحلتنا المشؤومة قبل سنوات.. لا بد وأنها فعلت ذلك لكي لا تحاول اللحاق بوالدك عندما تكبر.

سكت (رايان) قليلا وأنزل عينيه كمن يبحث عن الكلمات المناسبة لما سيقوله.. (أدريانا) تتابع حديثهما بصمت.. لم يَنبِس (يزن) ببنتِ شفَة فقد كان يشعر بالغضب من والدته لإخفائها الحقيقة عنه.. رفع (رايان) بصره نحو (يزن) وقال:

- (يزن) أنصِت إلي.. سأحكي لك كل شيء.. سأحكي لك كيف وصلنا أنا و(نايل) إلى هذا العالم القاسي قبل 23 عاما.

الآن سيعرف الحقيقة.. فليستمع لما سيقوله هذا الرجل...

(يزن) باهتمام:

- أنا مُنصت.

بدأ (رايان) يحكي وتعابير من يسترجع ذكرى قديمة ترتسم على وجهه:

- كنا أنا و(نايل) أصدقاء منذ طفولتنا.. كانت تجمعنا الكثير من الاهتمامات والهوايات.. لطالما تساءلنا عما سنجده لو استمررنا بالصعود لأعلى.. هل سنجد جنسًا جديدا من المخلوقات؟ المزيد من الطبقات الصخرية؟ عالمًا آخر؟ لا ندري.. المهم أن هذا الأمر كان يمثل هاجسا وحلما بعيدا عندما كنا صغارا.. وعندما بلغنا سن الرشد قررنا أن نخوض هذه المغامرة ونستكشف ما يوجد خلف طبقة تلك الديدان البشعة.. كنا نعلم بالطبع أن أحدا لم يتمكن من تجاوزها قط.. لذا فكرنا طويلا حتى توصل (نايل) لفكرة رائعة وغير مسبوقة.. عندما طرحها عليّ أيقنت من أننا سننجح فيما فشل فيه الآخرون.. لقد كانت فكرة أبيك هي صنع بذلة حلقات معدنية متصلة ببعضها تغطي كامل الجسم.. هذه البذلة ستمنحنا خفّة الحركة وستقينا عضات الديدان.. أي أنها ستكون أقرب لدرع خفيفة.. عندما اقترحت أن نصنع درعا كاملة دون حلقات لنضمن نجاح الرحلة اعترض أبوك وكان اعتراضه في محلّه.. الدرع الكاملة ستُثقل حركتنا وتحدّ منها وقد نهلك قبل تجاوز الديدان.. تسلّح

كل منا ببُندُقيّة وبلطة كبيرة الحجم وارتدينا الدّرع الخفيفة واحتياطا جلبنا معنا بعض الحيوانات الصغيرة النافقة.. رمينا بها داخل نفق الديدان قبل أن ندخل لنُشتّت انتباهها.. لم تهاجمنا في بادئ الأمر حتى فرغت مما رميناه ثم انتقلت إلينا.. لا زلت أذكر الرعب الذي عشناه ونحن نعبر وسط الديدان التي لم تكفّ عن التواثب علينا.. لحسن الحظ أن الدرع الخفيفة كانت فعالة بالفعل وإن لم تمنعها تماما من إصابتنا ببعض الجروح الطفيفة.. قاومناها واستمررنا بالصعود لساعات حتى تجاوزناها بالكاد.. لم نخلع الدرع التي كادت أن تزهق روحينا حتى بلغنا السطح.

لاحَ شبح ابتسامة على مُحيّاه كأنما يسترجع ذكرى كانت سعيدة وتابع:

– لك أن تتخيل شعورنا في تلك اللحظة.. شعور السعادة الذي يصعب وصفه بالكلمات.. أنت تفهم ما أعنيه!

(يزن) بخفوت:

– بلى.

شرد (رايان) ببصره بعيدا عن (يزن) وتابع:

– ما إن بلغنا السطح حتى بدأنا نداوي جراحنا ثم انطلقنا نستكشف هذا العالم.. لم يطل الأمر حتى أدركنا الحقيقة المرة.. حقيقة أن هذا العالم تُهيمن عليه مخلوقات غريبة هي أقرب للوحوش أو الغيلان بمقاييسنا..

أقوى منا نحن البشر وأضخم حجما وأشد بأسا.. قُساة متوحشون يستعبدون البشر ولا يدّخرون جهدا في إذلالهم وإيذائهم.. حتى الحيوانات تحظى بمعاملة أفضل مما يعاملون به البشر.. رأينا فظائعَ يَشيبُ لها الرأس.. أفترض أنك رأيت بعض تلك المخلوقات؟

غَمغمَ (يزن):

- بلى.

أردف (رايان):

- بعد ما عرفناه اتخذنا قرارا لا رجعة فيه.. سنعود من حيث أتينا ولن نذكر أي شيء يتعلق بهذا العالم.. ولكن ما إن استدرنا حتى فوجئنا بمجموعة من تلك المخلوقات خلفنا وقد أشهروا أسلحتهم من سيوف ورماح عجيبة في وجهينا ونظراتهم تُنذر بالويل.. كنا خارج حدود إحدى القرى التي تقطنها تلك المخلوقات وعلى أطراف غابة قريبة منها.. كنا خائفين منهم ولكن خوفنا من أن نقع بين أيديهم كان أقوى.. لذا ما إن حاولوا أسرنا حتى بادرنا بإطلاق النار.. سقط اثنان منهم جرحى وتراجع البقية صارخين بهلَع مما أفسح لنا المجال لاختراقهم والعدْو بأقصى سرعة نحو الغابة.. تعالت صيحاتهم الغاضبة من خلفنا وانهمرت السهام وأشياء أخرى لا أدري كُنهها من حولنا.. شعرت بالسهم ينغرس في كتفي اليُمنى لكني لم أتوقف لحظة واحدة.. الأوغاد..

لقد كانوا سريعين جدا وكلما أدركونا واجهناهم بإطلاق النار من بنادقنا.. سقط بعضهم ولكنهم ازدادوا إصرارا على الظفر بنا.. لا أدري كم مضى من الوقت ونحن على هذا الحال حتى سمعنا صوتًا حادًا يشق الهواء من فوقنا.. هنا حدث أمر عجيب.. توقفت المخلوقات فجأة عن مطاردتنا! وقفنا نعُبّ الهواء غير مصدقين ونحن نراهم ينسحبون.. حلق طائر ضخم فوق رأسينا.. راودنا شعور بعدم الارتياح ونحن نتابعه ببصرنا في تلك اللحظات ثم.. ثم..

أغمض (رايان) عينيه محاولا كَبتَ انفعالاته كمن يستحضر ذكرى مريرة لكن جسده خانه فسرت فيه ارتجافة خفيفة واهتزت شفتاه رغما عنه قبل أن يفتح عينيه متابعا:

- ثم رأيناه.. مصّاص دماء البشر (غالياس).

نطق الاسم كمن يمقت كل حرف من حروفه.. شعر (يزن) أنه يتحدث عن ذات الوحش الذي رآه في غابة الجثث.. ولسبب لا يدريه قرر التظاهر بالجهل فتسائل:

- (غالياس)؟! ومن يكون هذا ال(غالياس)؟

(أدريانا):

- إنه أحد المعظمين الأربعة بالنسبة لتلك المخلوقات.. غيلان.. وحوش.. شياطين.. سمّهم ما شئت.

تفكر (يزن) قليلا فيما سمعه ثم وجه كلامه إلى (رايان):

- تابع أرجوك.

(رايان) متحاشيا نظرات (يزن):

- لم نَتبيّنه جيدا عندما حطّ الطائر على كتفه فقد كان متواريا في الظلال بين الأشجار.. كل ما استطعنا تمييزه هو ضخامته وقرونه الأربعة البارزة من رأسه.. اجتاحنا شعور عارم بالرهبة والخوف.. فهمنا الآن لما انسحب مطاردينا.. لقد كان حضوره مهيبا وبدا كمن يبث هالة من الرعب في قلب كل من يراه.. كنا راغبين بالهرب على الرغم من إصابتي والإنهاك الذي ألمّ بنا إلا أن ساقينا لم تَستجِب.. هكذا وجدنا أنفسنا نحدق إلى هذا الشيء برهبة وقد أدركنا أنه أحد تلك المخلوقات لكنه مختلف في ذات الوقت.. تقدم ذلك الوحش خارج الظلال لنراه أخيرا...

وصفَه بذات الأوصاف التي رآها (يزن) سابقا ثم تابع:

- كان يحمل في إحدى يديه عمودا مُدبّبا غرست فيه امرأة شابة جاحظة العينين وهي تحدق للفراغ وترتعش أطرافها بلا توقف في حين أمسك بيده الأخرى كأسا فضية ارتشف منها قليلا ثم قال شيئا بصوته المخيف عن لذّة مذاق دم البشر! قالها بلغتنا مما أصابنا بالذهول.. ثم سألنا من أين جئنا وهو يغرس العمود المُدبّب في الأرض بجانبه.. أدركنا لحظتها أن مصيرنا سيكون كمصير المرأة المغروسة عن يمينه.. ودون

تردد أطلق والدك النار نحو رأسه المغطى بجمجمة حيوانية.. لكن ما حدث بعدها شيء لا يصدق ولا يستوعبه العقل.. ففي أقل من لمح البصر امتدت مخالبه كالسيوف من يده اليمنى ولوّح بها لترتد الطلقة بعيدا بصوت مسموع.. أصابتنا دهشة لا حدود لها..

(غالياس):

- تريدانها بالعنف؟ فليكن.

شاركتُ أباك في إطلاق النار ولكن لم تُصب طلقة واحدة هدفها.. لقد صدّها جميعا ثم تقدم نحونا وانطلق الطائر محلقا فوق الرؤوس مطلقا أصواته المزعجة.. انطلقنا هاربين لا نلوي على شيء.. شعرنا به يطاردنا.. انزلقت قدمي وسقطت أرضا.. كان السهم ما زال مغروسا في كتفي.. نزفت كثيرا وأصابني الوهن.. شعرت به يقف عند رأسي وبظلّه يثقل الهواء من حولي.. أدركت أنها النهاية فأغمضت عيني واستسلمت لمصيري.. فجأة سمعت صوت طلقة تبعها صراخ ووقع أقدام مسرعة بجانبي.. فتحت عينيّ لأجد أباك مُلتحمًا في صراع مع ذلك الوحش.. حدقت فيهما مدهوشها عاجزا عن فعل شيء.. هوى أبوك ببَلطتِه على رأس الوحش الذي لوح بمخالبه وأطارها بعيدا فاندفع والدك وتشبث بخاصرة الوحش بقوة هاتفا:

- اهرب.. انجُ بنفسك.

في اللحظة التالية انغرست مخالب (غالياس) في جسد أبيك كالسيوف..

(غالياس):

- حمقى.

أطلق (نايل) صرخة ألم قبل أن يهتف بوهن والدماء تتناثر من فمه وجسده:

- اهرب...

.....

لم يتمالك (رايان) نفسه فغطى عينيه بكلتا يديه وهو ينتحب ويتابع بصوت مكتوم:

- لا أدري كيف طاوعتني نفسي على التخلي عن أبيك في تلك اللحظة.. لا أدري كيف وجدت القوة للهرب.. لا أدري كيف أدرت ظهري له.. صرخة (نايل) هي آخر ما سمعته وأنا أقفز في ذلك النهر الذي تراءى أمامي.. صرخته التي لا زلت أسمعها كل يوم وليلة.

اهتز جسد (رايان) وهو ينتحب بصمت.. وضعت (أدريانا) يدها على كتفه بتعاطف وضغطت برفق.. نظر إليه (يزن) بشَفقة هُنيهة ثم قال بخفوت:

- إذن فقد ضحى والدي بحياته لإنقاذك!

سكت قليلا ثم تابع مُشيحا بوجهه والغضب يتَسلّل لصوته:

- وذلك الوحش هو المسؤول عن موته.. سحقا!

(أدريانا):

- أبي.. لنذهب إلى الخارج.

(رايان) بصوت مكتوم وهو ينتحب:

- اسبقاني.. سألحق بكما.

نظرت (أدريانا) إلى (يزن) وأشارت له برأسها بأن يرافقها.. تبعها (يزن) بصمت عبر الممر الأيمن المتعرّج المُضاء بمصابيح بدائية.. تناهى إلى سمع (يزن) هدير شلال أثناء تقدمه حتى وصل إلى تجويف أكثر اتساعا من السابق بالكاد ينيره ضوء خافت فضيّ يتسلل عبر مياه الشلال التي تغطي فتحة الكهف! على الرغم من الظلام شبه الدامس والذي بدّده جزئيا الضوء الخافت إلا أن (يزن) استطاع تمييز أشياء متناثرة ومبعثرة بشكل عشوائي على أرضية الكهف.. بل إنه داس على أحدها وشعر بصلابتها! عقد حاجبيه وانحنى ليلتقط إحداها.. كان انطباعه الأول وهو يتحسسها أنها أقرب إلى كرة صلبة غريبة الملمس والتشكيل؟! قلبها بين يديه لتطالعه الفجوتان السّوداوان وتلك الابتسامة الشريرة التي تميز الجماجم البشرية! أجفل ورمى ما بيده

باشمئزاز.. تطلع إلى بقية الأشياء المبعثرة.. إنها عظام! رفع عينيه المتّسعتين نحو (أدريانا).. على الرغم من المكان شبه المظلم إلا أنه استطاع تمييز نظراتها الناعسة الميتة وهي تحدق إليه.. قالت ببرود ودون أن تبعد نظرها عن وجهه المُمتقع:

– نسيت أن أخبرك أننـــا نتغـــذى على البشـــر.. مذاقهم رائع.. ألا توافقني الرأي؟

في مكان ما وفي ذلك المعمل الواسع والذي تراصّت فيه أجهزة عجيبة تعمل بهدير خافت منتظم تَحرّكَ شيءٌ كالحُ السّواد من أحد الأركان المظلمة التي لم تصلها إضاءة المعمل الخافتة للغاية، لمَعَت عيناه الحمراوان كالدم وهو يتطلع إلى قَفا ذلك المُتسربِل بلباس أبيض فضفاض ذو غطاء رأس مُسبل على رأسه.. كان ذو الرداء الأبيض يتطلع بصمت إلى حوض ماء هائل الحجم تسبح فيه مخلوقات هُلامية بيضاء أقرب للشّفافة تبرز الزوائد الطويلة من جسمها شبه الأسطواني وتتماوج خلفها بهدوء.. يا لحرصه وحذره الشديدين.. إنه يخفي هويته خلف ملابسه هذه حتى وهو في معمله الخاص الذي لا يدخله سواه.. امتدت دقائق من الصمت وكل منهما ثابت في مكانه قبل أن يتحرك ذو اللباس الأبيض لتفقد بعض الأجهزة دون أن يلتفت إلى الكيان الأسود الذي

بقي ساكنا.. بعد صمت طويل قال ذو اللباس الأبيض بلغة بشرية سليمة وبصوت أقرب للنعومة وهو منهمك في تفقد بعض العينات الهلامية:

– أنت لم تقل شيئا حتى الآن لهذا أفترض أن كل شيء يسير حسب ما هو مخطط له...

أجابه الكيان الأسود بصوت لا صلة له بالبشر:

– أصبت.

تنهد ذو اللباس الأبيض بارتياح قائلا:

– عظيم.

سكت قليلا ثم أضاف:

– إن كان ذلك الشاب كما وصفت فأنا أراهن أن أياما عصيبة تنتظر (غالياس).

الكيان الأسود:

– لكنها ستكون عَصيبة أكثر على ذلك الشاب.

– الغاية تبرر الوسيلة.. أليس كذلك؟

لم يجبه الكيان الأسود هذه المرة.. ولم يكن بحاجة لذلك لأنه ليس لديه اعتراض على ما قيل...

شحب وجه (يزن) ليحاكي وجوه الموتى وازداد امتقاعا لدى سماعه ما قالته (أدريانا).. فجأة أطلقت (أدريانا) ضحكة مرحة لا تتناسب مع طبيعتها الباردة وقالت:

– يا لك من أبله.. هل صدقت؟ كان عليك أن ترى وجهك.. يبدو أننا سنقضي أوقاتا ممتعة.

رمقها (يزن) بعدم فهم.. عاد وجهها لبروده المعتاد بنظراتها التي توحي لمن يراها أنها قادرة على خنق طفل رضيع دون أن يطرف لها جفن وهي تشرح قائلة:

– لقد تعمّدنا بعثرة هذه العظام لمنع أي دخيل من التسلل إلينا في حال اكتشف هذا المكان.. من يراها سيفترض أن حيوانا مفترسا يقطن الكهف ولن يَجرؤ على الدخول أبدا.

أنهت كلامها واستدارت لتواصل سيرها نحو مدخل الكهف..

تمتم (يزن) وهو يَحدجها بغضَب وازدراء: "يا لسماجتك".

كم تمنى وقتها أن يبصق في وجهها.. لعنها في سرّه وألقى نظرة أخيرة على العظام المتناثرة باشمئزاز قبل أن يتبعها.. لفت انتباهه أثناء سيره وجود فتحة جانبية بالجدار الأيسر تؤدي إلى ممر واسع متعرج ينبعث من نهايته ضوء خافت وتفوح منه رائحة الماشية! توقف (يزن) أمام الفتحة وهو يمد عنقه محاولا سبر أغوارها...

- (هيرو) نائم الآن.. لا تزعجه.

التفت (يزن) نحو (أدريانا) متسائلا:

- (هيرو)؟

- ستراه لاحقا عندما يستيقظ.. هيا إلى الخارج.

ألقى (يزن) نظرة أخيرة ثم لحق بها بصمت.. لوهلة ظنّ (يزن) أن (أدريانا) ستعبر عبر الشلال إلا أنها انحرفت فجأة إلى اليسار أسفل الشلال واختفت! تبعها (يزن) بحذر ليتضح له وجود ممر جانبي على شكل بُروز حافة صخرية ممتدة إلى الخارج يكفي لعبور شخصين مُتجاورين.. يمكنه من هنا رؤية (أدريانا) وهي تعبر البروز بثبات على الرغم من الظلام بالخارج الذي يتخلله النور الفضي الخافت...تناثرت قطرات الشلال عليه وهو يخطو خلفها ثم شهقَ برعب وارتدّ للخلف بحدة والتصق ظهره بالجدار الصخري كالبُرْص وهو يتطلع للأسفل بعينين متسعتين.. على ضوء النور الفضيّ استطاع تمييز الهوّة السحيقة أسفله التي بدت كثغر وحش أسطوري ينتظر سقوطه ليلتهمه بلا رحمة.. هُوّة سحيقة تفصل بين ضفتين وفتحة الكهف تقع في منتصف الجدار العالي الذي ينهمر من قمته الشلال ويربط بينهما:

- يا لك من جبان.. أي طفل يمكنه العبور.

التفت (يزن) بسخط نحو (أدريانا) التي بلغت الجانب الآخر ووقفت ترمُقه ببرود مُستفز.. ألم يجدا مخبأ أفضل من هذا؟! ما حاجتهما للعظام إن كان هذا الممر يقود إلى الكهف؟! شتمها في سرّه ثم أغمض عينيه وأخذ نفسا عميقا ثم أشاح بوجهه عن الهوة المظلمة وركّز بصره على الجدار الصخري وهو يستند إليه بجسده وكلتا يديه وخطى على مَهلِه حتى بلغ الضفة الأخرى ليتنفس الصعداء مفرغا كل انفعالاته..

- من هنا.

قالتها (أدريانا) وهي تعبر المساحة الخالية تقريبا من بضعة أشجار معدودة.. تبعها حتى وقفا على حافة جرف صخري.. أشارت (أدريانا) نحو أضواء متفرقة في الأفق يعلوها بالجانب الأيسر وعلى تلّة مرتفعة بناء ضخم أقرب للقصر أو القلعة تصميمه مَزيج من اللّولبي والمَخروطي وقالت:

- نحن في مقاطعة (غالياس).. وهذه البلدة التي تقع أسفل قصره هي كل ما تبقى من.. ما الذي تحدق إليه؟!

بدا وكأن (يزن) لم يكن يصغي إليها وهو يحدق للأعلى نحو السماء بعينين مبهورتين.. ردد (يزن) بانبِهار:

- يا له من سقف جميل!

- سقف جميل؟! ما الذي تتحدث عنه؟

قالتها وهي تنظر إليه بدهشة قبل أن تحوّل بصرها إلى حيث ينظر.. تبدى الفهم على وجهها فلم تَقوَ على كتم ضحكتها وهي تقول:

- تتحدث عن السماء.. كم أنت مُسلّ!

(يزن) بذهول وهو يشير إلى السماء:

- سماء؟! أهذا هو الاسم الذي تطلقونه على سقف هذا العالم؟! لم يكن لونه هكذا فكيف تغير؟ ماذا عن النقاط المضيئة المعلقة به؟! كيف ظهرت؟ وماذا عن هذا المصباح الدائري الفضي؟

أجابته بابتسامة متهكّمة:

- نسيت أنك جئت من الأسفل حيث لا ترى هذه الأشياء.. ما تدعوه بالمصباح الفضي هو القمر.. أما النقاط المضيئة فهي النجوم.

- نجوم؟! قمر؟! أهي أنواع المصابيح المستعملة لإنارة هذا السق.. ال.. ال..

- السماء.

- أجل.. أجل.. السماء.

اتسعت ابتسامتها وهي ما تزال تحدق للسماء كما لو أنها تجد هذا الحوار مُسلّيا وهي تجيب سؤاله:

– لا يا جاهل.. القمر والنجوم من الكواكب.. وقبل أن تسألني عن ماهية الكواكب سأجيبك.. لنقل أنها أراض بعيدة جدا منتشرة في هذا الكون الفسيح.. قد يشبه بعضها هذا الكوكب الذي نعيش فيه والذي يدعى (تيتان).. بالمناسبة كوكب القمر الذي تراه الآن يختلف عن كوكب الشمس الذي يظهر نهارا.. فالشمس تنشر النور والدفء في النهار وعندما يغيب يحل الليل والظلام ويظهر القمر كما تراه الآن.

هبّت عليهما نسمة هواء باردة داعبت جسديهما وتطاير معها شعر (أدريانا) الأشقر ورداؤها الأسود.. استمر (يزن) في التّحديق للسّماء بانبهار محاولا استيعاب هذا الكمّ من المعلومات العجيبة.. لم يَشأ أن يسألها أكثر حتى لا تسخر منه..

– اجلس.

قالتها وهي تتربع على الأرض على بعد سنتيمترات من الجُرف الصخري.. حَذا (يزن) حَذوها.. حدق كليهما نحو أضواء البلدة والقصر بصمت.. تصميم هذا القصر مألوف جدا.. هذا التصميم الذي يمزج ما بين الشكل اللولبي والمخروطي.. أين رآه يا ترى؟ أين؟ سرعان ما برقَت عيناه بالفهم.. أجل.. هذا التصميم مُطابق تماما لمباني بلدته في الأسفل.. ولكن ما معنى هذا؟ وهل له دلالة ما أم هي مَحض مُصادفة؟ لا.. هذه ليست مصادفة.. تبا.. وجود هذه الفتاة بجانبه يشتت أفكاره

ولا يسمح له بالتركيز.. فليتفكر لاحقا عندما ينفرد بنفسه.. أما الآن فلديه سؤال مهم يُلحّ عليه..

(يزن):

- لم أنقذتني؟

(أدريانا) وهي تبعد خصلة شعر نافرَة عن وجهها:

- لم أقصد إنقاذك أنت تحديدا.. كل ما في الأمر هو أنه تصادف وجودي في الجوار عندما تعرّضتم للهجوم.. في الأحوال العادية لم أكن لألقي بالا لما يحدث لولا أنني أدركت أنكم مختلفون.. عندها قررت محاولة إنقاذ ما يمكنني إنقاذه منكم.

- لماذا لم تُنقذي رفيقي: (إميل) و(أوليفر)؟

التفتت إليه وقال:

- أنت رأيت عددهم الكبير.. كانوا سيستوعبون الصدمة سريعا وعندها كنت سأقع بين أيديهم مهما بلغت من قوة لو لم أُسرع بالفرار بك.

- هؤلاء الذين هاجمونا.. من هم، ولماذا هاجمونا؟

أجابه صوت مبحوح من خلفه:

- إنهم مجموعة من العبيد التابعين لـ(غالياس).

التفت الاثنان نحو (رايان) الذي جاء من خلفهما.. كيف لم يشعرا بقدومه؟

(أدريانا):

- ألن تكفَّ عن هذه العادة يا أبي؟

تجاهلها (رايان) وهو يشاركهما الجلوس محدقا نحو أضواء البلدة وتابع:

- إنهم يختطفون البشر تنفيذا لرغبات سيدهم القذرة.

(يزن) بارتياع:

- إذن فرفيقي...

قاطعه (رايان) بأسى:

- للأسف لقد وقعا في قبضة (غالياس).

هبّ (يزن) من مكانه وهو يحدق نحو البلدة بقلق وقال:

- يجب أن نفعل شيئا.

(أدريانا) ببرود ولا مبالاة:

- انسَ أمرهما.. ولتشكرني لاحقا لأني أنقذتك..

- ماذا؟ هل تريدين مني التخلي عنهما؟ ألن تساعداني؟

قالها (يزن) وهو ينقل بصره بينهما باستِنكار يَشوبه الغضب..

(رايان) وهو يشيح بوجهه:

- أنت لا تفهم.

(يزن):

- لا أفهم ماذا؟

(أدريانا) وهي تنظر إليه بعينين لا تَطرِفان:

- لو تعلم ما يفعل (غالياس) بضحاياه لما فكرت بالاقتراب من البلدة خطوة واحدة...

تابعَت وهي ترمُقه من رأسه إلى أخمص قدميه:

– ثم انظر إلى نفسك.. هل ترى في نفسك القدرة على التسلل وإنقاذ صاحبيك؟ هيا يمكنك المحاولة ولكنك ستتذكر نصيحتي عندما ينتهي أمرك معهما.

التفت (رايان) إلى (يزن) بعينين تبدّى فيهما الرجاء وقال:

– فكر جيدا يا بني ولا تُلقِ بنفسك وراءهما دون طائل.. أقدر حرصك على صديقيك ولكنك لن تفيدهما بمحاولتك سوى أن تشاركهما نفس المصير.

(يزن):

– أي مصير هذا الذي تتحدث عنه؟ ماذا سيحدث لـ(إميل) و(أوليفر)؟

(أدريانا) وهي تتثاءَب بملَل:

– في أفضل الأحوال سيُصبحان عبدين عند (غالياس) لفترة إلى أن يسأم منهما ويعلقهما على الخازوق.

تساءل (يزن) بحيرة وعدم فهم:

– يعلقهما على ماذا؟

(أدريانا):

- الخازوق.. عمود مُدبّب يدخل من أسفل الجسد ليخرج من أعلى الكتف.. وسيلة مؤلمة وبشعة للموت البطيء إن أردت رأيي.. إن حالفهما الحظ فسيموتان بسرعة وهذا نادرا ما يحدث.. فـ(غالياس) لا يهوى القتل السريع بل يعشق الموت البطيء ويحرص على بقاء الضحية حية لأطول فترة ممكنة.. لأيام على الأقل.. إنها طريقته المحببة لعقاب عبيده بسبب أو من دون سبب.. فهذه الطريقة تتفق مع طبيعته المريضة المتوحشة.. الوغد لم يقتصد في استخدام هذه الوسيلة على سكان مقاطعته حتى لم يَتبقّ منها سوى هذه البلدة التّعِسة.. فلتأمل فقط أن يَحظيا بميتة سريعة.

اتسعت عينا (يزن) فزعا وقد تذكر غابة الجثث المُسمّرة.. وبعيني الخيال رأى جسدي (إميل) و(أوليفر) مُثبّتين على عمودين وسط تلك الغابة المخيفة.. انتفض جسده رغما عنه وهز رأسه محاولا طرد هذه الخواطر السوداء.. كل هذا بسببه.. ما كان عليه أن يقترح خوض هذه المغامرة من الأساس.. بسببه سيلقى رفيقَيه حتفُهما وبأبشع وسيلة.. كم يحتقر نفسه.. ويكرهها.. حدق مجددا نحو البلدة بعينين زائغتين.. ترى ما الذي يحدث لرفيقيه الآن؟ وأي مأزق ورّطهما فيه؟

(رايان) بمقت يشوبه الحزن:

- كل هذا بسبب ما حدث قبل 1500 عام.

انتشله صوت (رايان) من الغرق أكثر في أفكاره السوداء.. التفت إليه بحذر وتساءل:

- ما حدث قبل 1500 عام؟! ما الذي تعنيه؟

تطلّع إليه (رايان) قليلا ثم قال وقد استعاد نبرته الهادئة:

- اجلس يا بني.. دعني أحكي لك كل شيء منذ البداية.

تردد (يزن) قليلا ثم جلس.. تابع (رايان) بنبرة خالطها الحزن وهو يضم (أدريانا) إليه ويمسح على رأسها بحنان:

- دعني أحكي لك ما سمعته من زوجتي الراحلة التي كانت تعيش كعبده عند تلك الوحوش قبل أن تفرّ وألتقي بها.. كيف بدأ كل شيء قبل 1500 عام.

عقد (يزن) حاجبيه واعتدل في جلسته في حين شردَت (أدريانا) ببصرها ولم يبدُ عليها الاهتمام كما لو أنها سمعت ما سيقال مرارا.. تنهد (رايان) ثم قال:

- منذ زمن بعيد لم يكن للبشر وجود على هذا الكوكب.. كوكب (تيتان) كما يطلق عليه.. فقد جاء أسلافنا من كوكب آخر بعيد جدا يدعى (الأرض).. كوكب يحكمه البشر بالكامل ويشبه هذا الكوكب إلى حد كبير.. لست أدري ما الذي دفعهم للقدوم إلى هذا الكوكب المشؤوم..

المهم أنهم جاؤوا وجلبوا معهم ما استطاعوا من حيوانات وطيور وحشرات وحتى بذور النباتات.. استقبلهم سكان (تيتان) بالود والترحاب ومنحوهم بعض الأراضي ليسكنوها معهم.. في السنوات الأولى أظهر أسلافنا النوايا الحسنة ولكنهم ما إن استقر بهم المقام وأسّسوا حضارتهم وعمّقوا جذورهم مع مرور السنين حتى بادروا بمهاجمة سكان (تيتان) والاستيلاءِ على أراضيهم وطردهم منها طمعا بمواردهم وثرواتهم.. بل ووصل الأمر إلى قتلهم وأسرهم.. ثار سكان (تيتان) وأعلنوا الحرب بقيادة إمبراطورهم (آغرو).. وهكذا دارت رحى الحرب واستخدم كلا الطرفين كل ما يملك من أسلحة وقوة.. وعلى الرغم من تطور أسلحة البشر في ذلك الوقت إلا أنهم افتقروا للقوة الجسدية التي امتاز بها سكان (تيتان) بالإضافة إلى امتلاك محاربيهم لأسلحة أسطورية لم يقوَ البشر على التصدّي لها.. في النهاية انتصر سكان (تيتان) على أسلافنا، فرّ بعضهم من هذا الكوكب تاركين الكثير ممن بقي منهم الذين لم يجدوا خيارا سوى الاستسلام.. كان عامة شعب (تيتان) مُتعطّشا للبطش والانتقام ممن تبقى من البشر لكن الإمبراطور منعهم وأصدر أمره بالسماح للبشر بالعيش مع شعب (تيتان) كعبيد إن أرادوا الحفاظ على حياتهم.. وقد كان.. ومنذ ذلك الحين وفي كل عام يحتفل شعب (تيتان) بانتصارهم على أسلافنا.

هبط صمت ثقيل بعد انتهاء (رايان) من حكايته.. حملت ملامح (يزن) كل علامات الذهول والصدمة.. حاول استيعاب ما قيل قبل أن تخرج الكلمات من فمه بصوت يحمل كل ذهوله:

- إذن فجميع البشر في هذا ال.. الكوكب بمن فيهم نحن.. كلنا ننحدر من....

أومأ (رايان) برأسه مغمضا عينيه بأسى دون أن ينطق بحرف واحد...

ما الذي يجري هنا؟!

بعوضة.. تتَسلّل عبر خَصاص النافذة والذي يتسلّل منه ضوء النهار الوليد بدوره.. تحلق وسط الغرفة المضاءة بمصباح كهربائي عتيق.. تدور دورة واسعة حول الغرفة البائسة التي تحوي سريرين متهالكين بجوار كل منهما منضدة خشبية صغيرة.. يرقد على أحد السريرين شاب وسيم الملامح مقيد من أطرافه الأربعة إلى أطراف السرير بوضعية المصلوب.. الكدمات تملأ وجهه وقد بدا فاقدا للوعي.. حلقت البعوضة حول أذنه قليلا مطلقة أَزيزًا خافتا قبل أن تستقر على خده.. إنها تفضل الفرائس النائمة أو الغافلة عنها.. استشعرت الخطر قبل أن تغرس لسانها.. طارت مبتعدة قبل أن ترتطم دَفقةُ ماء بارد على وجه الشاب الراقد الذي شهق بعنف واستفاق من رُقاده فزعا..

- هيا استيقظ.

التفت الشاب بنظرات مُشوّشة نحو مصدر الصوت الفظّ الخشن والذي لم يمنحه الفرصة لرؤية وجهه والرد عليه.. كل ما لمحَه هو قفا رجل ذا شعر أسود فاحم يرتدي ملابس بنية اللون ويحمل دلوَ ماء يختفي بسرعة خارجا من الغرفة.. أصوات متفرقة تناهت إلى سمعه.. وقع أقدام مختلطة بأصوات أناس يتحدثون.. احتاج لبضع لحظات حتى يستوعب ما حصل.. احتقن وجهه غضبا وهمّ باللحاق بالرجل وهو يطلق سبّة ما لكنه سرعان ما شعر بالحبال التي تقيد أطرافه.. نظر إليها بحنق وحاول التفلت منها ولكن بلا جدوى.. أراح رأسه على السرير

وأغمض عينيه في محاولة لتصفية ذهنه المشوّش.. بدأ يسترجع بذاكرته ما مر به.. غابة الجثث.. محاولة العودة من حيث جاؤوا.. تعرضهم للهجوم وسط الظلام.. فتح عينيه وجال ببصره أرجاء الغرفة البائسة.. وقعت عيناه على الملابس البنية المنسقة فوق المنضدة المجاورة له.. رماها بنظرة تقزز ثم نقل بصره نحو قيوده.. أين هو يا ترى؟ حدسه يخبره بأن يفر من هذا المكان على وجه السرعة.. لكن عليه أن يجد رفيقيه أولا.. لقد بدأ يستعيد قواه.. هذا السرير متهالك.. ربما لو..

- أرى أنك قد استيقظت.

قطع حبل أفكاره صوت أنثوي رقيق.. التفت إلى الفتاة التي دلفت الغرفة وأغلقت الباب خلفها.. فتاة بيضاء ذات شعر رمادي قصير ترتدي ملابس بُنية.. عينها اليمنى رمادية اللون كشعرها وخدها في ذات الجهة يحمل تَشوّها أقرب لأثر حرق قديم في حين أن عينها اليسرى معصوبة بقطعة قماش حال لونها وتحتها نُدبة تشقّ خدها على شكل قطعٍ عرضي ممتزج مع وسم غريب يمثل جمجمة حيوانية ذات أربعة قرون.. هذا الوسم.. إنه يذكره بالوسوم التي تُوسم بها البهائم في عالمه للدلالة على مالكها! تقدمت منه الفتاة وهي تحمل صحفة طعام مع كأس ماء..

الشاب بجفاء:

- من أنت؟

جلســت الفتاة على طرف فراشــه وهي تنظر إليه بعينها الســليمة وابتسمت قائلة:

- رفيقتك في هذه الغرفة...

تجهّم وجهها ثم تابعَت:

- مهلا.. من فعل هذا؟

قالتها وهي تتطلّع إلى الماء الذي يغمر وجهه ثم أردفت:

- إنه (تشيه) ولا شك.

رفيقته في الغرفة؟! ما الذي تتحدث عنه هذه المعتوهة؟!

تنهدت بضيق ثم قالت:

- تناول طعامك فقد أوشك وقت العمل.

الشاب:

- وقت العمل؟! ما الذي تَهذين به؟! ثم أخبريني كيف تريدين مني تناول الطعام وأنا مقيد؟! هل أنت بَلهاء؟

الفتاة بارتباك وهي تهم بحلّ قيوده:

- آه.. يا لشُرودي!

توقفت قبل أن تحلّ وَثاق يده اليسرى وظهر عليها التردد وكأنها تذكرت أمرا مهما..

الفتاة:

– قبل أن أفكّ قيودك علي أن أنبّهك بألا تضيع وقتك في محاولة الهرب.. فالحراسة مشددة حول البلدة ولا أنصحك حتى بالتفكير في الأمر فلم يسبق لأحد أن نجح من قبل.

أنهت كلامها وهي تحل وثاق يديه.. تحسّس الكدمات التي تملأ وجهه.. ما زالت تؤلمه قليلا..

الفتاة وهي تحل قيود قدميه:

– سأشرح لك كل شيء في الطريق.. أما الآن فتناول طعامك بسرعة حتى نضع عليك وسمك الجديد قبل التوجه إلى العمل.

ما إن حلّت آخر قيوده حتى قفزَ من السرير بمرونة مفاجئة وكمّم فمها بحركة سريعة بإحدى يديه ودفعها بالأخرى ليُلصقها بالجدار.. اتّسعت عينها السليمة ذهولا لهذه المفاجأة.. همسَ الشاب ضاغطا على كلماته وهو يسدد إليها نظرات قاسية:

– إياك والصراخ وإلا فلن أتردد في كسر عنقك.. سأزيح يدي عن فمك وستجيبي أسئلتي بهدوء.. هل فهمتِ؟

أومأت الفتاة برأسها بالإيجاب..

- أينَ رفيقاي؟ هل هما هنا؟

أزاح كفّه عن فمها.. تنفست الفتاة الصُّعَداء وابتلعت ريقها ثم أجابت بصوت خافت:

- لا أعرف ما الذي تتحدث عنه.. فقد جلبوك هنا لوحدك.

الشـــاب بـاسـتِنكـار: مـاذا؟ لوحـدي؟! لا يمكن.. أين (يزن) و(أوليفر)؟

- أقسم لك إني لا أعرف.

الشاب محدثا نفسه بصوت مسموع:

- إن كانا ليسا هنا فأين يمكن أن يكونا إذا؟

ثم عاد وسألها:

- من الذين جلبوني إلى هنا ولماذا؟

الفتاة بصوت مُختنق:

- إنها أوامر السيد المعظّم (غالياس).

- من؟ السيد ال.. المعظّم؟! ومن يكون هذا؟

تبدى الذهول على وجه الفتاة وازداد اتساع عينها الوحيدة وقالت:

– السيد المعظم (غالياس).. مالك هذه المقاطعة وأحد المعظمين الأربعة.. يستحيل أنك لا تعرفه.. لا بد أنك تعرفه بلقبه.. (المُخوزِق).. لا تقل لي أنك لم تسمع به أيضا؟!

ارتسم عدم الفهم على وجه الشاب قبل أن...

انفتح باب الغرفة ودلفَ شاب ذو شعر طويل نوعا ما يميل لونه للأحمر ويحمل على خده الأيسر ذات الوسم الغريب ويرتدي ذات الملابس البنية الكريهة قائلا:

– ما الذي تفعلينه يا (أليتا)؟ لقد أشرقت الشمس..

بترَ الشاب ذو الشعر الأحمر كلامه وهو يحدق ببَلاهة نحو الفتاة والشاب الوسيم الذي تحرّك بسرعة ودفع الفتاة جانبا وانطلق صوب النافذة ذات الخصاص الخشبيّ المتهالك وقفزَ عبرها مُحطّما إياها وتدحرج على الأرض قبل أن يهب واقفا برَشاقة.. ألقى نظرة خاطفة لما حوله ليدرك أنه يقف في ساحة متوسطة الحجم محاطة بالمنازل القِرميدية المتهالكة ذات السقف المثلث الغريب والتي غمرها ضوء النهار الوليد وحال لونها.. الساحة مكتظّة بالبشر الذين يحدقون إليه بغباء ويرتدون جميعا ذات الملابس البنية المقيتة ويحملون وسوم الدواب على الخد الأيسر.. الرجال والنساء وحتى الأطفال.. أغلبهم يحمل أدوات

الحصاد.. لم يضيع الشاب المزيد من الوقت فقد انطلق يعدو عبر أول زقاق جانبي صادفه وتعالى من خلفه صوت الشاب ذو الشعر الأحمر:

- أمسكوا به.. إنه يحاول الهرب.

اشتعل الموقف وتعالت الهتافات الحانقة من خلفه لعنان السماء..

- لا تدعوه يُفلت.

- حاصروه.. إنه يتجه نحو الساحة الرئيسية.

- أطلقوا الأجراس.

انطلق صوت الأجراس في كل مكان.. وقع الأقدام الكثيرة يتعالى من خلفه.. تبا.. ما الذي يجري في هذه البلدة اللعينة؟ وأين هو؟ لا يهم.. يجب أن يفر من هنا وبأي ثمن.. دارت هذه الخواطر في رأسه وهو يعدو بأقصى سرعة عبر الزُّقاق الطويل والحشد الغاضب يندفع كالسيل من ورائه.. ظهر أحدهم أمامه بغتة وهوى على رأسه بعصا غليظة.. انحنى الشاب في الوقت المناسب متفاديا العصا التي شقت الهواء من فوق رأسه واندفع مواصلا انطلاقه حتى عبَر الزقاق ليجد نفسه وسط ساحة أكثر اتساعا من سابقتها تتوسطها نافورة قذِرة من الواضح أنها لا تعمل ولم يهتم أحد بتنظيفها منذ دهور.. يتفرع من الساحة عدد أكبر من الممرات والتي سدتها الحشود الحانقة.. يا إلهي.. متى وصل هؤلاء؟! دار بعينيه

بين الحشود المتسلحة بالعصي وأدوات الحصاد والتي بدأت تضيق الدائرة عليه باحثا عن ثغرة يمكنه الفرار منها.. تراجع بظهره وهو يتلفت حوله تحسبا لأي هجوم غادر حتى اصطدم بحافة النافورة الجافة.. تعالت تساؤلات الحشد:

- أنت.. من أي مقاطعة جئت؟

- ملابسه غريبة.. من أين جاء بها؟!

- إنه لا يحمل أي وسم على وجهه.. لا بد أنه من المقاطعات الجنوبية.

- أجل.. لا بد أنه موسوم في صدره.. سادة الجنوب فقط من يَسِمون عبيدهم في صدورهم.

ما الذي يتحدث عنه هؤلاء المَخابيل؟!

صاح أحدهم:

- لقّنوه درسا.

تحفزت عضلات الشاب واتخذ وضعية قتالية.. بدا الحشد مترددا قبل أن يندفع اثنان منهم نحوه صارخين.. أحدهما يحمل مِذراةً وقد صوب طرفها الخشبي نحو صدر الشاب بينما يحمل الآخر عصا طويلة هوى بها على الشاب.. قفز الشاب جانبا برشاقة متفاديا طرف المِذراة الخشبي

والتي اصطدمت رُكبتا حاملها بطرف النافورة ليختل توازنه ويسقط داخل حوضها متأوّها في ذات اللحظة التي تلقف الشاب العصا التي كان يفترض أن تهوي على كتفه بكلتا يديه ليركل حاملها بقوة في وجهه ليرتد إلى الخلف وهو يصرخ بألم..

- تبا لك.

صرخ حامل المِذراة وهو يهبّ بثورة من حوض النافورة ليهوي بالطرف الخشبي على رأس الشاب الذي انحنى بخِفّة إلى الأسفل متفاديا إياها وغاص بقبضته اليمنى في بطن غريمه الذي انحنى متأوّها في حين امتدت يده اليسرى لتنتزع المِذراة بحركة سريعة وهوى بطرفها الخشبي على رأس حاملها السابق الذي سقط فاقدا الوعي..

التفت الشاب نحو الحشد المذهول وأشهر المِذراة في وجوههم وهو يلهث قائلا:

- لا أريد إيذاء أحد.. أفسحوا الطريق.

تعالت همهمات الحشد وصاح أحدهم:

- هاجموه جميعا.

توترت عضلات الشاب والحشد الغاضب يضيق الدائرة عليه ويتقدم نحوه شاهرا أسلحته المختلفة.. الدائرة تضيق شيئا فشيئا.. الشاب يتلفت حوله بتوتر.. الحشد يتأهّب للانقِضاض..

- ما الذي يجري هنا؟

صاح صوت خشن فظّ.. تراجعت الحشود وسرَت بينهم الهمسات وهم ينظرون إلى اتجاه واحد نحو أحد الممرات التي أفسحَ الحشدُ الذي يسدّها الطريق لحيوان المندالون الذي يمتطيه رجل في منتصف العمر ذو عينين حادتين وشعر أسود فاحم مُصفّف إلى الخلف وذو شارب كَثّ يغطي شفته العليا.. يرتدي ذات الملابس البنية ويحمل سوطا بيده اليمنى.. حدق الشاب بدهشة إلى حيوان المندالون الذي بدا مختلفا قليلا وأصغر حجما من الذي في عالمه بالأسفل.. كيف وصل إلى هنا؟! لم يتخيل أبدا أن يراه في مكان كهذا.. حانت من الشاب نظرة سريعة لما خلف الحيوان وصاحبه.. كيف لم ينتبه لهذه القلعة ذات الأبراج الشاهقة والتي تجثم على تلك التلة؟! هذا التصميم الذي يجمع ما بين اللولبي والمخروطي.. إنه مألوف جدا.. أين رآه يا ترى؟ لقد تذكر الآن.. اتسعت عيناه وقد تبدى الفهم فيهما بعدما أدرك ما أدركه (يزن).. هذه القلعة تحمل ذات تصميم المباني في عالمه بالأسفل بصرف النظر عن اختلاف الألوان.. ولكن ما معنى هذا؟! قطعت لَسعةُ السوط التي ضربت الأرض سيل أفكاره ليعود ببصره نحو الحيوان الذي تقدم بصاحبه مخترقا الحشد حتى توقف على بعد يسير منه..

الرجل ذو الصوت الخشن وهو يسدد نظراته الحادة نحو الشاب الوسيم:

- قلت ما الذي يجري هنا؟

رد أحدهم:

- (تشيه) إنه يحاول الفرار.

أطلق المندالون صوتا مزعجا وترجل (تشيه) من الحيوان وقال دون أن يرفع بصره عن الشاب:

- هكذا إذن.. إنه الوافد الجديد.

تقدم (تشـيه) حتى وقف على بعد أربعة أمتار من الشـاب المتحفز الذي أشهر المِذراة في وجهه..

رمق (تشيه) الشاب من رأسه إلى أخمص قدميه باحتقار قبل أن تتركز نظراته على خد الشاب الأيسر ويلسع الأرض بسوطه قائلا:

- لماذا لم يُوسم حتى الآن؟

برز الشاب ذو الشعر الأحمر من بين الحشد قائلا:

- كنت سأفعل لو لم يهرب.

(تشيه):

- هل تفحّصتم صدره؟

- ليسَ بعد.

(تشيه) وهو يشير بسوطه نحو صدر الشاب قائلا بلهجة آمره:

- اكشف صدرك.. أرني وسمك.

أدار الشاب عينيه في الوجوه المحيطة به.. الآن فقط تأكد من أن الجميع يحمل وسما على الخد الأيسر بمن فيهم (تشيه) هذا.. لاحظ أن بعضهم يحمل تشوّها على خده الأيمن أو جبهته.. تشوه أقرب لمحو الوسم السابق بالكي بالحرارة والتي يعلم أنها تستخدم على الدواب في عالمه عندما تنتقل ملكيتها إلى شخص آخر.. هل.. هل يعامل البشر في هذا العالم كما تعامل الدواب في عالمه؟!

- قلت لك أرِني صدرك.

قطع خواطره صوت (تشيه) الفظّ وهو يرمقه بحدة ويلسع الأرض بسوطه مهددا..

تحفز الشاب أكثر وشد قبضتيه على سلاحه وهو يتلفت حوله قائلا:

- لا أدري عمّا تتحدثون.. لكني لا أحمل أي وسم.

سرت همهمة عالية بين الجميع وهم يحدقون إليه بدهشة حقيقية.. صاح أحدهم:

- لا يحمل وسما؟! هذا مستحيل.

هتف آخر:

- إنه يكذب.

- لا بد أنه هارب من سيّده.

- يجب أن يكشف عن صدره لنعرف الحقيقة.

تعالت أصوات التأييد.. صرخ (تشيه) بصرامة:

- صمتًا.

سكت الجميع وتعلّقت العيون على الشاب بفضول شديد.. أشار (تشيه) برأسه نحو صدر الشاب قائلا:

- هيا فليس لدينا اليوم كله.

الشاب بحزم:

- لن يقترب أحد مني.

خُيّل للشاب أن عينا (تشيه) اشتعلتا غضبا للحظة قبل أن يتدارك نفسه لترتسم ابتسامة جانبية خبيثَة على شفتيه وهو يقول:

- تلعب دور القوي إذن.

أدار ظهره للشاب ليواجه الحشد قائلا:

- انظروا.. إنه يهوى لعب دور القوي هنا.

أدرك الشاب ما سيحدث على الفور بحكم تورّطه في الكثير من المُشاجرات.. عدد المرات التي مرّ بها في حياته بهكذا موقف أكبر من أن يحصى حتى صار مُملا وأقرب إلى الابتذال.. وكما توقع تماما ما إن أنهى (تشيه) كلامه حتى استدار إلى الشاب بغتة وهوى بسوطه عليه.. رفع الشاب المِذراةَ بشكل أفقي أمام وجهه ليتقي الضربة القادمة.. لكن طرف السوط لم يصل للمِذراة أبدا! فقد انحرف للأسفل بغتة ليلتف على ساق الشاب اليمنى.. وقبل أن يفهم ما جرى وجد الشاب نفسه يفقد توازنه فجأة ويهوي على ظهره بكل ثقله..

(تشيه):

- كَبّلوه.

تعالت الصيحات وانقض الحشد دفعة واحدة على الشاب الذي لم يجد الوقت الكافي لفعل أي شيء.. انتزع أحدهم المِذراة وكبّل آخرون ذراعيه وأنهضوه بخشونة وقسوة وهو يَستَميت في مقاومتهم صارخا:

- ابتعدوا عني أيها الجبناء.. ابتعدوا.

ركلَ أحدهم في أنفه قبل أن يتمكن البقية من تكبيل ساقيه.. تقدم (تشيه) فاردا قامته باعتزاز نحو الشاب الذي لم يكفّ عن محاولة التّفلّت.. عادت ابتسامته الجانبية لترتسم على وجهه وهو يهمّ بتمزيق قميص الشاب قائلا بجذَل:

- الآن سنعرف من كان سيّدك السابق.

الشاب صارخا بقوة:

- لا تلمِسني.

ختمَ صرخته بأن هوى برأسه بكل ما يملك من قوة على وجه (تشيه) الذي ارتد رأسه إلى الخلف مُتأوّها وطعم الدم يغلي في فمه وأنفه.. صرخ (تشيه) بغضب هادر والدم يتناثر من أنفه وفمه:

- أيها الأغبياء.. كبّلوا رأسه.

امتدت الأيدي لتثبت رأس الشاب بالقوة.. بصقَ (تشيه) الدم ثم هوى بكفّه على وجه الشاب بصفعة مدويّة.. احتقن وجه الشاب غضبا وزمجر محاولا التفلت قائلا من بين أسنانه:

- ستدفع ثمن هذه الصفعة أيها الحقير.. أقسِم لك.

(تشيه):

- حقا؟ كم أنت مُتفائل.

أمسك بقميص الشاب بكلتا يديه.. العيون كلها تترقب بلا استثناء..

(تشيه):

- الآن سنعرف الحقيقة.

مزّق قميص الشاب كاشفا عن صدره القوي.. اتّسعت العيون حتى كادت تخرج من مَحاجرها وشهقَ (تشيه) وتراجع بحدّة وهو يحدّق بدهشة عارمة إلى صدر الشاب الخالي من أي وسم.. تعالت شهقات الصدمة وساد الارتباك الساحة.. احتبست الكلمات في حلق (تشيه) قبل أن يتمكن من تحريرها قائلا باضطراب وهو يُشير بسبابته نحو صدر الشاب:

- ك.. كيف.. لا يمكن.. أنت لست موسوما.. هذا مستحيل!

حتى من كانوا يُكبّلون الشاب حرّروه وابتعدوا عنه وهم يحدقون إليه بمزيج من الصدمة والذهول.. تطلع الشاب إليهم والحيرة والدهشة تعلو وجهه.. هل جنّ الجميع؟! ظهرت (أليتا) من بين الحشد المرتبك وهي تحمل الملابس البنيّة قائلة:

- غير.. غير معقول.. أخبرنا.. من أين جئت؟

أنهت كلامها وهي ترفع عينها الوحيدة من صدره إلى وجهه بتمعن ثم قالت بحيرة:

- إنك حتى لا تحمل أثر الوسم السابق.. كيف يمكن هذا؟!

ما هذا الجنون؟! ما الذي يجري في هذا العالم؟! وقبل أن يستطرد أكثر في أفكاره شقّ صوتٌ حاد الهواء من الأعلى.. توجهت كل الأبصار نحو

مصدر الصوت.. تجلى الخوف والهلع على الوجوه.. حتى (تشيه) لم يستطع كتمان رُعبه وهو يحدق إلى الطائر الضخم ذو الريش البني وهو يحلق فوق الرؤوس على مسافة قريبة مطلقا صيحاته الحادة..

(أليتا) برعب وعينها معلقة على الطائر:

- السيد المعظم.. إنه قادم.

هتف (تشـيه) بالحشـد المرعوب آمرا بتَوَتُّر وهو يمتطي المندالون وينطلق مبتعدا:

- ارتدوا القفّازات.. توجهوا إلى العمل بسرعة.

ساد الهرجُ الساحة والجميع يخرجون قفازاتهم ويرتدونها بسرعة قبل مغادرة الساحة.. بدا وكأن الجميع قد نسوا أمر الشاب الذي تسمر في مكانه وتسارعت دقات قلبه وهو يتابع الطائر بأعين متسعة.. في ظروف أخرى كان سيستغل الفرصة للهرب لكنه لم يعرف لما لم يفعل وقتها وهو يحدق برعب نحو الطائر الضخم.. إنه ذات الطائر الذي رآه في غابة الجثث.. من المستحيل أن ينساه.. وجوده الآن يعني..

- أنت.. ارتدي هذه بسرعة.

انتفض الشاب والتفت إلى (أليتا) التي هزّته من ذراعه ومدت له الملابس البنية والقفازات.. حدق إليها بنظرات مُشوّشة وكأنه يراها

للمرة الأولى.. دفعت ما بيدها إلى صدره وكأنها تحثه على الإسراع.. التقط ما دفعته بشرود.. حدسه يخبره بأن يجاريها.. ألقى نظرة فاحصة على الملابس الكريهة.. ارتسمت على وجهه تعابير من يرى سحلية في طبق طعامه.. رفع عينيه نحو (أليتا) التي لم تعد تنظر إليه.. عينها المتسعة تنظر إلى نقطة ما خلفه برهبة وخوف.. جميع من لم يسعفهم الوقت لمغادرة الساحة ينظرون لذات النقطة برعب وقد تسمروا في أماكنهم.. انقبض قلبه وهو يلتفت بحذر إلى حيث ينظر الجميع.. أفلتت منه شهقةُ ذُعر وهو يرتد للخلف بحدة.. فأمامه سدّ شيء ضخم أحد مخارج الساحة.. هذا الشيء.. إنه الوحش الذي رآه في غابة الجثث يتبعه رجل يحمل عمودا مُدبّبا.. الآن فقط لاحظ أن يد الوحش اليسرى مُشوّهة وكأنها تعرضت للحرق منذ زمن..

- اركع.

همست (أليتا) وهي تركع وتُحني رأسها للأسفل وكذلك فعل كل من بالساحة.. تبدى الذهول والاستنكار على وجهه.. ما الذي يفعله هؤلاء المَخابيل؟! عاد ببصره نحو الوحش وقد تملكه الخوف.. لا.. لن يحذو حذوهم.. كل ما استطاع فعله بعد استِنفار كل ذرة من كيانه هو الانحناء والاختباء بسرعة خلف النافورة.. رفع أقل قدر من رأسه من خلف سور النافورة محدقا برعب حقيقي إلى ذلك الوحش.. هل لاحظ وجوده؟ من العسير أنه لم يفعل خاصة مع ملابسه التي تختلف عن

ملابس البقية وتميزه عنهم.. هل تعمد تجاهله؟! ربما.. ولكن لماذا؟ استقرّ الطائر القبيح على كتف الوحش الذي تقدم بثقة مُجيلا بصره بين تُعساء الحظّ الذين لم يغادروا الساحة تماما كالراعي الذي يجول بين ما يملكه من ماشية لينتقي من بينها ضحيته القادمة.. الجميع يرتجف ويدعو في سرّه ألا ينتهي بهم اليوم بالحصول على لقب ((الضحية القادمة)).. وقف الوحش عند رأس الشاب ذو الشعر الأحمر قائلا بصوته العميق المخيف:

- ارفع رأسك.

رفع ذو الشعر الأحمر رأسه بنظرات زائغة وجسده يرتجف وهو يتلو صلاته الأخيرة في سرّه..

الوحش:

- أين أخوك؟

شحب وجه ذو الشعر الأحمر وهو يجيب بصوت مرتجف:

- في.. في المنزل.. إنه.. إنه م.. مريض.. لكنني سـأعمل م.. مكانه و..

أشار له الوحش بالصمت وقال مخاطبا الجميع:

- انهضوا.

نفذ الجميع الأمر.. الشـاب المختبئ يراقب بحذر وشـعور سـيّئ يراوده في هذه اللحظات..

الوحش موجها حديثه لذي الشعر الأحمر وهو يشير للبقية بإشارة ذات مغزى:

- لا مكان للمتستّرين عن العاجزين في مُقاطعتي.

همست (أليتا) برعب:

- يا الهي.. (ويل).

انخلع قلب ذو الشـعر الأحمر (ويـل) وأربعـة رجـال يكبلونـه ويطرحونه أرضـا وارتسـمت على وجهه ملامح من لا يصـدق أن هذا يحدث له.. انهار (ويل) وأخذ يبكي ويتوسل:

- الرحمة سيدي.. الرحمة.

ماذا سيفعلون به؟ هل سيقتلونه؟

الوحش:

- لا تبتئس أيها العبد.. سـيلحق بك أخوك بمجرد أن يتعافى.. لن ألحقـه بك الآن حتى لا يمـوت بسـرعة.. سأحرص على أن تكونا متجاورين لتُؤنسا بعضكما.

تقدم الرجل المرافق للوحش بالعمود المدبّب نحو (ويل) الذي تحول بُكاؤه وعويله إلى صرخات هستيرية ومحاولاته للتفلّت تتزايد.. أشاح أحد الرجال الذين يثبتون (ويل) بوجهه بعيدا وكأنه لا يرغب برؤية ما سيحدث بعد قليل.. هوى الوحش بقبضته على أنف الرجل مُهشّما إياه لتنفجر الدماء منه وتغرق وجهه الذاهل..

الوحش:

- لا تبعد ناظريك وإلا أصبحت مكانه.. راقب واستمتع.

تغلب الرجل على ذهوله وألمه وأعاد بصره صوب (ويل) الذي لم يكفّ عن الصراخ لحظة واحدة.. العمود المدبب يقترب من أسفل جسد (ويل) ببطء وقسوة.. الجميع يراقب بصمت عاجزين عن فعل أي شيء.. مدّ الطائر اللعين رقبته وبرقت عيناه جَذلا للّحظات القادمة.. الشاب الوسيم يراقب ما يجري بمزيج من الذهول والخوف وقد أدرك أخيرا ما سيحدث.. وقبل أن يخترق العمود الجسَد المسجّى قفزت إلى ذهنه صورة غابة الجثث.. لا.. لا يمكن.. عليه أن يفعل شيئا.. لكن ما الذي يمكنه فعله أمام هذا الوحش؟ هل يهرب ويترك هذا الفتى لمصيره البشع؟ حدسه يخبره أنه حتى لو حاول الفرار فلن يفلح.. ليس وهذا الوحش هنا.. دارت هذه الخواطر في رأسه وهو يشاهد العمود وهو يَكاد ينغرس في جسد الفتى البائس الذي أطلق صرخة يأس أخيرة.. عليه أن..

– توقفوا!!!...

تجمّد كل شيء في الساحة.. توقف الجميع عما يفعلونه.. الموكل بغرس العمود.. الذين يثبتون (ويل).. حتى (ويل) نفسه كفّ عن العويل وهو يحدق مع الجميع بأعين ذاهلة نحو مصدر الصرخة.. التفت الوحش ببطء نحو الشاب الوسيم الذي تغير وجهه وتبدّت عليه ملامح من اقترف خطأ فادحا.. سدت (أليتا) فمها بكلتا يديها تعبيرا عن فداحة فعله.. تقدم منه الوحش بخطوات واثقة ثقيلة على مَهلِه وكأنما يملك كل الوقت.. الشاب نفسه لا يدري كيف فعلها.. لا يدري كيف ندّت منه هذه الصرخة وكيف تجاوزت شفتيه.. أهي الشجاعة؟ أم الحماقة؟ أم التّهوّر؟ أم هي رغبته بعدم رؤية أحد يواجه هذا المصير الذي لا يتمناه حتى لألدّ أعدائه؟ لا يدري بالضبط.. اقترب الوحش منه حتى وقف أمامه.. يا لضخامته.. يا لثقل الهواء من حوله.. لحظات ثقيلة كالقرن مرت على الشاب وهو يحدق بعينين متسعتين نحو الجمجمة الحيوانية ذات القرون الأربعة والتي انحنى صاحبها عليه كأنما يتفحصه حتى كاد يلامس وجهه.. هذه المسافة كافية لكي يرى العينين الرّابضتين خلف تجويفي الجمجمة.. العين اليمنى حمراء ذات بؤبؤ أسود طولي بينما العين الأخرى حمراء كالدم بلا بؤبؤ! غلف الصمت المكان حتى بات للرياح صوت وهي تداعب شعر الشاب الوسيم وترفرف بعباءة الوحش

الصوفية الثائرة.. رائحته مخيفة كصوته ومظهره.. رائحة جديرة بالوحوش.. كم يرغب بإطلاق ساقيه للريح لكنهما لا تَستَجيبان..

رفع الوحش ذقن الشاب المرعوب بأصابعه المخلبيّة الأربعة برفق قائلا:

- بشريّ شُجاع.

صمت للحظة.. لحظة استغلّها الشاب ليبتلع ريقَه ويرطب حلقه الجاف وهو يتطلع للوحش الذي تابع بصوته العميق:

- لكني أتساءل.. هل أنت جَدير بتحمل تبِعات هذه الشجاعة؟

لم ينبِس الشـــاب ببنتِ شـــفة.. ترى ما الذي ينتظره على يد هذا الوحش؟

على ضوء المصباح في ذلك الكهف جلس (يزن) على فراشه في ذلك التجويف الذي وجد نفسه لأول مرة مغمضا عينيه وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه واضعا كفّه على صدره في محاولة لتهدئة نفسه والسيطرة على أعصابه بعدما أفزعه رؤية ذلك الحيوان المدعو (هيرو) والذي ينتمي إلى فصيلة الخيول التي جلبها البشر معهم منذ قرون حسب زعم (أدريانا) التي لم تتمالك نفسها من الضحك على ردة فعله مما أثار غضبه ودفعه إلى

العودة إلى الداخل.. بقدر ما أفزعه هذا الحيوان إلا أنه أثار ذهوله.. إنه نفس الحيوان الذي رآه في ألبوم الصور! ها قد بدأت أنفاسه تنتظم.. إنه يهدأ شيئا فشيئا.. الآن وبما أنه لوحده يمكنه مُمارسة عادته في ترتيب أفكارِه وتدوين كل ما مرّ به في مفكرته الصغيرة التي يحملها معه أينما ذهب.. انهمك لبعض الوقت في تلخيص كل المعلومات الغريبة التي حصل عليها في نقاط إلى حد أنه لم يلحظ (أدريانا) التي وقفت تراقبه ببرود عند فتحة التجويف المؤدية للخارج وقد عقدت ذراعيها على صدرها قبل أن تسأله بغتَة:

– ما الذي تفعله؟

أجفل (يزن) وندّت منه شهقة قصيرة وأفلتَ المفكرة والقلم من يديه قبل أن يلتفت إلى (أدريانا).. بدا عليه الانزعاج وهو يلتقط ما سقط منه قائلا:

– اللعنة.. لقد أفزعتني.

رماها بنظرة غاضبة لاحظ خلالها أنها تَمتشِق قوسا بدائيا وجَعبَة سهام على ظهرها في حين تدلّى منظار مُقرب –كالذي يستخدمه في رحلاته الاستكشافية–من حزام معلق بخاصرتها.. لم يكن بحاجة لأن يسألها عن المنظار فهو حتما يخص والدها.. عاد إلى ما كان يقوم به متجاهلا إجابتها فكررت السؤال:

– ألم تسمعني.. قلت لك ما الذي تفعله؟

(يزن) بلا مبالاة وهو يواصل الكتابة:

- أليس واضحا؟ إني أكتب.

- أعلم أنك تكتب أيها الأحمق.. كنت أقصد ما الذي تكتبه؟

- ولم تَسألين؟

- ولم لا تُجيب؟

- لأنه شأني الخاص.

رمقته بنظرة حانقة وقالت:

- أنت مثل أبي كلما سألته عما يكتبه يتهرب من السؤال ولا يمنحني إجابة واضحة.

بدا الاهتمام على (يزن) وهو يلتفت إليها متسائلا:

- هل يملك أبوك مفكرة أيضا؟

مطّت شفتيها بامتعاض وأجابت:

- يملك.. لكنه لم يعلمني القراءة أو الكتابة وأنا لم أهتم بتعلمها من الأساس.

ثم لوّحت بكفها وتابعت:

- دعك من هذا الآن.. لقد أشرقت الشمس وعلي الذهاب للصيد.. أترغب بمرافقتي؟

(يزن) وهو يعود للكتابة:

- رافقتك السلامة.

- كما تشاء.

تنهد (يزن) وهو ينظر للفتحة التي غادرت منها (أدريانا) للتوّ.. لقد تصور أنها ستُلقي اللوم عليه ولن تتحدث معه بعدما دار قبل ساعات.. والأعجب هو شعوره ببعض الندم على معاملته الجافّة معها بالرغم من أنها هي من بدأت بإهانته والسخرية منه في أول لقاء لهما.. أهي طيبته التي تولد السّذاجة؟ ربما.. عاد للمفكرة وبدأ بمراجعة ما كتبه من نقاط واستنتاجات:

1- هذا العالم -أو الكوكب كما عرف-تهيمن عليه مخلوقات هي أقرب للوحوش.

2- تلك الوحوش تستعبد البشر منذ أكثر من 1500 عام مضت وجميع البشر في هذا الزمن ينحدرون من أسلافهم الأوائل الذين هُزموا في تلك الحرب وتم استعبادهم منذ ذلك الحين..

3- أسلاف البشر الأوائل في هذا الكوكب تعود أصولهم إلى أرضٍ أخرى بعيدة جدا يطلق عليها ((كوكب الأرض))..

4- ما الذي دفعَ أسلافهم إلى القدوم إلى هذا الكوكب بما استطاعوا من مخلوقات وحتى بذور النباتات؟ أهي الهجرة؟ أجل.. إن الأمر أقرب للهجرة أكثر من أي شيء آخر.. ولكن لماذا؟ السبب الوحيد المنطقي هو أن كوكب الأرض لم يعد صالحا للحياة.. الاحتمالات كثيرة.. ربما بسبب قلة الموارد والغذاء.. أو بسبب وباء كاد يفنيهم.. أو هي حرب انتهت بدمار الكوكب.. وربما هربا من شيء ما! الاحتمالات كثيرة بالفعل..

5- يمكن القول أن الكبسولة التي وجدها تعود لشخص عاش في تلك الفترة التي سبقت قيام الحرب بين أسلافهم وتلك الوحوش التي تسود هذا الكوكب المسمى (تيتان)..

6- إن كان جميع البشر في هذا العالم عبيدا لتلك الوحوش فماذا عن البشر الذين يعيشون بالأسفل من حيث جاء؟ التفسير الوحيد هو أن مجموعة من أسلافهم قد تمكنوا من الفرار إلى الأسفل بعد هزيمتهم ودون علم تلك الوحوش وهكذا عاشوا طوال تلك المدة بعيدا عن السطح والعبودية حتى نسوا أصولهم وكل ما يتعلق بالعالم الخارجي مع مرور الزمن..

7- بالنسبة للنقوش والرسومات التي تَملأ مباني عالمه بالأسفل فلتقطع ذراعه إن لم تكن تمثل تلك الوحوش.. ربما نقشها أسلافهم الأوائل لتحذيرهم من وجود تلك الوحوش في العالم الخارجي.. ولكن

هناك من حاول طمسها لاحقا فلماذا؟ ربما هي الأجيال التي تلتْهم والتي أرتأَت أنه من الخير نسيان كل ما يتعلق بالسطح.. من يدري.

8- هنا يبرز سؤال مهم.. من الجليّ أن الديدان الشرهة لم تكن موجودة عندما هبط أسلافهم إلى الأسفل فهل جاءت لاحقا من تلقاء نفسها أم أنها وجدت بفعل فاعل؟ وإن كانت بفعل فاعل فهل كان هدفه هو عزلهم عن العالم الخارجي أو حمايتهم؟ أم أن له هدف آخر؟

9- المسؤول عن غابة الجثث هو وحش يدعى (غالياس) وهو أحد الكبار الأربعة في هذا العالم...

عند هذه النقطة عاد (يزن) بذاكرته لما دار بينه وبين (رايان) قبل عدة ساعات بمقاييسه -في الليلة الماضية بالمقاييس الطبيعية-...

(رايان):

- الكبار الأربعة هم آخر من بقي من التيتانيين -التيتاني نسبة إلى سكان هذا الكوكب (تيتان)- ممن عاصروا وحاربوا أسلافنا منذ زمن.. (غالياس) اللعين هو أحدهم.

(يزن) بدهشة:

- ما هذا الذي تقوله؟ هل تقصد.. أن أعمار هؤلاء تتجاوز الـ1500 عام؟! ولكن.. هذا مستحيل!

(رايان):

– ما أخبرتني به زوجتي الراحلة أنهم خالدون بخلاف بقية التيتانيين الذين لا تتجاوز أعمارهم المئتي عام.. أصدقك القول أني لم أعد أعرف ماذا أصدّق منذ أن وطئَت قدماي هذا العالم الموحش.

سكت قليلا ثم أردف باهتمام وقد تذكّر ما يجول في رأسه:

– بُني أخبرني عن رحلتك.. أخبرني كيف تمكّنت ورفيقاك من تجاوز الديدان الشرهة؟

بدا الاهتمام على (أدريانا).. تردد (يزن) وهو ينقل بصره بينهما.. هل يخبرهما عن الكبسولة وعما حدث معهم في طبقة الديدان؟ هل سيصدقان؟ امممم.. لا ضير من إخبارهما على كل حال.. حكى لهما كل شيء.. استمعا إليه دون مقاطعة وملامحهما تتردد ما بين مصدّق ومُكذب.. عرض عليهما الساعة وشغلها أمامهما.. ردة فعلهما كما هو متوقع لم تختلف كثيرا عن ردة فعل (إميل) و(أوليفر).. ثم عرض عليهما الرسالة المرفقة مع الكبسولة.. هنا اكتشف (يزن) أن (أدريانا) لا تفقه حرفا مما كتب فقد كانت تحدق إلى الرسالة بعينين خاويتين من الفهم و(رايان) يقرأ لها بصوت مسموع.. إذن فهي لا تقرأ ولا تكتب!

(رايان) بعدما أنهى قراءة الرسالة ودون أن يرفع عينيه عنها:

– كل ما أخبرتني به زوجتي الراحلة صحيح إذن.. والدليل هو ما وجدته مع هذه الرسالة.. إنها حتما تخصّ شخصا عاش في الفترة التي أنشأ فيها أسلافنا حضارتهم على هذا الكوكب.

أنهى كلامه وأعاد الرسالة إلى (يزن).. ساد الصمت هُنَيهَة ثم نهض (رايان) وتوجه نحو جدار التجويف حيث مشجب الملابس البدائي وانتقى أحدها قائلا:

– أتعلم يا بني لم احتفظت بهذه طوال السنوات الفائتة؟

استدار ليواجه (يزن) ببذلة حلقات معدنية متشابكة حال لونها بفعل الزمن.. فهم (يزن) ما يرمي إليه على الفور في حين عقدت (أدريانا) حاجبيها.. تابع (رايان) دون أن ينتظر أي تعليق وهو يتأمل البذلة بتأثر:

– احتفظت بها لأني آمنتُ بمَجيء اليوم الذي سأحتاجها فيه للعودة إلى عالمي.. لقد فقدت الطريق الذي جئت منه مع والدك.. سنوات طويلة مرت وأنا أبحث عن أي طريق للعودة وطال بحثي بلا فائدة.. حتى ظهرت أنت مع أداتك العجيبة.. الآن يمكننا العودة معا.

رفع (رايان) عينين احتبست الدموع فيهما نحو (يزن) متابعا بصوت مُتهدّج:

– يا للأقدار يا بني.. جئت إلى هذا العالم برفقة صديقي (نايل).. والآن أعود مع ابنه! يا للأقدار.. يا للأقدار!

لم يجد (يزن) ما يقوله فاكتفى بالصمت وإن بدا عليه أنه غير موافق تماما لما قيل لسبب لم يُفصح عنه.. ظهر القلق والضياع على ملامح (أدريانا) وتخلت عن برودها المعهود وهي تقول:

– أبي.. هل.. هل ستعود إلى الأسفل؟ إلى العالم الذي أخبرتني عنه حيث لا ليل ولا نهار ولا سماء؟!

التفت (رايان) إليها وقد تغيرت ملامح وجهه وحدق إليها للحظات ثم قال بخفوت:

– ابنتي.. أنت لا تريدين الذهاب.. أليس كذلك؟

أشاحت ببصرها وقالت:

– لا أدري يا أبي.. أعني لا أظن أنني مستعدة لهذه الخطوة.. في الحقيقة لا أستطيع تصور العيش بالأسفل بعيدا عن المكان الذي عشت فيه.

(رايان):

– لكنك عشتِ معي في هذا الكهف طوال عمرك والمعيشة بالأسفل لن تختلف كثيرا.

(أدريانا):

– بل ستختلف يا أبي.. صحيح أني عشت معك في هذا الكهف لكني أستطيع الخروج منه متى شئت وإن ذهبت للأسفل فلن تسمح لي بالعودة إلى هنا أبدا.

تنهد (رايان) وهو يعيد البذلة لموضعها ثم تقدم إليها ووضع يده على كتفها ونظر إلى عينيها مباشرة وقال:

– ابنتي أرجوك استمعي إلى ما سأقوله.. أنت ستفارقين كل شيء هنا لكنك ستنعمين في الأسفل بما نفتقده هنا في هذا العالم البائس.

(أدريانا):

– وما الذي نفتقده هنا؟!

(رايان):

– الأمان يا ابنتي.. الأمان من أن نجد أنفسنا يوما عبيدا للتيتانيين.. الأمان الذي لا ننعم به هنا ونحن ننام بأعين نصف مفتوحة خشية أن نجد التيتانيين حولنا في أيّة لحظة.. في الأسفل سننام بملء أعيننا مُطمئِنّين بأننا في دارنا وبين أهلنا ولن نكون عرضة للاستِعباد أو القتل من قبل تلك الوحوش.. أليس هذا كافيا؟ أخبريني.

(أدريانا):

- ...

تابع (يزن) حديثهما بصمت وقد قرر ألا يتدخل...

(أدريانا) وهي تشيح بوجهها مجددا:

- لقد انتصفَ الليل يا أبي.. عمتَ مساء.

ودون كلمة أخرى غادرت التجويف من المَمرّ المؤدي إلى الداخل.. تابعها (يزن) ببصره.. لا بد أنها تلومه الآن كونه المتسبّب في هذا الموقف.. هذا بديهي..

زفر (رايان) بشرود وجلس على الكرسي المقابل ل(يزن) دون أن ينظر إليه..

(رايان):

- ما رأيك؟

(يزن):

- رأيي بماذا؟

- بما رأيت وسمعت.

تنهد (يزن) ثم قال:

– لا أدري ما أقول.. كلاكما محق بشكل أو بآخر.. لا أستطيع لومها فالتغيير لن يكون سهلا عليها أبدا.

(رايان):

– ربما.. لكن هذا التغيير ضروري خاصة إن كان في مصلحتها.. فأنا لن أذهب من دونها.

علت علامات التفكير وجه (يزن) وهو يقول وكأنه يحدث نفسه بصوت مسموع:

– أنا أيضا لن أستطيع العودة من دون (إميل) و(أوليفر).

نظر إليه (رايان) بنظرات غريبة ثم قال بهدوء:

– بنيّ حكم عقلك لا قلبك.. صدقني لو كان بوسعنا إنقاذهما أنا وابنتي لما ترددنا لحظة واحدة.. لكن الأوان قد فات ما داما قد وقعا في قبضة (غالياس).

(يزن) باستهجان:

– ما الذي تقوله؟ هل تريد مني التخلي عنهما؟! هكذا ببساطة؟!

(رايان) وهو يتحاشى نظرات (يزن) المستنكرة:

– علينا تقبل الأمر الواقع مهما كان مرّا يا بني.

ضحك (يزن) بمرارة قائلا:

- تقصـــد أن أكتفي بالمشـــاهدة وألا أفكر حتى بالمحاولة.. أليس كذلك؟

تمالك نفسه ثم تابع بتهكم:

- ثم أخبرني بأيّ وجه أقابل ذويهما عندما أعود.. هاه؟ ماذا سأقول لهم؟ صحيح.. سأخبرهم أن وحشا مجنونا أسرهما وسيتسلى بقتلهما بوسيلة شنيعة وأنا آثرت لنفسي السلامة وعدت حتى دون أن أحاول فعل أي شيء لهما.. هاه ما رأيك؟

(رايان):

- ...

(يزن) وهو يهز رأسه نفيا:

- لا.. لست أنا من يتخلى عن رفاقه خاصة عندما أكون أنا المتسبّب بما هم فيه.

خيّل لـ(يزن) أن وجه (رايان) قد تجهم للحظة قبل أن يتدارك نفسه ويقول بخُفوت:

- حتى وإن كان الثمن هو حياتك؟

بُوغتَ (يزن) بالسؤال فلم يُحِر جوابا.. طال الصمت وكل منهما يُحملق في عيني الآخر قبل أن يعرض (يزن) بوجهه بعيدا..

(رايان) بنبرة رجاء:

- أرجوك بني فكر جيدا قبل أن تتخذ قرارك.. فقدت أباك فيما مضى ولا أريد إن أفقدك أنت أيضا.

لم يَنبِس(يزن) ببنت شفة.. (رايان) باستسلام:

- فهمت.. ولكن هل لديك خطة محددة لفعلها؟

- سأجد طريقة ما.

حدق (رايان) إلى (يزن) لدقيقة كاملة ثم نهض وقد أدرك أنه لا فائدة من محاولة ثَنيِه..

(رايان) بابتسامة دافئة:

- تتصرف مثل أبيك تماما.. أنت ابن أبيك بالفعل.

ثم استدار إلى الممر المؤدي للداخل لكنه توقف عند فتحة الممر وقال دون أن يلتفت:

- شكرا لك يا (يزن).

- على ماذا؟

– لأنك رسمتَ البسمة على وجه ابنتي.. لا تندهش لقد كنت أراقبكما.. أتعلم.. لم أرَها تضحك منذ أن توفيت والدتها.. شكرا لك يا بنيّ.

التزم (يزن) الصمت وهو يتابع (رايان) الذي واصل سيره واختفى داخل الممر...

– يبدو أن صديقك قد بدأ يومه الأول بإثارة المتاعب.

انتشله صوت (أدريانا) من التعمق أكثر في ذكرياته.. التفت إليها عاقدا حاجبيه بتساؤل ليجدها مستندة إلى فتحة الممر المؤدي للخارج مُمسكة بالمنظار المقرب وهي ترمُقه ببرود.. شخص واحد فقط يمكن أن تنطبق عليه كلمتي ((إثارة المتاعب))..

تساءل (يزن):

– صديقي؟ هل تقصدين (إميل)؟!

استدارت لتخطو إلى الخارج قائلة:

– لم لا تأتي وتشاهد بنفسك...

طوى (يزن) المفكرة في جيبه ولحق بها بلهفة حتى خرجا من الكهف.. الآن فقط ومع ضوء النهار أدرك أن الشلال يصبّ في نهر يتلوّى ببطن الوادي أسفلهم.. وقف عند حافة الجرف الصخري ومع

ضوء النهار الوليد لاحظ أن البلدة والقلعة محاطتان بالحقول من جميع الجهات والتي تحيط بها بدورها غابة من الأجساد المسمرة ممتدة على مساحة شاسعة! ناولته (أدريانا) المنظار المقرب وأشارت إلى وسط البلدة وقالت:

- هناك.. وسط البلدة...

رفع المنظار إلى عينه وصوّبه إلى حيث أشارت.. شهق بعنف واعتصرت يداه المنظار بقوة وهتفَ بانفعال:

- يا إلهي.. (إميل).

على الرغم من بعد المسافة إلا أن المنظار نقل له مرأى (إميل) بقميصه الأسود وبنطاله الأزرق اللذان يُميّزانه عن المحيطين به وهو يقف أمام ذلك الوحش المدعو (غالياس) الذي انحنى على (إميل) ثم قام بفعل لم يتوقعه أحد على الإطلاق...

رحلة العذاب

- لكني أتساءل.. هل أنت جدير بتحمل تبِعات هذه الشجاعة؟

أنهى (غالياس) تساؤله واستمر بالتّمعُّن في وجه (إميل) لما يزيد عن الدقيقة.. لقد حُسم الأمر.. لقب ((الضحية القادمة)) سيكون من نصيب هذا الشاب المتهوّر.. هذا ما تصوره الجميع بلا استثناء.. لكن ما حدث بعدها فاق كل توقعاتهم ولم تستوعبه عقولهم بسهولة حتى ظنّ بعضهم أنه أصيب بخلل في عينيه.. فأمام العيون غير المصدقة أحاط (غالياس) كتف (إميل) -غير المصدق-بذراعه الضخمة كما يفعل الأصدقاء المقربون واقتاده بهدوء وصمت نحو أحد مخارج الساحة وسط العيون الذاهلة والأفواه الفاغرة.. ما الذي دفع هذا الوحش لمعاملته هكذا؟! لماذا لم يأمر بقتله كما تصور؟! كانا على وشك مغادرة الساحة عندما هتف الموكل بغرس العامود متسائلا بارتباك:

- س.. سيدي.. ماذا عن.. ماذا عن هذا الفتى؟ -وهو يشير إلى (ويل)- هل ننصُبه على الخازوق؟

لم يتلقّ أي جواب وهو يشاهدهما يختفيان في الممر.. شلّ الخوف تفكير (إميل) وعقد لسانه وهو يسير باستسلام لم يعهده في نفسه قط مع الوحش.. لوح الوحش بيده الحرة للطائر فحلق عن كتفه مبتعدا..

(غالياس):

- ما اسمك أيها الشجاع؟

(إميل):

- ...

(غالياس):

- يستحسن بك أن تجيب فلن أكرر سؤالي.

- إ.. إميل.

- (إميل).. امممممم.. أتعلم أيها الشاب لماذا لم آمر بنصبك على الخازوق؟

(إميل):

- ...

(غالياس):

- لأني رأيت فيك ما لم أره في بني جنسك منذ قرون.. أنت تختلف عن هؤلاء العبيد التافهين مَعدومي الإرادة.

كانا قد تجاوزا حدود البلدة ليدخلا ممرا ترابيا يشق طريقه بين الحقول مترامية الأطراف.. هبّت عليهما رائحة عضوية نتِنة مصحوبة بأنين معذب أدرك (إميل) مصدرهما حتى قبل أن يرفع بصره نحوه.. اتسعت عيناه وخفق قلبه فزعا وهو يحدق إلى غابة الجثث وقد بدا واضحا أنها

تطوق الحقول والبلدة من جميع الجهات.. لقد فهم الآن.. هذا الوحش يقوده نحو تلك الغابة الشنيعة.. لا.. لن يدخل تلك الغابة.. حاول (إميل) التمّلص أو حتى التوقف عن السير..

(غالياس):

- لا أنصحك بالمحاولة.

قالها وهو يضغط على كتف (إميل) بقوة أجبرته على السير للأمام.. تلفّت (إميل) حوله بتوتر.. لاحظ أن العمال قد توقفوا عن العمل وهم يحدقون إليهما بدهشة لا حدود لها خاصة (تشيه) الذي تجمد في مكانه وهو يمتطي المندالون فاغرا فاه بشكل مضحك.. سرعان ما عاد الجميع لعملهم عندما رماهم (غالياس) بنظرة عابرة.. وقعت عينا (إميل) على شيء شدّ انتباهه وأثار استغرابه بشدة.. مَخلوقين من نفس جنس الوحش يعملان في الحقول بعيدا عن باقي العمال ويرتديان ذات الملابس البنيّة! تكوينهما الجسدي أخبره بأن أحدهما ذكر والآخر أنثى.. كانت عيناهما حمراوين يتوسطهما بؤبؤ أسود طولي يشق العين من منتصفها.. أنفاهما مسطحَين وفَماهما دقيقين.. الذكر غليظ الملامح ضيّق العينين نوعا ما ورأسه خال من الشعر وبُنيته قوية ضخمة ويمتلك أربعة أذرع مفتولة العضلات على النقيض من الأنثى التي كانت رقيقة الملامح وشعرها الأحمر ينسدل على ظهرها ليصل إلى خصرها النحيف.. كلاهما يحملان

ذات الوسم على الخد الأيسر ويختلسان النظر إليه بدهشة وفضول شديدين! ما الذي يفعله مخلوقان مثلهما هنا؟! كان (إميل) مركزا بصره عليهما إلى حد أنه تنبّه متأخرا أنه على وشك تجاوز منطقة الحقول المحاطة بحراسة مشددة من العمال المسلحين برماح بدائية وقد وقفوا متأهبين مديرين ظهورهم إلى غابة الجثث.. الرائحة النّتنة تزداد عُطونة والأنين يعلو مع اقترابهما.. كيف يمكن للعمال العمل وهذه الغابة المرعبة على مرأى منهم؟! أفسح الحراس الطريق لهما ثم ركعوا خافضين رؤوسهم للأسفل.. هتف (إميل) برعب وهو يحاول التفلت:

– ما الذي.. ما الذي تريده مني بالضبط؟ توقف.

ضغط (غالياس) بقوة على كتف (إميل) حتى انغرسَت مخالبه البارزة قليلا من أصابعه الأربعة في كتفه لتدميه.. حاول (إميل) كتم أنفاسه وسد أنفه وفمه بكفه حتى لا يستنشق الرائحة الشنيعة وأخفض عينيه لكي لا تقعا على منظر الجثث.. بعد دقائق من المشي وسط تلك الغابة المخيفة توقف (غالياس) وتوقف معه (إميل) الذي لم يرفع بصره عن الأرض طوال مسيرهم في الغابة..

(غالياس):

– انظر إليهم.

(إميل):

- ...

في اللحظة التالية شعر (إميل) بشيء يقبض على شعره من مؤخرة رأسه بغتة ويثني رأسه للخلف بقسوة آلمته وأجبرته على النظر إلى حيث يراد له..

(غالياس) دون أن تتغير نبرته المحايدة الهادئة:

- قلت انظر إليهم.

شعر (إميل) بصعوبة في التنفس وهو ينظر إلى مجموعة من العمال المسمرين على أعمدة متناثرة أمامه بأعينهم الزائغة وأنينهم وأطرافهم المرتعشة.. على خلاف باقي الأجساد بدت هذه الأجساد حديثة وكأنها قد علقت منذ وقت قريب جدا!

(غالياس):

- هؤلاء هم من جَلبوك إلي.. إن كنت ما زلت تُكن لهم الضغينة فهذه فرصتك لكي تتشفى فيهم وتستمتع بمشاهدتهم على حالهم هذا.

اتسعت عينا (إميل) وهو يحدق إلى هذه الوجوه المعذبة.. إنهم أتباعه.. وعبيده.. لقد نفذوا أوامره ولا شك فلماذا عاقبهم؟!

(غالياس) وكأنه يقرأ أفكار (إميل):

– أرسلتهم خلف ثلاثة ليعودوا بواحد.. هذا هو الفشل بعينه وأنا لا أقبل الفشل.. كان ينبغي أن أصطادكم بنفسي بدلا من الاعتماد على هؤلاء العبيد عديمي الفائدة.

سكت (غالياس) ليرى أثر كلامه على (إميل) الذي بالرغم من هذا الموقف إلا أنه شعر بالارتياح لأن صديقيه لم يقعا بيد هذا الوحش المجنون..

تأوّه (إميل) ألما وامتدت يداه في محاولة لإبعاد قبضة (غالياس) التي اشتدت فجأة على شعره..

(غالياس):

– أتسمع هذا الأنين؟ أليس أقرب إلى اللحن؟ أجل.. هذا هو لحني المفضل.. لحن لا ينبغي له أن ينقطع عن حديقتي.. إنه يكلفني الكثير من العبيد لكنه ثمن بخس مقابل ما أحصل عليه من متعة.. كم أشعر بالانتشاء والطرب عندما أستمع لهذا اللحن.. كم أشعر بسعادة لا توصف عندما أنظر إلى عيونهم التي تتوسل الموت ولا تناله.. كم أشعر بالجبروت وأنا أعلم أني الوحيد الذي يملك حق تقرير مصيرهم.. إما أن أريحهم بالموت أو أن أتركهم على حالهم لأطيل عذابهم.. لو كان الأمر

بيدي لمنعت عنهم الموت ليعيشوا العذاب أبدا.. صدقني أيها البشري لا شيء يفوق لذة رؤية اليأس والألم يتدفق من هذه العيون.

تملك الذهول (إميل) وهو يرمق (غالياس) بطرف عينه.. من يقول كلاما كهذا لا يمكن أن يكون سويا.. أي وحش سادي هذا الذي يستمتع بمعاناة ضحاياه؟! أي وحش أوقعه حظه العاثر بين يديه؟!

حرر (غالياس) رأس (إميل) وطوق كتفه بذراعه الضخمة مجددا واستدار عائدا من حيث جاء..

(غالياس):

- لا تَبتئِس لأجل هؤلاء العبيد.. سيتحررون من العبودية خلال أيام وإلى الأبد.. الأحرى بهم أن يكونوا ممتنين لي.

لأول مرة في حياته شعر (إميل) بكل هذا العجز والخوف.. لقد شل الرعب عقله وألجم لسانه والنتيجة أنه سار باستسلام مع (غالياس) عائدين نحو ساحة البلدة بصمت.. من يستطيع لومه بعد أن رأى ما رآه؟ لوّح (غالياس) بيده مشيرا إلى (تشيه) بأن يتبعه وهما يعبران الحقول...

(تشيه) بكل خضوع:

- أمرك مولاي.

بلغ الثلاثة ساحة البلدة.. وكما توقع (إميل) لم يغادر أحد الساحة.. حتى الفتى (ويل) ومن يكبلونه لم يبرحوا أماكنهم.. ألهذا الحد يخشى الجميع هذا الوحش؟!

ما إن أبصر الجميع (غالياس) حتى ركعوا جميعا وأحنوا الرؤوس بوجل.. حلق الطائر فوق الرؤوس قليلا ثم حط على كتف سيده الذي تقدم عابرا الساحة برفقة (إميل) المُمتقِع ومن خلفه (تشيه) حتى وقف عند رأس الرجل المكلف بغرس العمود في جسد (ويل)..

(غالياس) بهدوء مخيف:

- ما لي لا أرى أحدا على الخازوق؟

شحب وجه الرجل المكلف بغرس الخازوق وتلعثم في كلامه:

- م.. مو.. مولاي.. لقد سألتك قبل أن تغادر ال..

قاطعه (غالياس) ملوّحا بيده المشوّهة بإشارة فهمها الكل على الفور:

- وهل أمرتك ألا تفعل؟

في اللحظة التالية انقض الرجال الأربعة الذين كانوا يكبلون (ويل) على زميلهم الذي تحول بإشارة واحدة من جلاد إلى ضحية.. لم يصدق

ما يجري له وهم يثبتون أطرافه للأرض.. لم يصدق وهو يتلفت حوله إلى الوجوه المحيطة به بارتباك وعدم فهم وهو يردد بأنفاس متسارعة:

- و.. ولكن.. لما.. لماذا؟! ما الذي فعلته؟! لا.. أرجوكم.. توقفوا.. توقفوا!!..

لتجنب الإطالة في الوصف يمكن القول أن ما حدث مع (ويل) من تَوسّل وعويل قد تكرر حرفيا مع هذا الرجل.. أشار (غالياس) برأسه إلى (تشيه) فقام الأخير بالتقاط العمود المُدبّب وقد تهلل وجهه فرحا وكأنه طفل سمح له والده بتناول ما يشاء من الحلوى.. زحف (ويل) مبتعدا وهو لا يكاد يصدق أنه قد نجا من موت محقق ثم تذكر شيئا مهما فهوى تحت قدمي (غالياس) وأخذ يقبل حذاءه بطريقة مُقزّزة وهو يردد عبارات الشكر والعرفان! لم يُعِرْه (غالياس) أي انتباه وهو يوجه كلامه إلى (إميل) المرعوب:

- الآن سترى بأم عينك كيف يتم الأمر.

تعالى بكاء وعويل الضحية حتى كاد يصمّ الأذان.. أطلق الطائر أصواته الحادة وكأنه يعلن سعادته لما سيحدث..

(إميل) بصوت مختنق:

- لا.. لا تفعلوا.. توقفوا!!!.

هتف وهو يحاول الاندفاع نحو (تشيه) لمنعه من القيام بفعله الشنيع إلا أن (غالياس) شد على كتفه بقوة ساحقة سمّرته في مكانه.. أطلق الضحية صرخة ألم مدوية عندما انغرس رأس العمود أسفل جسده.. ضغط (إميل) على أسنانه وأشاح بوجهه بعيدا عن المشهد المروع وصرخات الضحية الممتزجة بصيحات الطائر تدق أذنيه.. شعر (إميل) بأصابع كالفولاذ تقبض على عنقه من الخلف بقوة هائلة كادت تسحقه فشهق ألما وامتدت يداه في محاولة لتحرير رقبته من تلك الأصابع ولكن بلا جدوى..

(غالياس):

- لا تُشح بوجهك.

أجبر الضغط الساحق (إميل) على فتح عينيه وإعادة توجيه رأسه نحو ما يراد له رؤيته.. اختنقت الكلمات والصرخات في حلق (إميل) وجفت الدماء من عروقه وهو يشاهد (تشيه) يواصل مهمته القذرة بسعادة وحرص في الجسد الذي أنهكه الصراخ والألم حتى برز رأس الخازوق من الكتف.. هدأت صرخات الضحية ليحل محلها أنين خافت جدا.. برقت عينا الطائر جذَلا وازدادت وَتيرة صيحاته في حين ابتعد (تشيه) عن الجسد المرتخي بنظرات راضية عن عمله مفسحا المجال للرجال الأربعة الذين تعاونوا على رفع العمود الدامي بحمله حتى

انتصب واقفا.. يا للبشاعة.. يا للفظاعة.. كان (إميل) يحدق بأعين تنطق بما في قلبه من رعب إلى حد أنه لم يشعر أو لم يكترث ليد (غالياس) التي حررت رقبته والتفت حول كتفه لتضمه بهدوء.. اقتاد (غالياس) (إميل) برَويّة نحو النافورة الجافة وهو يقول:

– الجلاد أصبح هو الضحية.. أليس هذا ممتعا؟ ألا ترى في هذا عدالة شعرية؟

لم يكن (إميل) في حال تسمح له بالرد وهو يسير مع (غالياس) بنظرات تائهة حتى بلغا النافورة..

حرر (غالياس) كتف (إميل) ليواجهه وسط صمت وترقب الجميع.. تابع (إميل) بحذر يد (غالياس) اليسرى المشوهة وهي تتلمّس قميصه الممزق قبل أن يمرر أصابعه المخلبية على صدره ووجهه..

(غالياس):

– لا تحمل أي وسم! هممممم.. عجيب.. والأعجب أنك الوحيد الذي لم يركع لي.. لم لست موسوما أيها الشاب؟ ومن أين جئت؟

تعلقت كل الأبصار على (إميل) الذي ابتلع ريقه بصعوبة وهو يتطلع إلى الجمجمة الحيوانية ورائحة أنفاس صاحبها تَزكم أنفه.. صوت ما بداخله يحثه بشدة على تحاشي الإجابة..

(إميل):

- لا.. لا أذكر شيئا.. كل ما أذكره هو أني استيقظت في تلك الحجرة ثم..

قاطعه (غالياس):

- أكاذيب.. كاذب.

لم يحرْ (إميل) جوابا.. ما الذي يَنويه هذا الوحش؟ لو أراد قتله لفعلها منذ البداية.. هل يريد التلاعب بأعصابه قبل قتله أم ماذا؟

(غالياس):

- اركع.

بُوغتَ (إميل) بهذا الأمر المفاجئ فتساءل باستغراب:

- ماذا؟

لم يفهم (إميل) ما حصل بعدها.. فكل ما يذكره هو أن شيئا ما انفجر في وجهه بسرعة لا تصدق ليطير جسده في الهواء قبل أن يرتطم بالأرض والدماء تنزف من أنفه وشفتيه.. على قدر ما تشاجر مرارا إلا أنه طوال حياته لم يتلقَّ لكمةً بهذه القوة! حاول النهوض لكنه وفي اللحظة التالية شعر بشيء يكسوه الريش يضرب جبهته ليرتد رأسه للخلف قبل أن تنتزعه يد قوية من شعره وتجبره على الوقوف..

(غالياس) وهو يهز رأس (إميل):

- أنا لا أكرر أمري مرتين.. اركع.

أنهى كلامه وهو يحرر رأس (إميل) الذي ترنح قليلا وهو يضغط على رأسه بكلتا يديه ليخفف من حدة الصداع الذي يَكتنِفه وعلامات الألم ترتسم على وجهه.. لم يتعرض في حياته كلها لإذلال كهذا.. هذا الوحش يريد الإمعان في إذلاله عندما أمره بالركوع.. الصداع بدأ ينحسر عن رأسه.. هو لم يُحنِ رأسه لأحد قط فكيف بالركوع! إن لم يفعلها الآن فسيعلق على العمود المدبب.. ولكن إن فعلها الآن فهل سينجو؟ ماذا عن مَبادئه؟ معتقداته؟ كرامته؟ دارت هذه الخواطر في ذهنه الذي بدأ يصفو تدريجيا بعدما تمالك نفسه ووقف في مكانه بثبات خافضا رأسه للأسفل بصمت.. مرت أكثر من دقيقة وقد بلغ ترقب الجميع ذروته وهم ينقلون أبصارهم بين (غالياس) و(إميل).. حتى (يزن) شاركهم الترقب وهو يراقب ما يجري بقلق من مكانه البعيد..

أخيرا تحدث (إميل) بنبرة غامضة ودون أن يرفع رأسه:

- لنفترض أني ركعت لك ونلتَ مُرادك من إذلالي.. ثم ماذا؟ هل ستتركني أرحل؟ أم ستقتلني بوسيلتك القذرة؟ ماذا عن الرجل الذي أمرت بقتله للتو؟ ماذا عن كل الذين في تلك الغابة البشعة؟ هل فرطوا في كرامتهم وركعوا لك؟ بالتأكيد فعلوا وأكثر.. وربما قدسوك إلى حد

العبادة.. فكيف صار مصيرهم؟ معلقين على الأعمدة.. هاه.. يا للسخرية!

اتّسعت كل الأعين المُصوّبة على (إميل) وتجلّت الصدمة على الوجوه.. كيف تجرأ هذا الشاب على الحديث هكذا مع سيدهم المعظم؟! كيف؟! بالكاد تمكنوا من كتم شهقات الذهول حتى لا يجلبوا على أنفسهم نقمة سيدهم الذي لم يحرك ساكنا ولم يقل شيئا.. تابع (إميل) وجسده يهتز انفعالا:

- أعرف أمثالك جيدا.. أمثالك تكمن سعادتهم في إذلال من هم أضعف منهم وبث الخوف في نفوسهم.. كل هؤلاء ليسوا سوى ضحايا لعقلك المريض.. طاعتهم وإهدارهم لكرامتهم لم تشفع لهم مما تفعله بهم.. إن كنت تحسب جميع البشر ضعفاء ومَسلوبي الإرادة فأنت مخطئ.. الآن أعرف أني سواء ركعت أو لا فالنتيجة واحدة.. لذا.. لذا..

رفع (إميل) عَينيه الحادتين نحو (غالياس) وهتف بقوة:

- لن أركع ولن أنحني ولتفعل ما بدا لك.

هبط كلام (إميل) كالصاعقة على مسامع الجميع.. عمّ الصمت الساحة ولم يعد يُسمع من صوت سوى صوت صفير الرياح.. الأعين تكاد تخرج من مَحاجرها لهول ما قيل.. قضي الأمر.. (غالياس) أعدم الكثيرين لأسباب أتفه من أن تذكر وأعدم أكثر منهم من دون سبب..

جُرأة هذا الشاب لن تمرّ مرور الكرام ولن تترك مجالا إلا للإعدام بالخازوق أو حتى ابتكار وسيلة جديدة أشد إيلاما وأكثر قسوة.. وكأن هذا ما كان ينقصهم!

(تشيه) بصوت مختنق:

- ك.. كيف تجرُؤ؟!

لم يبدُ على (إميل) أنه سمع شيئا وهو مستمر في تصويب نظراته الحادة نحو الجمجمة الحيوانية.. أجل لقد كان الخوف يتملكه منذ دقائق حتى بلغ الأمر محاولة إذلاله وسحق كرامته.. هنا تملّكت الحَميّة كل كيانه وفاقت كل شعور حتى توارى الخوف بعيدا واضمَحلّ.. إنه يشعر بالغضب.. المَقت.. الاشمئزاز.. لشِدّة ما كرَه واحتقر كل من يستلذّ بإيذاء من هم أضعف منه فقط لأنه أقوى.. كم يمقتهم.. ويحتقرهم.. جسده يرتجف ولكن غضبا هذه المرة وليس خوفا..

(غالياس) بهدوء شديد:

- ألم أقل لك بأنك مختلف؟

فجأة أطبقَت يده على رقبة (إميل) الذي انحبست أنفاسه بغتة فأخذ يضرب بكل ما أوتي من قوة اليد التي تعتصر عنقه بقوة هائلة وترفعه عن الأرض..

(غالياس) وهو يُدني رأسه من وجه (إميل):

– اسمعني جيدا أيها البشري.. يمكنني إعدامك هنا والآن.. ولكن لا.. ليس قبل أن أحطّم كبرياءك وأسحق إرادتك أمام الجميع وأراك تتوسّل تحت قدمي وأنت صاغر.

استمر (غالياس) بالضغط على رقبة (إميل) الذي احتقن وجهه بالدماء حتى كاد ينفجر قبل أن يفلته بغتة ليهوي على ركبتيه وهو يعبّ الهواء كما يعبّ الظمآن الماء مستندا بإحدى يديه على الأرض ومتحسّسا بالأخرى رقبته التي تؤلمه بشدة..

أشار (غالياس) بيده إلى (تشيه) بالاقتراب دون أن يرفع بصره عن (إميل).. خرّ (تشيه) راكعا تحت قدمي سيده ليجسد كل معان الذلّ والهوان مُحنيا رأسه للأسفل قائلا:

– مولاي...

(غالياس) وهو يوجه ركلة سريعة إلى بطن (إميل) الذي تأوّه وانكَفأ على نفسه:

– أريده مقيدا وسط الحقول ليشهد الكلّ عذابه.. الآن.

أحنى (تشيه) رأسه أكثر ليداري ابتسامته وقال:

– أمرك يا مولاي

سكت قليلا ثم أردف:

- مولاي.. ألا نَسِمه قبل أن نبدأ؟

(غالياس):

- لا يُوسم حتى يخضع.

- السمع والطاعة يا مولاي.

في اللحظة التالية انقضّ (تشيه) ومعه بعض الرجال على (إميل) الذي تمكن من ضرب بعضهم إلا أنه سرعان ما تهاوى بين أيديهم بسبب ما تلقاه من (غالياس).. لم يَمضِ الكثير من الوقت حتى وجد (إميل) نفسه مقيدا بإحكام على عارضة خشبية وقد تمّت تَعرية الجزء العلوي من جسده القوي وسط ساحة منبسطة بين الحقول على مقربة من غابة الجثث.. الرائحة الشيطانية لا تطاق هنا.. وقف (غالياس) أمامه يتأمله بصمت في حين انهمك بعض العمال في نصب خيمة خلف سيدهم على عجل.. تفرق بقية الجمع إلى عملهم بهلَع عندما لاحَت نظرة عابرة من سيدهم نحوهم فلم يتبقَّ وسط الساحة سوى (إميل) و(غالياس) و(تشيه) الواقف خلف سيده منتظرا أوامره كأيّ عبد يحترم نفسه.. جميع العمال في الحقول يختلسون النظر ويرهفون السمع أثناء عملهم بفضول شاركهم فيه الطائر المحلق فوق الرؤوس..

(غالياس) وهو يمد يده إلى جانبه محدثا (تشيه):

- هات سوطك.

تقدم (تشيه) على عجل وجثا على ركبتيه وأحنى رأسه رافعا يديه بسوطه إلى سيده الذي قبض على السوط وأخذ يتحسّسه بكلتا يديه.. انسحب (تشيه) إلى الخلف وابتسامته الجانبية الشامتة تعلو وجهه وهو يحدق إلى (إميل)..

(غالياس) وهو يَنغَز بطرف السّوط صدر (إميل):

- إني أنذرك أيها البشري.. إما أن تركع تحت قدمي وتخبرني من أين جئت وإلا فهو العذاب الذي لا ينجيك منه إلا الموت.

أسند (إميل) رأسه على العارضة الخشبية وحدَج (غالياس) بنظرات متحدية..

فرد (غالياس) السوط على امتداده بكلتا يديه وقال:

- هكذا إذن.. لك ما شئت.

انهالت لسَعات السوط بصوت مسموع على جسد (إميل) الذي عضّ على شفتيه في محاولة لكتمان صرخات الألم قدر الإمكان.. العمال بمن فيهم (أليتا) و(ويل) يختلسون النظر بين الفينة والأخرى.. بعضهم ينظر بإشفاق.. وبعضهم بشَماتة.. والبعض الآخر بفضول مجرد.. على

الجانب الآخر وعلى مسافة قريبة نوعا ما تابع المخلوقان اللذان يَنتميان إلى جنس (غالياس) جلسة التعذيب باهتمام.. لا أحد يعمل قريبا منهما وكأن الجميع يتجنبهما مما منحهما بعض الخصوصية.. استندت الأنثى على مِجرفتِها وتأمّلت (إميل) بشرود ثم قالت بصوتها الخافت:

- أمر هذا الشاب عجيب يا (باتار).. ألا توافقني الرأي؟

أجابها الذكر وهو ينتزع ثمارا بنية اللون من الأرض بأياديه الأربع:

- عجيب جدا إن أردت رأيي يا سيدتي.

تبدّى الامتعاض عليها وهي تلتفت إليه قائلة:

- (باتار) كفّ عن مُناداتي هكذا.. أنا لي اسم وهو (أورغانا) وليس سيدتي.. فأنا لم أعتبر نفسي سيدتك يوما.

(باتار) وهو يرمي الثمار في سلّة مَركونة بجانبه:

- كنت وما زلت وستظلين سيدتي ما بقيت حيا.

زفرت بضيق وقد قررت عدم الخوض أكثر في نقاش تعلم نتيجته سلفا.. أعادت بصرها نحو (إميل) وقالت:

- أخبرني (باتار) لماذا برأيك هذا الشاب لا يحمل أي وسم؟ هل هناك سادة لا يَسِمون البشر؟

فكر (باتار) قليلا ثم أجاب:

– ربما هو ابن أحد الفارين من أسيادهم منذ سنوات.. ضلّ طريقه وأوقعه حظّه التعس في قبضة (المُخوزِق).. أما جواب سؤالك الثاني فهو لا إن كان لي أن أقول ذلك يا سيدتي.

– لا أدري يا (باتار).. فالهاربون إما أن يعثر عليهم بعد فترة وإن طالت أو لا يعثر عليهم إطلاقا.. ثم إن ملابسَه غريبة وغير مألوفة.. قلبي يحدثني أن هذا الشاب يحمل معه قصة مثيرة.

– سيدتي هل تنوين التحدث إليه؟

– إن بقيَ حيا.

تأمل (باتار) (إميل) قليلا ثم قال وهو يعود لعمله:

– المعذرة يا سيدتي.. لكنني أعتقد أن هذا العب.. البشري لن يخبرك بشيء.

التفتَت إليه مُتسائلة:

– ولمَ؟

– سيدتي أنت رأيت وسمعت ما جرى بينه وبين (المخوزق) منذ قليل.. هذا العب.. أقصد البشري رفض الخضوع له وهذه سابقة خطيرة

لم تحدث من قبل.. فهل تظنين أن بشريا كهذا سيتجاوب معك؟ صدقيني سيدتي.. إن البشري الذي يتحدى (المُخوزِق) هو بشري غير عادي ولن تظفري منه بشيء إن سمحتِ لي بقول ذلك.

فكرت قليلا في كلامه ثم قالت وهي سارحة في تأمل (إميل):

– ربما.. لكن ما يثير حيرتي أن (المُخوزِق) لم يسبق له أن عاقب أحدا بغير الخازوق.. فلم برأيك لجأ إلى التّعذيب هذه المرة؟

– ربما لأنها المرة الأولى التي يتمرّد فيها أحد على (المخوزق).

تنهدت (أورغانا) وهي مستمرة في التحديق إلى (إميل) ثم عادت هي الأخرى إلى عملها قائلة وكأنها تحدث نفسها بصوت مسموع:

– آمل ألا يهلك هذا الشاب قبل أن أعرف منه حكايته.. الفضول يكاد يقتلني.

مثل سيدته لم يستطع (باتار) منع نفسه من اختلاس النظر واستراق السمع إلى جلسة التعذيب لعلّه يظفر بما يُميط اللثام عن الغموض المحيط بهذا الشاب المتهور.. استمر التعذيب لبضع دقائق إلى أن توقف (غالياس) عن الضرب ثم دنا من (إميل) الذي أغمض عينيه من شدة الألم وأخذ صدره يعلو ويهبط بثقل وخيوط الدماء تنزف من الآثار الدامية التي تركها السوط على جسده القوي..

نغز (غالياس) بطرف السوط خد (إميل) وقال:

- والآن هل ستركع وتخضع أم تُفضل أن يأكل هذا السوط لحمك؟

تمتم (إميل) بكلمات خافتة لا تكاد تسمع.. نغز (غالياس) خد (إميل) بقوة أكبر قائلا:

- ارفع صوتك.

فتح (إميل) عينيه بإنهاك وسدد نظرة احتقار هي أقرب للبصْق -لو كانت النظرات تُبصق- نحو معذبه وقال بنفاد صبر:

- أقفل فمك أيها المَسخ اللعين.. أيها الحقير ال...

لم يتَسنَّ له إكمال كلماته لأن لسعات السوط انهالت عليه بوتيرة أسرع وأكثر توحشا.. أغمض عينيه بألم أمام سيل اللسعات المجنونة وعضّ على شفتيه وهو يتأوّه بصوت مكتوم.. لن ينال منه هذا المسْخ.. لن يفرط بكرامته مهما حدث.. لقد قال كلمته ولن يتراجع عنها.. أبدا.. ولكن.. إلى أي مدى سيصمد؟ هذا هو السؤال الذي تبادر إلى أذهان الجميع بمن فيهم مُعذبه.. أجل.. إلى أيّ مدى؟

في مكانٍ آخر

في هذه الأثناء وفي بلدة بعيدة أقصى الشرق -على النّقيض من مقاطعة (غالياس) التي تقع في أقصى الغرب- جلست عجوز تيتانية ضخمة في حديقة منزلها الفاخر ذو الشكل الذي يمزج بين اللولبي والمخروطي ويجمع بين اللونين الأخضر والأزرق بشكل متدرج.. عجوز سمينة قبيحة الوجه والروح ترتدي ملابس فضفاضة زمرّدية اللون مُوشّاة باللون الأسود.. لون بشرتها الرمادي المائل للأزرق يتناقض بشكل فجّ مع لون شعرها الأسود المائل للأخضر والذي غَزاه البياض وقد تجدّل على شكل ضفيرة طويلة خلف ظهرها.. كل منازل البلدة تحمل ذات التصميم مع فارق الفخامة الواضح لصالح منزلها الواقع في ذلك الحي الراقي من تلك البلدة التي يقطنها بني جنسها مع عبيدهم من البشر الذين لا يخلو بيت منهم ويقومون بكل الأعمال الوضيعة بدءا من الأعمال المنزلية وحتى قيادة المركبات الحديدية بيضاوية الشكل والعربات التي تجرّها حيوانات المندالون والتي تباينت أنواعها.. بعضها عارٍ تماما والبعض الآخر إما يكسوه الريش الأسود المائل للبني بالكامل أو يكسوه وَبرٌ خفيف..

كانت تلك العجوز مُجعّدة الوجه ترمق عبيدها الذين يعملون على تنسيق حديقتها بوجه عابس قُدّ من الصخر وبنظرات حادة وكأنها تبحث عن أي خطأ لتعاقبهم عليه ولم تكن تبعد ناظريها عنهم إلا لتتأمل الخواتم ذات الفصوص متعددة الأحجام والألوان التي تزين جميع أصابع يديها

الثمانية بنظرات أرستقراطية عتيدة لا يعرف معها إن كانت راضية أم لا.. فجأة قست ملامحها ليزداد وجهها قبحا على قبحه وقد تذكرت شيئا قبل أن تهتف بأعلى صوتها الجاف القبيح كمظهرها:

- (ماكيبا) أيتها اللعينة يا ابنة الملاعين.. أين أنت؟ لم لم تحضري الطعام حتى الآن؟

ما إن أنهت هتافها حتى هرولَت امرأة سوداء البشرة والشعر والعينين ذات ملامح حزينة خارجة من المنزل بارتِباك واضح وهي تحمل صَحفة عليها بعض الطعام والشراب وإن هرولت بحذر كي لا يقع ما في يدها وهي تجيب بانكسار:

- حالا يا سيدتي.

وضعت الصحفة على المائدة المجاورة لسيدتها وبدأت ترُصّ الطعام والشراب على عجل ثم وقفت وهي تضم الصحفة إلى صدرها وأخفضت رأسها للأسفل بانتظار أوامر أخرى..

العجوز وهي ترمق (ماكيبا) بغضب:

- لم تأخّرت أيتها الخرقاء عن موعد إحضار وجبة ما بعد الإفطار؟ أجيبي.

(ماكيبا) بارتباك وتوتر دون أن ترفع رأسها:

- سي.. سيدتي.. موعد تناولك لهذه الوجبة لم يحِن بعد كما تعل..

قاطعتها العجوز بحدة أقرب للصراخ:

– ما الذي تقصدينه بأنه لم يحن بعد؟ أتقصدين بأنني كاذبة؟ أجيبي أيتها الحقيرة.

هزت (ماكيبا) رأسها بالنفي وتسلّل الذُّعر إلى صوتها وهي تجيب:

– لا يا سيدتي.. لم أقصد أن...

قاطعتها العجوز للمرة الثانية وهي تلوّح بيدها بنفاد صبر:

– كفى أيتها السافلة.. كفى.. لا أريد سماع أيّة أعذار.

التزمت (ماكيبا) الصمت في حين أخذت العجوز ترتشف الشراب دون أن ترفع عينيها الحادتين عن (ماكيبا) البائسة.. كان بقية العبيد يختلسون النظر إلى ما يجري بإشفاق.. جميعهم يرتدون القفازات ويحملون مسحة من البؤس والشقاء على وجوههم بالإضافة إلى ذلك الوسم على الخد الأيمن والذي يمثل خطين متعرجين متقاطعين..

العجوز:

– اقتربي مني أيتها السوداء.

نفّذت (ماكيبا) الأمر بصمت..

العجوز:

– اقتربي أكثر.. انظري إلي وأنا أحدّثك.

دَنت (ماكيبا) أكثر وجاهدت نفسها لكي ترفع عينين محمرّتين نحو سيدتها التي ازداد وجهها قبحا أكثر من أي وقت مضى و.. تفووووه!

طارت بَصقةُ العجوز لتُلوّث وجه (ماكيبا) التي أجفلَت وارتدّ رأسها للخلف إثر هذه المفاجأة قبل أن تستوعب ما جرى وتمسح بيدها ما علق على وجهها دون أن تنطق بحرف..

العجوز وهي ترمق (ماكيبا) من رأسها إلى أخمص قدميها بتعال:

– هذا أقل ما تستحقينه أيتها القذرة.. ولولا تَفانيك وإخلاصك في العمل لبعتُك إلى المعظم (غالياس) فهو يعرف كيف يربي أمثالك.. فعلتها مع غيرك وسأفعلها معك إن بدر منك ما لا يرضيني مرة أخرى.. لا تنسي قدرك أيتها العبدة السوداء فأنا سيدتك وأنا دوما على حق.. هل تفهمين؟

أومأت (ماكيبا) رأسها بالإيجاب وهي تنظر للأسفل بصمت..

العجوز:

– انظري إلي وأنا أحدثك أيتها الحقيرة وأجيبي.. هل تفهمين؟

رفعت (ماكيبا) عينين مُحمرّتين نحو سيدتها وقالت بنَبرَة كسيرة:

– أجل.. أفهم يا سيدتي.

تركزت نظرات العجوز الصارمة على (ماكيبا) قبل أن ترفع كوبها وترتشف منه دون أن ترفع عينيها عنها لحظة واحدة.. عقدت العجوز حاجبيها متسائلة وهي تنزل الكوب عن فمها:

- عيناك مُحمرّتان.. هل كنت تبكين؟

تردّدت (ماكيبا) قليلا ثم أجابت بتَوَتُّر وهي تهز رأسها بالنفي:

- لا.. لم.. لم يحدث يا سيدتي.

- إياك والكذب أيتها الخبيثة.

(ماكيبا):

- ...

أردفت العجوز وهي تضع الكوب على المائدة:

- أعرف لم كنت تبكين.. بسبب ما حدث البارحة أليس كذلك؟

سكتت قليلا وهي تتفرّس ملامح عبدتها التي تحولت إلى الحزن رغما عنها وهي تكابد لكي تمنع دموعها من الانحدار من عينيها..

تابعت العجوز دون أن تنتظر جوابا لسؤالها:

- لا أدري لم أنتم هكذا أيها البشر.. لم لا تتقبلون دوركم في الحياة؟! قدركم أن تكونوا عبيدا لنا نحن التيتانيين.. هذا قدركم منذ أن قبل

أسلافكم عرض الإمبراطور الأعظم قبل قرون مضَت.. العبودية مقابل الحياة.. فمن يقدر على العمل يحق له العيش كعبد مملوك لنا ومن لا يقدر لأي سبب كان فهو عالة ويجب التخلّص منه فورا.. هذا هو القانون وأنت تعرفينه جيدا فلم كل هذا الحزن والبكاء؟!

ابتلعت (ماكيبا) ريقها في محاولة للتخلّص من غُصّة تكاد تخنقها واحتبست الدموع في عينيها وهي تنزلها إلى الأسفل قائلة بصوت مختنق:

– سيدتي.. إنه.. إنه ابني.. إنه طفل.. لم يتجاوز السابعة من عم..

قاطعتها العجوز بجفاء:

– ابنك لم يكن سوى عبد غير صالح للعمل بسبب ضعف جسده.. القانون هو القانون وهو عادل جدا.. العبد العاجز عن العمل مثله مثل الفضلات التي لا يستفاد منها والإبقاء عليها يثقل كاهل الإمبراطورية ولذا وجب التخلص منه.. هذا ينطبق على ابنك وغيره فلم إهدار الموارد على العبيد العاجزين في حين أنه يمكن توفيرها لما هو أهم؟ فكري قليلا وسترين أن هذا هو العدل بعينه.

"بل هو الظلم بعينه".. أسرّتها (ماكيبا) لنفسها ولم تجرؤ على إعلانها وإلا كان مصيرها هو إرسالها على أول قافلة حديدية متجهة للغرب لبيعها للمعظم (غالياس) كما حدث مع زميلتها السابقة وأبيها..

ارتشفت العجوز قليلا من الشراب ثم قالت وهي تهز قدميها:

- أشعر بالخدر في قدميّ.. هيا أيتها السوداء دلّكيهما.

(ماكيبا) وهي تحثّ الخطى نحو المنزل منزلة رأسها:

- حالا يا سيدتي.

تابعتها العجوز بعينين لا تَطرِفان قبل أن تديرهما نحو بقية العمال الذين تظاهروا بعدم استراق السّمع أثناء عملهم.. لم يَمضِ الكثير من الوقت حتى عادت (ماكيبا) بدلو ماء دافئ لتضعه عند قدمي سيدتها التي غمسَت قدميها السّمينتين كوجهها فيه.. انحنت (ماكيبا) على ركبتيها وبدأت تدلّك القدمين القبيحتين ذات الأصابع الأربعة..

أخذت العجوز تتفرّس في وجه (ماكيبا) المُنحني على قدميها بتَعال وازدِراء قبل أن تمدّ يدها إلى طبق الطعام بجانبها وتأكل ببطء وبصوت مسموع.. حاولت (ماكيبا) إخفاء اشمئزازها مما تقوم به قدر الإمكان لكن رائحة القدمين الكريهة كانت كفيلة بإعادة حاسة الشمّ لمن فقدها.. في النهاية وشى وجهُها باشمئزازها فما كان منها إلا أن أحنت رأسها أكثر لإخفائه ولكن ولسوء حظها لاحظتها العجوز فقالت بصوت أقرب للفَحيح وهي تضيق عينيها:

- تشمئزّين من خدمتي يا ابنة الملاعين؟

تبدى الارتباك على (ماكيبا) للحظة إلا أنها تداركت نفسها ورفعت رأسها نحو سيدتها وارتسمت البراءة على وجهها وقالت بابتسامة مصطنعة:

– أنا أشمئزّ يا سيدتي؟! لا.. لا بالطبع.. إنه لشرف عظيم أن أقوم بخدمتك يا سيدتي.. إنه شرف يحسدني عليه كل العبيد.. كم أنا ممتنة لك لمنحي هذا الشرف يا سيدتي.

تأملتها العجوز قليلا بوجه جامد يساوره الشك ثم قالت:

– هكذا ينبغي أن يكونوا العبيد.. ممتنين لأسيادهم عموما وللإمبراطور الأعظم بشكل خاص.. فلولاه لما كنتم تعيشون معنا وتأكلون وتشربون مما نأكل ونشرب.. لولاه لفتَك أسلافنا بأسلافكم الملاعين الذين غدروا بأسلافنا بدافع الجشَع الذي جُبلَت عليه نفوسكم العفنة.. آواكم أسلافنا في حين تخلى عنكم بني جنسكم.. شملكم الإمبراطور الأعظم بعطفه وكرمه عندما عقد تلك الصفقة الكريمة مع بني جنسكم الحقير.. ولو كان أحد غيره لأفناكم عن آخركم لما اقترفَه أسلافكم من جرائم بحقنا.. لذا قدركم هو العبودية لنا تكفيرا عما فعلتموه في الماضي.. أجل.. هكذا ينبغي أن تكونوا أيها العبيد.

"ليت أسلافكم أفنوا أسلافنا أيّتها القبيحة.. على الأقل لم نكن لنَخدم جنسكم اللعين حتى اليوم.. بالذات أنت أيتها السمينة.. نأكل

ونشرب مما تشربون؟! بل قولي نأكل ونشرب من بقايا طعامكم والتي لا نلجأ إليها إلا مضطرين ولولا ذلك لرميناها في وجوهكم العفنة.. أيتها البرميل القَميء".. أسرّتها لنفسها وهي تهزّ رأسها بالإيجاب شأن من سمع هذا الكلام مرارا بابتسامة مُتزلّفة قائلة:

- أجل يا سيدتي.. معك حق.. معك كل الحق.

لم يتبدّل وجه العجوز الصخري ولا نظراتها وهي ترمق (ماكيبا) بنظرات قاسية قبل أن تضع طبقها جانبا ثم تميل نحو (ماكيبا) متسائلة:

- أيتها السوداء.. أيهما أحب إليك أنا أم أبنك؟!

بالكاد اغتصبت (ماكيبا) ما قالته اغتصابا وهي تحني رأسها لتخفي تقرّفها وتواصل تدليك قدمي سيدتها:

- بالطبع أنت يا سيدتي.. كيف لا أحبك وأنت مَولاتي ووَليّة نعمتي.

رمتها العجوز بنظرة مُتشكّكة ثم حانت منها نظرة عابرة إلى السماء لتتّسع عيناها وتهتف:

- عليك اللعنة أيتها السوداء.. الحديث معك كاد يُلهيني عن موعد ممارسة الجري.

قالتها وهي تركل وجه (ماكيبا) المسكينة مبعدة إياها مع دلو الماء لينسكب ما فيه قبل أن تهب من جلستها على عجل وتندفع نحو منزلها..

انهمكَت (ماكيبا) في تنظيف ما خلفته سيدتها قبل أن تراها تُهرول خارجة من المنزل وقد استبدلت ملابسها بملابس خفيفة تصلح للجري.. همت بمغادرة الحديقة لكنها توقفت في منتصف الطريق والتفتت إلى (ماكيبا) قائلة بلهجة منذرة:

- لا تتأخّري أيتها السوداء عن إعداد الغداء في موعده.. هل تفهمين؟

لم تنتظر العجوز الإجابة وهي تنطلق نحو بوابة الحديقة ولم تنسَ أن تركل أحد العمال في طريقها قبل أن تندفع إلى الخارج.. تلَت (ماكيبا) دعوتها في سرّها على سيدتها بالموت وهي تدلف المنزل ولم تنسَ أن ترمي صورة العجوز العملاقة المعلقة في ردهة المنزل بكراهية قبل أن تتوجه إلى المطبخ وتبدل قفازاتها تمهيدا لإعداد الغداء مع خادمة أخرى بيضاء البشرة ذات شعر أسود..

تساءلت الخادمة وهي منهمكة في إعداد الغداء مع (ماكيبا):

- هل خرجت السيدة لممارسة الرياضة؟

أومأت (ماكيبا) بالإيجاب..

تلفتت الخادمة حولها لتتأكد أنهما وحدهما ثم مالت نحو (ماكيبا) وهمست لها بخبث:

– لكنها سمينة كما هي.. لم يتبدّل جسدها وأكاد أجزم أنها ازدادت بَدانة.

(ماكيبا) بشرود وهي تنتقي قدرا لتضعَه على الموقد:

– هي لا تمارس الرياضة من أجل إنقاص وزنها.. بل لكي يتَسنّى لها تناول المزيد من الطعام.. ظننت هذا واضحا.

انطلقت ضحكة الخادمة قبل أن تكتمها بصعوبة بيدها ثم قالت بعينَين دامعتين من الضحك:

– حقا؟! لم أكن أعلم ذلك.

قالتها وهي تنظر إلى (ماكيبا) متوقعة أن تشاركها الضحك لكن ضحكتها تلاشت عندما اصطدمت عيناها بوجه (ماكيبا) الذي ارتسم عليه الحزن الشديد.. تكاد تقسم أنها تغالب دموعها وهي تملأ القدر بالماء.. هي تعرف سبب حزنها لذا آثرت الصمت وتظاهرت بالذهاب لجَلبِ شيء ما لتغادر المطبخ وتترك (ماكيبا) لوحدها.. إنها في أمس الحاجة لذلك الآن.. انحدرت دمعة ساخنة من عينها اليسرى قبل اليمنى.. ابتعدت عن الموقد قليلا لتجلس على أقرب كرسي وامتدت يدها اليمنى لتتلمس كتفها الأيسر.. هذا هو آخر موضع تشبّث به طفلها بيده الصغيرة قبل أن.. قبل أن.. لم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء.. السّفلَة.. لقد أخذوا منها زوجها.. والآن ابنها الوحيد.. في غمرة بُكائها

أخذت تسترجع كل أحزانها.. والدها الذي بيع إلى (غالياس) والذي لا تعرف عنه شيئا من حينها.. والدتها التي ماتت مباشرة بعد ولادتها كما أخبرها أبوها.. منذ نعومة أظفارها وهي تعمل في هذا المنزل منذ شروق الشمس وحتى غروبها ولا يتخلل هذه الفترة الطويلة سوى استراحة قصيرة.. تعمل بجد ونشاط يثيران حسد زميلاتها.. لكن هذا لم يشفع لها عندما أصاب المرض زوجها وأقعده عن العمل وأضعف بدنه إلى أن أصبح عاجزا عن العمل لتلك المدة الطويلة.. هي تعرف ذلك القانون الجائر الذي يتم بموجبه التخلص من العبيد العاجزين بالوسيلة المناسبة التي يراها حاكم كل مقاطعة على حدة مهما كانت قاسية.. أسوأ ما في الأمر هو أنه يتم التخلص من العبد وهو لا يزال حيا! كانت الوسيلة المُتّبعة في مقاطعتهم هي رمي الضحية في قدر زيت مغلي كبير يتّسع لعشرة أشخاص حتى تذوب بالكامل.. هذا القدر يقع في غرفة واسعة مخصصة لهذا الغرض في كل مدينة وبلدة في المقاطعة.. زوجها كان يعلم ما ينتظره لذا فكر في الهرب لكنه سرعان ما تراجع لأنه بفعلته هذه سيعرض كل زملائه لذات العقوبة بمن فيهم عائلته ناهيك عن صعوبة الأمر خاصة مع طفله وزوجته.. لذا تخلى عن فكرة الهرب واختلى بزوجته وطفله مودعا إياهما قبل أن يتناول تلك النّبتة بجرعة عالية كفيلة بأن يغط في نوم لا يستيقظ منه أبدا.. هكذا يموت دون ألم.. تتذكر وصيّته الأخيرة لها بالعناية بطفلهما الذي أنجبتْه بعد طول انتظار -12 عاما- والذي كان يبلغ وقتها خمسة أعوام.. تتذكر كيف توسّلت إلى سيدتها قبل

إقدام زوجها على الانتحار وكيف وعدتها بفعل أي شيء.. أي شيء.. ستعمل عوضا عن زوجها.. ستفعل أي شيء ليتركوا زوجها لها.. لكن القانون هو القانون.. قالتها سيدتها بقسوة وبوجه صارم لم يعرف الرحمة يوما.. تتذكر كلمات زوجها الأخيرة وهو يقبل جبينها وجبين طفلها:

– (ماكيبا) يا حبيبتي.. اعتني ب(زامبي).. إنه أمانة في عنقك.

كانت هذه كلماته قبل أن يبدأ مفعول النّبتة اللعينة وينسحب من وَعيه ليغمض عينيه للمرة الأخيرة بسلام أمام عينيها الباكيتين وهي تحتضن طفلها.. تتذكر طفلها عندما تم تكليفه بالعمل في سن السابعة.. لقد كان ضعيف البنية هزيلًا وبالتالي لم يكن قادرا على تحمل وقت العمل الطويل.. لذا تكرر ما حدث لزوجها مع ابنها لكنها هذه المرة ارتمَت عند قدمي سيدتها تقبلهما وهي تنتحب وتتوسل لكي يتركوا ابنها.. فليأخذوها هي عوضا عنه.. لكن توسلاتها ذهبت أدراج الرياح.. جاء رسول المسؤول عن غرفة الزيت ليأخذ ابنها.. احتضنته بقوة وهي تنقل عينيها الدامعتين بينه وبين سيدتها برجاء وتوسّل للمرة الأخيرة.. ولكن بلا جدوى.. كانت تريد أن تصرخ.. أن تمزّقهم.. وتسحقهم.. لكنها كتمت كل هذا وهي تلمحُ يد رسول غرفة الزيت وهي تتحسّس مقبض سيفه المُسنّن.. رسالة بليغة جدا لو فكرت بأي تصرّف أحمق.. تشبّثَ طفلها بها وقال ببراءة الأطفال:

– أمي.. أرجوك لا تتركيني.. لا تدعيهم يأخذوني.. أرجوك يا أمي.

نظرت إليه بعينين غارقتين في الدموع قبل أن ينفدَ صبر المرسول وينتزعه من صدرها عُنوة ولكن الطفل تمسّك بملابسها حيث كتفها اليسرى وعيناه المَذعورتان الباكيتان لا تفارقان وجهها الملطخ بالدموع قبل أن يسحبه المرسول بقسوة ويغادر به وسط صراخ الطفل وبكاء أمه التي خارت قواها فتهاوت على ركبتيها مُنتحبة وهي تردد اسم طفلها بلَوعَة..

- ألن تُرافقيهم؟ يمكنك المشاهدة كما تعلمين.

قالتها سيدتها بابتسامة مُتشفّية لن تنساها.. اجترّت كل هذه الأحزان وهي تنخرط أكثر في بكاء تحوّل إلى عَويل يقطع نِياط القلوب.. قد يتساءل سائل لم لم تستخدم النبتة المخدرة مع طفلها لتريحه من ميتة مؤلمة؟ الجواب هو أنها تمسّكت حتى النهاية بأمل زائف بأن ترق قلوبهم -لو كانوا يملكونها-لطفلها وهو ما اتّضح خطؤه لاحقا.. ليتها أعطته.. ليتها فعلت.. كم تحتقر نفسها.. وتكرهها.. كان الأجدر بها كأم أن تموت على أن يأخذوا ابنها.. يا لها من أم حقيرة.. لن تنسى حزنها حتى تنتقم أو تموت وهي تحاول.. أجل.. ستنتقم يوما.. لا تعرف كيف لكنها ستفعلها.. أخذ جسدها يهتزّ وهي تردد من بين دموعها:

- طفلي.. زوجي.. أرجوكما سامحاني.. سامحاني.

حالة من التّرقّب والتّساؤُل

- اهدأ يا بني.. أرجوك اهدأ.

- كيف تريدني أن أهدأ؟ كيف؟ (إميل) يتعرض للتعذيب هناك بينما أقفُ هنا عاجزا عن فعل أي شيء.. كيف لي أن أهدأ؟

قالها (يزن) لـ(رايان) وهو يشير بعصبية يشوبها القلق نحو تلك الساحة البعيدة حيث يُعذب (إميل)...

(أدريانا) ببرود وهي تتابع ما يجري لـ(إميل) بالمنظار:

- هدأت أو لم تهدأ.. هل سيُشكل هذا فارقا لصاحبك؟

التفت إليها (يزن) ورماها بنظرة غِلّ طويلة قبل أن يشيح بوجهه عنها بضيق..

(رايان):

- ما يثير دهشتي حقا هو أن اللعين (غالياس) قد لجَأ للتعذيب عوضا عن الإعدام بالخازوق.. يبدو لي أنه يحاول إرغام صاحبك على فعل شيء ما.

(أدريانا) موجهة كلامها إلى (يزن):

- من الواضح أن حاكم المقاطعة يمضي وقتا ممتعا مع صاحبك.. إن كان أبي محقا في ظنه فلك أن تفخرَ بصاحبك.

عقد (يزن) حاجبيه وفكر قليلا فيما قيل ثم وجّه بصره نحو البلدة البعيدة قائلا بشرود:

– إن كان الغرض من تعذيب (إميل) هو إجباره على ما لا يرغب فليُوفر ذلك الوحش جهده فهو لن ينال منه.

أنزلت (أدريانا) المنظار عن عينها والتفتت إليه قائلة ببرود يَشوبه التهكُّم:

– حقا؟

(رايان) بحذر:

– لن ينال منه؟! ما الذي تعنيه؟

تعمد (يزن) تجاهل (أدريانا) وهو يجيب (رايان):

– أنا أعرف (إميل) جيدا.. إنه عنيد جدا ولا أذكر أني رأيته مرغما على فعل ما لا يروقُه ولو لمرة واحدة.. لا أدري ما يَبتغيه منه ذلك الوحش لكني أجزم أنه لن يصل إلى غايته من (إميل).

(رايان):

– بني.. أنا لا أعرف صاحبك لكني أعرف مُعذّبه.. إنه لا يعرف الرحمة ولن يهدأ حتى يحصل على مراده من صاحبك أو يقتله.. وبمعرفتي لذلك اللعين لا أظن صاحبك يصمد طويلا.

لاذَ (يزن) بالصمت وزَمّ شفتيه متفكرا فيما سمعه قبل أن يمدّ يده إلى (أدريانا) التي فهمت ما يريده فناولته المنظار قائلة بسخرية لاذعة:

– أُراهن أنك لو كنت مكان صاحبك لما اضطرّ ذلك الوحش لتعذيبك.. نظرة واحدة تكفيه لينال منك.

انتزع (يزن) المنظار من يدها بحدّة دون أن يكلّف نفسه حتى بالرد عليها وهو يرفع المنظار ويُصوّبه نحو (إميل) محدثا نفسه بصوت مسموع:

– (إميل).. لا تستسلم.. سأجد طريقة لمساعدتك.. جئنا معا وسنعود معا.. أنا وأنت و(أوليفر).. سنعود معا.

الآن فقط تذكر أنه لم يُشاهد (أوليفر) حتى اللحظة.. أين هو؟ أهو سجين في مكان ما في تلك البلدة؟ أم تراه في مكان آخر؟ أين هو؟ أين؟

– أتعلم لم أمرتَ لك بالطعام والشراب؟ أجل.. إني أرى الفهم في عينيك.. هو ما تظنه.. حتى يطوول عذابك..

قالها (غالياس) موجها حديثه إلى (إميل) الذي ارتعشت شفتاه بإنهاك وهو يعبُّ مما يدفعه (تشيه) إلى فمه دون أن يرفع عينيه الحاقدتين عن معذبه الذي اتّكأ في خيمته وهو يحتسي من كأسه الأنيق الجدير

بالأباطرة شرابا أحمر قاني اللون لا مجال للخطأ في ماهيته.. إن لم يكن هذا دمه فماذا يكون إذا؟!

يكادُ يقتله الجوع والعطش فهو لم يتناول شيئا منذ ما يقارب الـ 24 ساعة.. التعذيب ضاعف من جوعه وعطشه.. لا يدري كُنه ما يقدم إليه لكنه الجوع الذي لم يمنحه ترف الاختيار.. لشد ما تخدّر جسده الدامي.. لشد ما غمرَه العرق ليختلط بدمائه النازفة على الرغم من برودة الجو.. ما إن انتهى (تشيه) من مَهمّته حتى أشار له سيده بالتنحي جانبا ثم نهض من مجلسه وتقدم بخطوات متمهّلة حتى وقف مباشرة أمام (إميل) الذي رفع بصره نحوه بمقت شديد..

(غالياس):

- عيناك تتدفقان ببأس وقوّة شكيمة لم أعهدهما في بشري قط.. هممم.. بحق الإمبراطور الأعظم.. أقسم أنك لم تذق طعم العبودية قط.. أرى هذا جيدا في عينيك.

لاحظ (إميل) أنه نطق كلمتي "الإمبراطور الأعظم" بتبجيل وتعظيم شديدين! ارتشف قليلا من كأسه ثم تابع بذات اللهجة المحايدة دوما:

- لكني أنا (غالياس) المعظم كفيل بأن أحطم بأسك هذا وأُحيل نظراتك المتحدية هذه إلى نظرات ذُل وانكسار.. أعدك بأن تتوسّل الموت ولا تناله.. ستظل في هذا العذاب حتى تركع وتعلن خضوعك لي.

سعلَ (إميل) بضعف ثم قال بتهكّم:

- أعلن خضوعي لك؟! أنت تحلم أيها المسخ.

سعل مرة أخرى ثم تابع ووجهه يتقلّص اشمئزازا:

- أخبرني يا هذا، هل كل المسوخ ثَرثارة مثلك؟ إن كنت سأتوسّل الموت فرائحتك تكفيني.. عليك اللعنة أيها المسخ ألا تستحِم أبدا؟!

هذه المرة تعالت شهقات الذهول والصدمة دون تحفظ وبصوت مسموع رغما عن كل من سمع.. أما من لم يحالفهم الحظ بسماع ما قيل فقد أدركوا أن الشاب المتهور قد ارتكب حماقة أخرى عندما سمعوا شهقات زملائهم.. تعلقت كل الأبصار على (إميل) و(غالياس) وتوقف الجميع عن العمل وكأن الفضول الذي تملكهم قد تغلّب على خوفهم مما قد يطالهم من عقاب أو أنساهم إياه.. أما (غالياس) فقد بدا شديد الهدوء وهو يحدق إلى (إميل) طويلا بصمت مثير للتوجُّس وإن أخذ صدره يعلو ويهبط بتسارع ملحوظ مما يشي باشتعاله غضبا في داخله.. ساد الصمت لأكثر من دقيقتين قبل أن يتجرع (غالياس) ما في كأسه دفعة واحدة ثم يطوّح به خلف ظهره دون أن يبعد بصره عن (إميل).. أشار (غالياس) ل(تشيه) بالاقتراب..

(تشيه) وهو يركع تحت قدمي سيده:

- سيدي.

(غالياس) بهدوء مخيف:

- أحضر بعضا من مسحوق نبات الكالاز.

تهللت أسارير (تشيه) وهو يحني رأسه أكثر ليخفي سعادته وهو يقول:

- أمرك سيدي.

انطلق (تشيه) لتنفيذ الأمر.. راود (إميل) شعورٌ بأن شيئا سيئا سيحدث له بعد قليل وإن لم ينعكس شعوره هذا على ملامحه التي بدت متماسكة.. عاد (تشيه) بعد دقائق حاملا صرّة قماشية بيضاء اللون لم يشعر (إميل) بالراحة لمرآها..

(غالياس):

- لن أخبرك بما سيحدث لك أيها البشري بل سأجعلك تختبره بنفسك.

ختم كلامه بأن أشار برأسه ل(تشيه) الذي اتّسعت ابتسامته الجانبية بوحشية وهو يفتح الصرّة ويقبض ملء يده من محتواها الذي لم يكن سوى مسحوق أصفر اللون سرعان ما استنشقَ (إميل) رائحته الخبيثة التي لا يضاهيها سوى رائحة الموت المنبعثة من غابة الجثث عن يمينه.. سرت الرعشة في قلب (إميل) لمرأى ذلك المسحوق لكنه وبإرادة غير

عادية تظاهر بالتماسك ورَباطة الجأش.. آخر ما يريده الآن هو أن يمنح معذبه شعور النصر عليه.. لا.. لن يمنحه هذا الشعور مهما حدث.. حطّ الطائر القبيح على كتف سيده ومدّ رقبته مطلقا صيحاته الحادة وكأنه يعلن أنه لا يريد تفويت مشاهدة ما سيحدث.. اتسعت ابتسامة (تشيه) أكثر وهو يقذف المسحوق على جسد (إميل) المثخن بالجراح.. ما إن لامس المسحوق جسد (إميل) حتى شعر بآلاف الدبابيس المشتعلة تحفر عميقا في جراحه المفتوحة! انتفض جسده وتلوى بعنف رغما عنه وهو يصرخ ألما كما لم يصرخ من قبل.. يصرخ كمن يُشوى حيا.. تعالى صراخه حتى كاد يصم الآذان وانقلبت عيناه في محاجرهما من شدة الألم.. ألم ساحق يفوق الوصف ويفوق تحمل أي مخلوق مهما بلغ من قوة.. الدنيا تدور من حوله.. دائرة السواد المطبق تتسع أمام عينيه.. يشعر بروحه ذاتها تشتعل وتحاول الفرار من جسده.. إنه ينزلق نحو.. نحو..

بدا (يزن) مهموما أكثر من أي وقت مضى وهو يحدق إلى طبق طعامه ويتناول منه ببطء شديد وبلا شهية حقيقية برفقة كل من (رايان) وابنته داخل الكهف وتحديدا في تجويف غرفة المعيشة.. وعلى النّقيض منه كانت (أدريانا) تأكل بشهيّة لا بأس بها في حين كان والدها يحدق إلى (يزن) بنظرات الأسى كل بضع ثوان وكأنه يهمّ بقول شيء ما يكسر كل هذا الجمود لكنه سرعان ما يُحجِم وينهمك قليلا في تناول طعامه قبل أن

يعاود اختلاس النظر.. ومن يستطيع لومه -أي (يزن)-بعدما رأى ما حدث لصديقه (إميل) وما تلاه من سقوط رأسه على صدره وسكون حركته دفعة واحدة بعد موجة صراخه التي تردد صداها في كل البلدة بل وتجاوزها حتى بلغَت أذنيه.. بدا له (إميل) ميّتا عندما حُلّت قيوده وسقط على وجهه كالحجر قبل أن يتعاون رجلان -بأمر من (غالياس)-على سحبه من ذراعيه ورأسه يتدلى للأسفل بارتخاء عجيب في حين كانت قدماه تخطان على الأرض إلى أن اختفى داخل أحد مباني تلك البلدة المشؤومة..

- لا يمكنك الجزم بموته ما لم تره منصوبا على الخازوق.

كان هذا رأي (أدريانا).. أما (رايان) فقد بدا متحفظا وهو يقول بحذر:

- أتّفق مع ابنتي ولكن من يدري.. ذلك الوحش لا يمكن التّنبُّؤ بأفعاله ولربما مات صاحبك بالفعل.. إن كان كذلك فأظن أن اللعين سيُنكّل بجثمانه بأبشع صورة حتى يكون عبرة لغيره.. ربما لم يستقر رأيه بعد على طريقة ترضي وحشيته ولهذا لم يُنصب صاحبك على الخازوق مباشرة.. من يدري.

لم يفت (يزن) التلميح المُبطّن في ما قاله (رايان) وإن تجاهل هذا التلميح عن عمد.. إن لم يكن يلمح بأنه لا فائدة ترجى من البقاء أكثر في

هذا العالم وأنه يجدر بهم العودة لعالمهم للأسفل فإلامَ يلمّح إذن؟ صحيح أنه -أي (يزن)- يميل بشدة إلى رأي (أدريانا) وبغض النظر عما يَبتَغيه (رايان) ولكن.. ماذا لو كان محقا؟ أليس هذا واردا ولو بفرصة ضئيلة؟ اللعنة.. لقد نجح (رايان) في بذر الشك والقلق في نفسه وها هو ذا يجلس إلى مائدة الطعام مهموما والوساوس تَصطرع في نفسه.. لاحظ (رايان) ذلك بعدما طال الصمت فتنحنح ثم قال في محاولة لإخراجه مما هو فيه:

- (يزن).

(يزن) بشرود:

- أهمممم...

(رايان):

- كنت أتساءل.. ألم.. ألم تلحظ شيئا غريبا.. لنقل شيئا مألوفا في تلك البلدة؟ شيء تشعر أنك رأيته في مكان ما من قبل؟

(يزن):

- مثل ماذا؟

(رايان):

- قلعة ذلك الوحش.. ألا تذكرك بشيء ما؟

(يزن) وهو يقلب طعامه بشرود كيفما اتّفق:

– بلى.. لقد لاحظت.. إنها تحمل ذات تصميم مباني عالمنا السفلي.

(رايان):

– ما رأيك في هذا؟

(يزن):

– ما رأيك أنت؟

(رايان):

– رأيي أن أجدادنا الأوائل قد استوحوا تصميم مباني عالمنا مما رأوه من مباني التيتانيين قبل أن ينزحوا إلى الأسفل.. ظننت هذا واضحا.

توقف (يزن) عن تقليب الطعام في طبقه متفكرا فيما سمعه قليلا ثم قال وهو يحدق في طبقه:

– هذا لا يبدو لي منطقيا.. إن كان أسلافنا قد هزموا أمام تلك الوحوش فمن البديهي أن ينبذوا كل شيء يذكرهم بما حدث.. أيبدو لك من المنطقي أن يقلدوا تصاميم بناء أعدائهم؟!

تبدّت الحيرة على (رايان) وكأنه لم يفكر بهذا من قبل في حين عقدت (أدريانا) حاجبيها باهتمام وهي تتابع حديثهما وتتناول طعامها بصمت..

(رايان):

- كلامك أقرب للصواب.. كيف فاتني هذا؟

تابع (يزن) وكأنه لم يسمع ما قاله (رايان):

- بعض الخبراء في عالمنا يرجحون أن من قام ببناء بلدتنا في الأسفل ليسوا من أسلافنا وليسوا بشرا من الأساس وقد استدلّوا بتلك الرسومات التي تملأ بلدتنا وتمثل أشكالا غير بشرية هي أقرب للوحوش والتي أرى الآن وبشيء من الخيال أنها تشبه إلى حد كبير سكان هذا العالم من الوحوش أو (التيتانيين) كما تطلق عليهم.. بل وذهب بعض الخبراء بعيدا وزعم أن عمر بلدتنا يفوق تاريخ نشأتنا مما يعني أن هناك مخلوقات عاقلة قد عاشت قبلنا هناك منذ زمن بعيد.. بالطبع قُوبل كلامهم بالسخرية واتهموا بالهَرطقَة.. كل من بالأسفل -بمن فيهم أنا وأنت- تعلمنا منذ الصغر أن أسلافنا كانوا قبائل بدائية متناحرة يقطنون الأنفاق المظلمة ويُغيرون على بعضهم البعض حتى أنهكتهم المعارك المستمرة وكادت تفنيهم.. عندها عقدوا صلحا دائما وعاشوا متحدين كمجتمع واحد يتنقلون بين الأنفاق حتى عثروا على أول تجويف هائل أقاموا فيه أول حضارة بشرية وهي بلدتنا كما نعرفها الآن.. الآن نعرف أن هذه الحكاية مُلفّقة.. لا أدري من نقش تلك الرسومات ولكن من الواضح أن من طمَسها كان يحاول إخفاء كل ما يتعلق بهذا العالم وبتاريخ البشر فيه سواء كانوا أسلافنا الأوائل أو ممن تلاهم من الأجيال اللاحقة وأظن

أنهم فعلوا ذلك لأنه برأيهم خير للجميع.. ولهذا لفّقوا تاريخا مُزوّرا لإخفاء الحقيقة.. وبالتفكير بالأمر أظنّ أنّ الخبراء مُحقّون في زعمهم أن من بنى عالمنا ليسوا بشرا.

مال (رايان) إلى الأمام متسائلا باهتمام:

- مُحقّون في زعمهم؟ كيف؟

رفع (يزن) عينيه نحو محدّثه قائلا:

- ماذا لو كان من سكنوا قبلنا هم ذاتهم سكان هذا العالم؟ أعني التيتانيين؟ أليس هذا أقرب للمنطق؟

ارتسمت الدهشة على وجه (رايان) في حين توقفت (أدريانا) عن تناول الطعام وهي تحدق إلى (يزن) باهتمام شديد..

مرت فترة قصيرة من الصمت ثم قالت (أدريانا) بحذر:

- كلامك غريب.. والدتي لم تذكر شيئا من هذا.

(رايان):

- هذا صحيح.

(يزن):

- ربما لأن هذا حدث منذ زمن بعيد جدا.. على الأرجح قبل مجيء أسلافنا إلى هذا الكوكب بكثير.. ربما بعض التيتانيين من كان يسكن

بالأسفل وليس الجميع بالضرورة.. لا أدري.. المهم أن تطابق تصاميم البناء وتلك الرسومات ليست مصادفة.. أسلافنا لم يبنوا عالمنا قط.

ساد الصمت بعدها لهنيهة ثم قالت (أدريانا) وقد استعادت برودها وهي تعود لتناول طعامها:

– إن صح ما قلته أيها العبقري فهذا لن يحدث فارقا ولن يغير من حقيقة كوننا نعيش في أرضهم وكوكبهم سواء سكنوا في الأعلى أم الأسفل.

تجاهلها (يزن) وهو يحدث نفسه بصوت مسموع ويحدق إلى الفراغ:

– لا أدري لم أشعر أن لهذا الأمر دلالةٌ ما لم ندركها بعد.. دلالة أكبر مما نتصور.

غمغم (رايان):

– ربما الأمر أبسط مما نتصور.. ربما لا توجد أي دلالة على الإطلاق.. من يدري.

(يزن) وهو مستمرّ في التحديق إلى الفراغ:

– أجل.. من يدري؟

- هل سيعيش؟

- لا أدري يا (ويل).. لا أدري.

قالتها (أليتا) وهي تغمس قطعة القماش المُلوّثة بمزيج من الدماء مع بقايا المسحوق الأصفر في دلو الماء قبل أن تعتصرها لتعاود تنظيف جراح الجسد المسجى على السرير المتهالك أمامها في حين استند (ويل) إلى جدار الغرفة وعقد ذراعيه على صدره وهو يراقب ما تفعله بوُجوم..

(ويل):

- أصدقك القول إنّ فرصة نجاتِه ضئيلة جدا.. خاصة مع ما تعرض له.. كلانا نعلم أن مسحوق نبتة الكالاز قاتل لمن كان في مثل حالته.. لكن عليك المحاولة فمصيرك مرهون بمصيره.. وأنت تعرفين ما سيفعله السيد المعظم إن مات بين يديك.

سرت القشعريرة في جسد (أليتا) وانقبض قلبها رُعبا لدى سماعها لآخر جملة نطقها (ويل).. ابتلعت ريقها ثم واصلت عملها وهي تقول بصوت مرتجف:

- أعلم يا (ويل).. إني أبذل قصارى جهدي.

لاذَ (ويل) بالصمت وهو يتابع عملها.. شعور غريب يَنتاب (أليتا) في هذه اللحظات وهي تنظف الجسد القوي الراقد على ظهره.. شعور

هي نفسها لا تعرف كيف تصفه.. لا.. ليس الخوف من سيدها.. إنه شعور آخر ومختلف.. قلبها ينبض بعنف.. بقوة.. شيء ما يتحرك في قلبها وهي تتأمل هذا الشاب الوسيم.. الحقيقة أن هذا الشعور لم يكن وليد هذه اللحظات.. بل كان وليد اللحظة الأولى التي وقعت فيها عينها عليه عندما جلبوه إلى غرفتها في الليلة الماضية.. هل هو..؟ لا.. إنها لا تريد هذا ولن تعترف به.. هي التي ظنت أن قلبها وكل أحاسيسها قد ماتت منذ.. منذ.. توقفت عما تقوم به وأطرقَت برأسها وهي تنظر إلى الأسفل بعين ثابتة لا تطرِف.. كل من يراها في هذه اللحظة سيدرك بسهولة أنها تجترّ كل أحزانها وذكرياتها المريرة دون أن تذرف دمعة واحدة.. حتى لو كان من يراها مَعتوها أو أبلهًا أكثر من اللازم مثل (ويل) الذي شعر بالأسى لحالها.. هو يعرف سبب ألمها ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ كل ما يسعه فعله الآن هو مغادرة الغرفة.. هي بحاجة إلى البقاء لوحدها الآن بغض النظر عن الشاب الراقد أمامها والذي يكاد يجزم أنه لن ينجو.. ما لم يدركه وهو يغادر الغرفة أنها لم تكن تجترّ أحزانها فقط.. بل وخوفها أيضا.. خوفها من مصيرها الأسود إن لم يستيقظ هذا الشاب.. إنها تكره الخازوق.. وتخشاه بشدة.. لهذا ستفعل أي شيء لتجنب هذا المصير.. أي شيء.. هل تهرب؟ هذا مستحيل مع حراسة البلدة المشددة.. ماذا عن الانتحار؟ أجل.. ليس أمامها خيار آخر.. أي ميتة آخرى تظل أهون من الموت بالخازوق.. ماذا عن قطع شرايين معصمها؟ فكرة جيدة تضمن

لها موتا دون عذاب.. لن يضيرها بعد إن قام سيدها بتعليق جثتها على الخازوق أو حتى حرقها.. أجل.. ستفعلها إن لم يَنجُ هذا الشاب.. كانت غارقة في هذه الخواطر السوداء عندما أحسّت بحركة خافتة.. رفعت رأسها لتتسع عينها الوحيدة ذهولا.. وفرحا.. هذا الشاب.. إنه يتأوه.. يحرك رأسه.. يفتح عينيه ببطء وينظر إلى ما حوله ثم إليها بنظرات خاوية منهكة.. لقد نجت!

– ما.. ما الذي حدث؟

قالها وهو يحاول النهوض.. لكن وجهه تقلّص ألما.. أقصى ما استطاع فعله هو أن اعتدل جالسا على سريره وهو يتأمل آثار السياط على جسده ويتحسّسها بكلتا يديه وقد تذكر ما حدث له.. تمتم بسبّة غير مفهومة ثم حاول الوقوف على قدميه لكنه سرعان ما تأوّه ألما بصوت مكتوم في حين هبّت (أليتا) من مكانها ووضعت يدها على كتفه برفق لتحثّه على البقاء جالسا وهي تقول:

– على مهلك.. إصاباتك لم تُشفَ بعد.

أجفلت عندما ضرب يدها بجفاء قائلا:

– أعلم ذلك أيتها الخرقاء.

تقلص وجهه وأغمض عينيه ألما؛ وكأن كل حركة تصدر منه يتبعها ألم لا يحتمل.. تراجعت (أليتا) بصمت مطرقة رأسها إلى الأسفل بضيق..

ما الذي فعلته حتى يعاملها هكذا؟! مضت لحظات وهو مغمض عينيه ويتنفس بعمق وكأنه يحاول التكيف مع الألم الذي ينبض من جراحه.. فتح عينيه وتلفت حوله باحثا عن شيء ما..

ترددت (أليتا) للحظة ثم سألته:

- أ.. أتبحث عن شيء؟

(إميل) بجفاء لا مبرّر له:

- أين قميصي؟

فتحت درج المنضدة المجاورة لسريره والتقطت منه القميص الأسود وناولته (إميل) قائلة:

- ها هو ذا؟

انتزع قميصه من يدها بغلظة ليرتديه بصمت وإن لم يتمكن من إغلاق أزراره بسبب تمزقه من منطقة الصدر مما أبقى معظم صدره مكشوفا.. كادت (أليتا) أن تقترح عليه استبدال ملابسه بملابسهم البنية لكنها تراجعت والتزمت الصمت ليقينها من ردة فعله.. على الرغم من معاملته السيئة لها إلا أن ذلك الشعور الغامض لم يفارق قلبها طوال الوقت.. تكاد تقسم أنها تشعر بالدفء والراحة وهي تنظر إليه! كل شيء في هذا الشاب مختلف.. طريقة كلامه على الرغم من فَظاظته.. ملامحه

الوسيمة.. وحتى اسمه الذي يعرفه الجميع الآن.. (إميل).. اسم غير مألوف لكنه جميل وذو نغمة ساحرة لك..

- لم تُحدقين بي هكذا؟! هل أصابك العتَه؟

انتفضت بحدّة وقد انتبهت للتوّ إلى أنها أطالت النظر إليه..

(أليتا) بارتباك وهي تُشيح بوجهها:

- لا.. لا شيء.. لقد شردت قليلا لا أكثر.

ظل يرمقها بثبات قليلا ثم قال:

- ذلك المسخ.. هل أمرك بالعناية بي؟

تبدى عدم الفهم عليها وهي تلتفت إليه متسائلة باستغراب:

- مسخ؟! أي مسخ؟ ما الذي تعنيه بالضبط؟

- يا لغبائك.. سيدك الوحش اللعين.. هل أمرك بالوقوف على خدمتي؟

اتسعت عينها ذهولا وصعقَ وجهها لهولِ ما سمعت قبل أن تتمالك نفسها وترفع إصبعها منذرة وتقول بصوت أرادته صارما لكنه خرج مهزوزا ضعيفا:

- إياك.. إياك والحديث عن سيدي المعظم هكذا وإلا..

قاطعها بحدة:

- وإلا ماذا؟ ها؟

لم تُحِر جوابًا فالتزمَت الصّمت..

(إميل):

- لم تُجيبي على سؤالي بعد؟

مرت لحظة صمت ثم تمتمت بخفوت:

- أجل.. لقد فعل.

نظر إليها من رأسها إلى أخمص قدميها ثم قال بلهجة آمرة:

- إني أشعر بالظمأ.. اجلبي بعض الماء.. هيا.

لكن (أليتا) لم تتحرك من مكانها..

(إميل) بصوت أعلى:

- هل أصابك الصّمم؟ قلت اجلبي لي بعض الماء.

لم تستطع كتمان ضيقها أكثر فقالت:

- أنت.. ما الذي فعلته لك؟ لمَ تعاملني هكذا؟

رفع (إميل) حاجبَيه بتساؤل:

- أعاملك هكذا؟ كيف هكذا؟ أخبريني.

(أليتا) باستنكار غاضب:

– وتَســألني كيف هكذا؟! كل هذا الجفاء والنّعوت وتقول كيف هكذا؟! ماذا عن بعض الاحترام؟

زفر (إميل) بنفادِ صبر وقال:

– اسمعيني جيدا أيتها الحمقاء.. لست رائقَ البال حتى أدخل معك في جدال عقيم..

لوّح بأصبعه في وجهها متابعا:

– والآن نفّذي ما أمرتك به وإلا..

قاطعته بطريقة غير لائقة:

– وإلا ماذا؟

لاح شبح ابتسامة خبيثة على شفتيه وهو يقول:

– وإلا فسأخبر سيدك المسخ.. فهو يريدني مُعافًى حتى يطيل عذابي كما تعلمين.. ومن يدري ما سيفعله بك حينها.

اللّعين.. إنه محق.. رمقته بنظرة صامتة طويلة ثم غادرت الغرفة دون أن تنطق بحرف واحد.. ما إن أغلقت الباب خلفها حتى تلاشَت ابتسامته وتحامل على نفسه ليقف على قدميه وهو يتأوه ألما ويتمتم

بكلمات غاضبة.. الألم ينبض من كل موضع طالته سياط ذلك المسخ.. ما كاد يخطو خطوتين نحو النافذة التي تم إصلاحها حتى شعر بذلك الثقل الذي يقيد حركة كاحلِه الأيسر.. ألقى نظرة متفحصة على كاحلِه وانحنى يتحسّس السلسلة المعدنية الملتفة بإحكام حولها وتابع ببصره امتداد السلسلة القصير ليكتشف أن طرفها الآخر ينتهي بكرة معدنية ثقيلة أسفل سريره وإن برزت قليلا للخارج مع خطواته.. كان عليه أن يتوقع شيئا كهذا.. ولكن كيف لم يشعر بها طوال الوقت؟! أطلق سبّةً حانقة وهو يحاول تحرير كاحله ولكن بلا فائدة.. هكذا عاد ليجلس على طرف سريره وأغمض عينيه وهو يفرك جبهته.. إنه بحاجة إلى تصفية ذهنه للتفكير فيما ينبغي عمله للخروج من هذا المأزق.. انفتح باب الغرفة بغتةً ليرفع عينيه نحو القادم الذي لم يكن سوى (أليتا) التي تقدمت ووضعت صحفة تحوي طبق طعام غريب مع كأس ماء على المنضدة المجاورة لسريره ثم حملت دلو الماء مع قطعة القماش الملوثة بدمائه نحو زاوية الغرفة قبل أن تجلس على طرف سريرها لتراقبه بصمت.. ارتشف جرعة كبيرة من كأس الماء ثم تأمل الطعام بنظرات فاحصة.. إنه أقرب لشيء أو عدة أشياء مَهروسَة.. رائحته طيبة.. التقط الملعقة غريبة الشكل وقلّب الطعام قليلا قبل أن يتناول لقمة صغيرة بحذر.. طعمه غريب ولكنه مقبول.. لا بأس به..

(أليتا) بعد فترة قصيرة من الصمت:

- اسمك (إميل).. أليس كذلك؟

توقف (إميل) عن تناول الطعام ورفع عينيه نحوها باستغراب.. هو لم يخبر أحدا باسمه عدا...

تابعت:

- لقد سمعك أحد العمال وأنت تخبر السيد المعظم أثناء مروركما بالحقول.. الجميع يعرف اسمك الآن.

مرت لحظات قبل أن يعود لتناول طعامه قائلا ببرود:

- تهانينا.

(أليتا):

- لقد حذرتك من محاولة الهرب لكنك لم تُنصت إلي.. وها أنت ذا تدفع الثمن.

(إميل):

- ...

(أليتا):

- أتعلم.. إنها لمعجزة أنك نجوت من مسحوق الكالاز.. على قدر ما أعلم نادرا ما ينجو منه أحد وإن نجا فإنه يفقد عقله.. ظننا جميعا أن

السيد المعظم قد قرر إنهاء حياتك بسبب جُرأتك.. لكن من الواضح أن سيدي يعرف جيدا ما يفعله.

تجاهلها (إميل) تماما فتابعت بفضول:

- أخبرني لم لا تحمل وسما مثلنا؟ ألست عبدا لأحد السادة؟ ألا يَسِم سيدك عبيدَه؟ أو أن والديك قد فرّا من أسيادهم فترعرعت بعيدا عن العبودية؟!

(إميل):

- ...

(أليتا):

- أتعلم ما الذي يُحيرني بأمرك؟ جهلك بأبسط الأمور.. أنت لم تعرف سيدي المعظم عندما ذكرته أمامك وهو أحد المعظمين الأربعة.. هل تعرفهم؟ أشكّ في ذلك..

سكتت قليلا ثم أردفت وهي تنظر إليه بعين فاحصة فضولية:

- كل شيء فيك مختلف.. وكأنك.. وكأنك من عالم آخر.. هل أنت حقا من عالم آخر؟ أخبرني من أين جئت؟

فرغ (إميل) من طعامه وتجرع ما تبقى من كأس الماء ثم أزاح كل هذا جانبا والتفت إليها وسألها:

- ما اسمك؟

- ها؟

- قلت لك ما اسمك؟

(أليتا) بارتياب:

- (أليتا).

تنهد (إميل) وهو يرمقها بثبات وقال:

- حسنًا.. أخبريني يا (أليتا).. هل أنت ثرثارة دوما هكذا؟

- آه.. لا.. لست..

قاطعها بغِلظة:

- هل من عادتك طرح الكثير من الأسئلة؟ هل من عادتك حشر أنفك القذِر في شؤون الآخرين؟

- لا.. أنا لست ك..

قاطعها مجددا بخُشونة:

- إذن أغلقي فمك الكَريه وكفّي عن طرح الأسئلة.

احمر وجهها بمزيج من الإحراج والغضب و.. دوت طرقات على الباب في هذه اللحظة.. التفتت (أليتا) نحو الباب باستغراب.. هذا غريب.. منذ متى تطرق الأبواب في هذه المقاطعة؟! من يكون الطارق؟ (ويل)؟ (تشيه)؟ مستحيل.. فكلاهما يدخلان مباشرة ودون استئذان.. ليس هما فحسب بل كل سكان المقاطعة.. فمن القادم إذن؟! لاحظ (إميل) استغرابها وتوترها.. الباب يطرق مرة أخرى بإلحاح.. تقدمت (أليتا) وفتحت الباب بحذر.. تجمدت في مكانها وهي تحدق بعين مَدهوشَة إلى كل من (أورغانا) و(باتار) اللذان ناهزَ ارتفاعهما ارتفاع الباب ذاته.. مرت لحظات من الصمت قبل أن تبتسم (أورغانا) قائلة:

- مرحبا.. أحم.. هل يمكننا الدخول؟

تبدى الذهول وعدم التصديق على (أليتا) وكأن ما سمعته شيء خارق للعادة.. معها كل الحق فمنذ متى كان التيتانيون يستأذنون من العبيد؟! كررت (أورغانا):

- هل يمكننا الدخول؟

أفاقت (أليتا) من ذهولها وهي تهزّ رأسها بالإيجاب وتتنحى جانبا..

"شكرا". قالتها (أورغانا) وهي تدلف الغرفة ويتبعها (باتار) بنظراته الصارمة.. لاحظ (إميل) أن (أليتا) صعقت عندما سمعت كلمة ((شكرا))! وكأنها المرة الأولى التي يشكرها أحدهم.. تركزت أنظار

(إميل) المتوجسة على كل من (أورغانا) و(باتار) وتحفّز في جلسته.. لقد قدِما من أجله ولا شك.. وقد كان حدسه صادقا.. فقد جلست (أورغانا) على المقعد الذي كانت تحتله (أليتا) وأخذت تتأمله بفضول مقيت لم يشاركها فيه صاحبها ذو الوجه المتجهم.. ما الذي يريدانه؟! إنهما من بني جنس مُعذّبه فهل هو من أرسلهما؟ ولماذا؟

تنحنحت (أليتا) وقالت وهي تهم بمغادرة الغرفة:

- المعذرة.. سأعود إلى العمل.

(أورغانا) دون أن تلتفت إليها:

- إلى أين؟ لقد انتهى وقت العمل كما أن الشمس توشك على الغروب.

عقد (إميل) حاجبيه عندما سمع جملة ((الشمس توشك على الغروب))! ما الذي تعنيه هذه الكلمات؟!

تردّدت (أليتا) قليلا ثم كرّرت وهي تغادر بخطوات سريعة:

- سأعود لاحقا.

حل الصمت على الغرفة بعد مغادرة (أليتا)..

(باتار) يقف خلف سيدته عاقدًا أذرعه الأربعة على صدره وهو يتطلع إلى (إميل) بصرامة لا مبرر لها.. في المقابل تطلّع إليه (إميل)

بنظرات لا تختلف كثيرا عن نظرات عالم الأحياء الذي اكتشف للتوّ مخلوقا جديدا قبل أن يعود ببصره نحو (أورغانا) التي لم تتوقف عن إمعان النظر إليه وكأنها تتفحص كل شِبر منه بفضول عجيب!

(أورغانا) بصوتها الخافت الهادئ:

- حسنا.. هل.. هل يمكنني الحديث معك؟

مرت لحظات من الصمت و(إميل) يرمقها بجمود حتى تصورت أنه لم يسمعها فهمّت بإعادة السؤال لكن (إميل) سبقها وقال بحذر:

- هل أرسلكما ذلك المسخ؟

تبدى الاستغراب وعدم الفهم على (أورغانا) في حين قطّب (باتار) جبينه باستِهجان..

(أورغانا):

- ذلك المسخ؟ من تقصد ب ((ذلك المسخ))؟

(باتار) ببطء دون أن تَحيد نظراته الصارمة عن (إميل):

- سيدتي.. أظنّه يقصد (المُخوزِق).

رفعت (أورغانا) حاجبين لا وجود لهما ونقلت بصرها إلى (باتار) ثم إلى (إميل) ثم لاحَ شبح ابتسامة هادئة على شفتيها الرفيعتين وهزت رأسها بالنفي قائلة:

- لا علاقة لنا بـ(المخوزق) إن كان هذا ما تعنيه.

(إميل) بتهكُّم:

- حقا؟!

(أورغانا):

- أجل.. أُؤكّد لك ذلك.

(إميل):

- أنتما من فَصيلة ذلك المسخ ومن السّذاجة أن تتصوري ولو للحظة أني أصدقك.

(أورغانا) بهدوء:

- لنفترض أنك محق.. فلم تعتقد أن (المخوزق) قد يرسلنا إليك؟

(إميل) وهو يتظاهر بالتفكير:

- اممم دعيني أفكر.. ربما لإقناعي بما عجز هو عنه.

(أورغانا):

- لنفترض مجددا أنك محق.. فما الذي يدفعك لعدم الخضوع لـ(المخوزق)؟

(إميل) بلا مبالاة:

- ولماذا أخضع لمسخٍ مثله؟

(باتار) بصوته المتضخّم:

- لأنه سيدك بموجب القانون.

عقد (إميل) حاجبيه وردد باستغراب:

- بموجب القانون؟! أي قانون؟

تفجر الذهول على ملامح (أورغانا) وتبادلت نظرات الدهشة مع (باتار) الذي قطّبَ جبينَه أكثر قبل أن تعود ببصرها إلى (إميل) متسائلة:

- أي قانون؟ أنت تمزح أليس كذلك؟

(باتار) بصرامة:

- هل تحاول العبث معنا أيها العب.. البشري؟ هل تحاول أن..

- مهلا (باتار).

قاطعته (أورغانا) ورفعت كفّها بإشارة له ليسكت وشردت ببصرها وكأن فكرة ما تَختمر في ذهنها ثم رفعت عينيها نحو (إميل) لتسأله:

- الإمبراطور الأعظم.. ما اسمه؟

(إميل):

- ماذا؟

(أورغانا) بإصرار:

- أجبني.. ما اسم الإمبراطور الأعظم؟

تبدّت الحيرة على وجه (إميل) للحظة لم تفُت على (أورغانا) لكنه سرعان ما تدارك نفسه ورفع حاجبيه بدهشة مصطنعة قائلا:

- أنت تمزَحين بسؤالك هذا.. أليس كذلك؟

(أورغانا):

- لا تُراوغ وأجب عن السؤال.

(إميل) بلا مبالاة:

- لست مضطرا ولن أجيب عن أسئلة أجوبتها بديهية والكل يعرفها...

ثم أشار نحو الباب وتابع بجفاء:

- والآن اخرجي فلست أرغب بمتابعة هذا الهراء.

أنهى كلامه وهو يستلقي على فراشه ويتوسد كفّيه مُحملقا نحو السقف..

زمجر (باتار) بغضب وتقدم خطوتين نحو (إميل) لكن (أورغانا) مدت ذراعها لتمنعه وهي مستمرة في التحديق إلى (إميل) متجاهلة ما قاله قبل أن تتابع أسئلتها بإصرار وهي تراقب تقاطيع وجهه بتَمعُّن:

- هل تعرف ما حدث قبل حوالي 1500 عام بيننا وبين فصيلتك؟

(إميل):

- ...

(أورغانا):

- هل تعرف إلى أي كوكب يرجع أصل بني جنسك؟

لم يُبدِ أي استجابة لأسئلتها واستمر بالتحديق إلى السقف بوجه جامد لا يعكس ما يعتمل في داخله.. تراجعت (أورغانا) في جلستها وهي تحدق إلى (إميل) بعينين غير مصدقتين وقالت بأنفاس مبهورة:

- لا أصدق.. أنت تجهل كل ما يعرفه أي طفل في هذا الكوكب.. حتى لو كنت ابن أحد الفارين فلا بد أن يخبرك أبواك بما يعرفه الجميع على الأقل.

(إميل):

- اقنعي نفسك بما تَشائين.. ما الذي تُريدينه الآن؟

تدخل (باتار) قائلا:

- سيدتي ترغب بمعرفة كل شيء عنك.

(إميل):

- لم أُوجّه كلامي إليك.

احتقن وجه (باتار) حنقا وزمجر وهو يهم بالاندفاع نحو (إميل):

- كيف تجرؤ أيها ال....

هتفت (أورغانا) بصرامة:

- (باتار) اهدأ.

توقف (باتار) وهو ينفخ بسخط قبل إن يصل إلى (إميل) الذي بقي ساكنا في رقدته وكأنه واثق من سلطة معذّبه على الجميع بمن فيهم هذين..

امتثل (باتار) للأمر وتراجع بضع خطوات دون أن يرفع عينيه الحانقتين عن (إميل).. استعادت (أورغانا) هدوءها وصوتها الخافت وهي تقول ل(إميل):

- كما قال (باتار).. أريد معرفة كل شيء عنك.. لنقل أن الفضول يَنتابني بخصوصك.. كلانا -أنا وأنت-نعلم أنك تُراوغ بذكاء كما نعلم

أنك تخفي حقيقتك لسبب ما زلت أجهله.. أود أن أعرف من أين جئت؟ ولم لا تحمل وسما كباقي البشر؟! الغموض يحيط بك كما ترى ولكم أرغب بأن أميط اللثام عن كل هذا الإبهام.. أعدك بشرفي بأن ما ستخبرني به لن يغادر هذه الغرفة ولن يغادرني أنا و(باتار) حتى مَماتنا.. ماذا قلت؟

مرت هنيهة من الصمت ثم قال (إميل) دون أن يلتفت إليها:

- ألن تكفي عن هذا الهراء؟ اغربي عن وجهي.

في اللحظة التالية شعر (إميل) بيدين ضخمتين تقبضان على قميصه بخشونة وترفعانه لأعلى لتصطدمَ عيناه المتّسعتين لهول المفاجأة بعيني (باتار) المشتعلتين غضبا وهو ينفخ لتلفحَ أنفاسه الحارة وجه (إميل) وتزكم أنفه.. قال (باتار) من بين أنفاسه:

- أيها العبد الوضيع إياك أن...

(أورغانا) وهي تقبض على ذراعه:

- (باتار) يكفي هذا.

(إميل) بغضب بعدما استوعب المفاجأة:

- أبعِد يديك القذرتَين عني أيها المسخ النجِس.

هتفت (أورغانا):

- (باتار) دعْه.

(باتار):

- سيدتي يجب أن ألقّن هذا العبد درسا.. لقد..

قاطعته (أورغانا):

- إياك يا (باتار).. يكفيه ما ناله من (المخوزق).

(باتار) دون أن يرفع عينيه الغاضبتين عن (إميل):

- المعذرة سيدتي لكن من الواضح أن ما ناله لم يكن كافيا لتأديبه.

(أورغانا) بصرامة:

- إن فعلت ما في رأسك فستجلب علينا سخط (المخوزق) وهذا آخر ما نريده الآن.. هيا تعقّل.

(إميل) بلهجة ساخرة على الرغم من دقة الموقف:

- استمع إلى سيّدتك أيها المسخ.. من الواضح أنها تتحلى بالحكمة والعقل على...

سكت للحظة وهو يرمق (باتار) من أعلى إلى أسفل وأضاف بابتسامة متهكمة:

- على خلاف البعض.

بدا للحظة أن (باتار) سيضرب رأسه في أقرب جدار لكن (أورغانا) تداركت الأمر وهتفت بلهجة آمرة لم يعهدها فيها من قبل وهي تضغط على ذراعه:

- (باتار).. أنزله حالا.. إني آمرك.

مرت لحظات و(باتار) ما زال ممسكا بـ(إميل) وكأنه محتار بين واجبه تجاه سيدته وبين إطفاء غضبه.. لكنه سرعان ما حسم أمره وترك (إميل) بغتة ليهوي على فراشه بصوت مسموع.. كتم (إميل) تأوُّهاته في حين قال (باتار) وقد بدأت ملامحه تلين:

- من أجلك فقط سيدتي.

(إميل) باستفزاز متعمّد:

- ولد مطيع.

وقبل أن يحتد الموقف ثانية وقفت (أورغانا) بينهما وواجهت (باتار) وقالت له بحزم:

- (باتار) دعنا لوحدنا.

(باتار):

- ولكن سيدتي..

(أورغانا) وقد استعادت هدوءها:

- أرجوك دعنا وحدنا.. سألحق بك عندما أنتهي.

لانت ملامحه أكثر وبدا شاردا للحظات وهو يتأمل الرجاء في عينيها ثم استدار مغادرا الغرفة وهو يقول:

- أمرك سيدتي.

تابعته (أورغانا) ببصره حتى أغلق الباب ثم تنهّدت وعادت لتجلس على مقعدها أمام (إميل) قائلة:

- قد يبدو (باتار) عنيفا لمن لا يعرفه ولكن صدقني إنه يحمل قلبا طيبا.

(إميل) بسخرية وهو يستلقي على ظهره ويتوسد كفيه ويعقد ساقيه ناظرا إلى السقف:

- واضح جدا.

تأمّلته قليلا ثم قالت:

- ها نحن لوحدنا الآن.

- وإن يكن.

- يُمكنك الحديث معي لوحدي.. وكما وعدتك لن أخبر أحدا بما ستخبرني به.

– ليس لدي ما أقوله كما أني أخبرتك أن تغربي عن وجهي.. ألا تفهمين هذا أيتها المسخ؟

تجاهلت (أورغانا) إهانته وقالت بهدوء كمن يكلم طفلا:

– لا أدري لم تصرّ على تَسميتِنا بالمُسوخ! ليكن في علمك أننا تيتانيّون.. أي أننا سكان هذا الكوكب.. كوكب (تيتان).. ومن الجلي أنك تجهل حتى هذه المعلومة البسيطة بدليل أنك تطلق علينا هذا اللفظ الذي لم يطلقه أحد سواك.

اللعينة.. إنها محقة.. عليه أن يتدارك هذا الخطأ.. إنه لا يفهم شيئا.. تيتانيّون! كوكب (تيتان)!

قال بلا مبالاة:

– أنا أراكم مسوخا.. هذا رأيي الذي لن أحيدَ عنه.. والآن اخرجي فلست أرغب بالحديث مع مسخ مثلك.

– ألن تخبرني باسمك على الأقل؟

– لا.

(أورغانا) بابتسامة نصر:

– أعرف اسمك.. (إميل).. لقد سمعت البعض يتهامسون به.

(إميل):

- ...

(أورغانا):

- حتى اسمك غير مألوف.. لم أعرف أحدا من البشر يحمله من قبل.

(إميل):

- ...

(أورغانا):

- ألا ترغب بمعرفة من أكون؟

(إميل) بمَلل وهو مُستمرّ بالتحديق إلى السقف:

- هل أبدو لك مهتما حتى بالنظر إلى وجهك؟

تجاهلت إهانته للمرة الثانية وقالت بابتسامة صافية:

- أنا (أورغانا).. مرافقي اسمه (باتار).. وأنت؟

(إميل) بنفاد صبر:

- أخبريني أنت.. هل الغباء والعَتَه والحَماقة صفات سائدة بين المسوخ؟

أطلقت (أورغانا) ضحكة مرحة مما أثار استغراب (إميل) وهو يلتفت إليها مَدهوشًا.. ضحكة لا يمكن أن تصدر من المسوخ لو كانت المسوخ تضحك.. ما الذي دهاها؟! هل فقدَت عقلها؟!

(أورغانا) بعد أن أنهَت ضحكتها:

- أتعلم.. لم يسبق أن تلقيت كل هذا الكمّ من الإهانات من بشري قط.. الآن فهمت سبب لجوء (المخوزق) لتعذيبك.. لقد بدأت تروقُني بالفعل.

سكتت قليلا لترى أثر كلماتها عليه.. لكنه ظل يرمقها بنظرة من طراز ((وماذا بعد؟!))... تنهدت بعُمق وهزّت رأسها قائلة:

- لقد فهمت.. (باتار) كان محقا.. أنت لن تُخبرني بشيء.

(إميل) وهو يعود ببصره نحو السقف قائلا بجمود:

- لا أصدق أنني سأرتاح منك أخيرا.

(أورغانا) بحماس مفاجئ أقرب لحماس الأطفال:

- إن كنت لن تخبرني بقصّتك فما رأيك بسماع قصتي؟

أشارت إلى خدها الأيسر وتابعت:

- ألم تلحظ هذا الوسم؟ ألا تريد معرفة سرّ وجودي هنا مع (باتار)؟

(إميل) بوجه خالٍ من التعابير:

– بلى.. الفضول يذبحني كما تعلمين.

أطلقت ضحكة قصيرة مما أغاظ (إميل) ثم قالت وهي تعتدل في جلستها:

– كم أنت مُسلٍّ.. حسنًا.. أنا واثقة من أنك تجهل معنى هذا الوسم الذي يحمله جميع بني جنسك باستثنائك أنت.. ولكي تفهم سرّ هذا الوسم وسبب وجودي هنا لا بد أن أحكي لك ما حدث قبل أكثر من 1500 عام مضت فهذا سيفسر لك الكثير.. ما رأيك؟

– ستحكين لي ما أعرفه ويعرفه الجميع؟! أليس لديك إحساس؟! ألا تشعرين أنك مُملّة إلى حد لا يصدق؟

(أورغانا) بخبث:

– لكننا أنا وأنت نعلم علم اليقين أنك لا تعرف شيئا.

(إميل) وهو ينقلب على جنبه مديرا ظهره لها قائلا بجفاء:

– لقد اكتفيت من سَخافاتك.. لن أرد عليك بعد الآن.

(أورغانا) بعناد طفولي:

– ليكن.. لكني لن أغادر حتى تستمع إلي.. فأنا بحاجة إلى من يستمع إلى ما سَأرويه.. وأريدك أن تكون هذا الشخص.

(إميل):

- ...

(أورغانا):

- حسنًا.. أنصت إلي.. سأحكي لك كل شيء منذ البداية.

قالتها ثم أخذت نفسا عميقا وبدأت تحكي دون أن تنتظر اعتراضه..

هل نحن سَواسية؟

بدأت (أورغانا) حديثها بسرد ذات الرواية التي عرفها (يزن) منذ الليلة الفائتة.. كانت تريد رؤية ملامح وجه (إميل) أثناء سردها.. لغة الجسد لا تكذب.. هذا ما تعلّمته منذ زمن لكنه -الخبيث-أدار ظهره لها.. ربما لهذا السبب تحديدا! خطر لها أن تمد عنقها قليلا لتختلس النظر إلى وجهه دون أن يلاحظ لكنها سرعان ما تخلّت عن المحاولة لأنها شعرَت أنه سيَنتبِه لمحاولتها وعندها ستفسد كل شيء.. هكذا واصلت السرد بإصرار عجيب.. أخبرته كيف تسير الأمور على الكوكب منذ هزيمة البشر.. شرحت له معنى الوسوم التي يحملها البشر والتي ترمز إلى الاستعباد والتملك -للأسف على حد قولها-كما تشير إلى المالك -حاكم المقاطعة-ومكان مقاطعته من خلال شكل ومكان الوسم.. على سبيل المثال الوسم على الخد الأيسر يشير إلى المقاطعات الغربيّة في حين أن وسم الجمجمة الحيوانية ذات القرون الأربعة يشير إلى حاكم المقاطعة (غالياس) وهكذا.. ذكرت له أن لكل حاكم مقاطعة السلطة المطلقة في تقرير كيفية التخلص من البشر العاجزين عن العمل والتي عادة تتم بوسائل أقل ما يقال عنها أنها وحشية ولا تمت للتحضّر بصِلة.. أبسط مثال هو حاكم هذه المقاطعة الذي تميز عن غيره باستخدام ((الخازوق)) للتخلص من عبيده العاجزين والقادرين دون تمييز ومنها اكتسب سمعته الرهيبة ولقبه الذي اشتهر به.. (المُخوزِق)! لم تَنسَى أن تذكر له أن هذه المقاطعة هي الوحيدة التي جميع سكانها من البشر -باستثناء حاكمها-

وأن أرضها كانت من الأراضي التي استوطنها أسلاف البشر الحاليين وأقاموا حضارتهم عليها قبل هزيمتهم.. من الجدير بالذكر أن (المخوزق) قد اختار هذه الأرض لإقامة مقاطعته بطلب شخصي منه إلى الإمبراطور الأعظم وذلك لكي يتسنى له الانتقام من البشر -لأن أحدهم وكما يعلم الجميع قد اشتبكَ معه أثناء الحرب القديمة ونسَفَ نفسه فيه ليخلف إصابة تركت أثرها على نصف جسده الأيسر وطالت أعضاؤه التناسلية مما أعطبَها لتجعله عقيما غير قادر على الإنجاب أو حتى الزواج وهذا ما أورثه حقدا لا ينطفئ على البشر..

لم يفُتها ذكر ((الأساطير الأربعة)) وما تعرفه عنهم...

لم يُلقِ (إميل) بالا لما قالته عنهم حينها ولم يصدق قصة عمرهم المديد...

تنهدت (أورغانا) ثم قالت وهي تراقب تنفّسه المنتظم من ظهره:

- مقدمة طويلة أليس كذلك؟ أعلم.. لكنها ضرورية حتى يسهل عليك فهم قصّتي وسبب وجودنا أنا و(باتار) هنا.

سكتت قليلا وشردت ببصرها وكأنها تتهيّأ لما ستحكيه ثم أخذت نفسا عميقا وقالت:

- لا أدري إن كنت ستصدق ما سأقوله.. فأنا لست سوى مسخ شرّير بنظرك.. لكن صدق أو لا تصدق.. أنا أتعاطف مع البشر.. أجل..

أتعاطف معكم وأشفق عليكم من معاملة بني جنسي السيئة لكم.. لقد نشأ كل بني جنسي على احتقار البشر والنظر لهم بدونية.. تماما كما تنظر أنت إلى الحشرات.. نَشؤوا على أنهم هم السادة والبشر هم العبيد يحق لهم التصرف بهم كما شاؤوا.. بالطبع لم أكن أنا مُستثناة من كل هذا مع فارق أني نشأت في عائلة ثرية جدا... فإن كان أقل التيتانيين شأنا ينظر إلى البشر بنظرة التملك ويمارسها فما بالك بالعائلات الثرية جدا؟! يمكنك تخيل كيف نشأت في عائلة كهذه.. منذ صغري وأنا أشهد ما يمارسه أفراد أسرتي من ظلم وقسوة بحق الخدم في قصرنا الكبير.. قد تستغرب هذا ولكني كنت وما زلت أرى أن أفعال أسرتي بل وكل التيتانيين حقيرة.. هل الاعتداء على من لا حول له ولا قوة واستخدامه شيء يدعو إلى التباهي والفخر؟! بالطبع لا.. فهذه الأفعال جديرة بشُذّاذ الآفاق والحقراء وإن كانوا من عائلتي.. قد تتساءل كيف تأتّى لي أن أتعاطف مع البشر؟! ومنذ متى؟ دعني أعترف لك أني لم أكن أختلف عن أي فرد من أفراد أسرتي.. كنت أستمع إلى كلامهم عن دونية البشر وقذارتهم وتحذيراتهم التي لا تنتهي بأن الجنس البشري رجسٌ ونجس ولهذا هم ملزمون بارتداء القفازات وقت العمل.. وإن حصل ولمست أحدهم فعليّ بالاستحمام جيدا! كنت مثلهم أو هكذا بدوت.

سكتت قليلا لتلتقط أنفاسها وأغمضت عينيها وكأنها تسترجع ذكرى قديمة ثم فتحتهما وتابعت بشرود:

– كنت فضولية إلى حد لا يصدق منذ طفولتي.. ما لم تعلمه عائلتي وقتها هو أني كنت أتسلّل خِلسة إلى الملحق الخاص بالخدم عندما ينام الجميع.. كنت أريد الحديث مع البشر بعيدا عن الأعين.. أذكر الهلَع الذي انتابَ الخدم عندما فعلتها لأول مرة.. أخبرتهم بما أريده فما كان منهم إلا أن توسّلوا إلي كي أغادر حتى لا أجلب الوبال على رؤوسهم.. طمأنتهم بأنه لا أحد يعلم بوجودي معهم وأن زيارتي ستظل سرا.. احتجت لأن أكرر التسلل حتى اطمأنوا لي وألِفوني.. كنت ألاطف أطفالهم وأستمع إلى حكاياهم.. شيئا فشيئا توطّدت علاقتنا وإن تظاهرت بالقسوة معهم في وجود أفراد أسرتي.. الحق يقال أني كنت أستمتع بقضاء وقتي مع الخدم أكثر مما أقضيه مع عائلتي.. هنا أدركت أننا لا نختلف كثيرا عن البشر وأنه ليس من الضروري استخدامهم.. وإن كان أسلافكم قد أجرموا بحقنا فما ذنب الأجيال التالية لتحمل وِزرَ ما اقترفه الأسلاف؟! هذه كانت قناعتي وما زالت.. على أن أمري انكشف في التاسعة عشرة من عمري عندما تم ضبطي أثناء إحدى زياراتي السرية للخدم.. اشتاط والدي غضبا ودفع الخدم الثمن بسببي.. لقد بيعوا جميعا إلى (المُخوزِق).. المساكين..

قالت الكلمة الأخيرة بصوت يغلب عليه الحزن والأسى ثم تابعت:

– أما أنا فقد وبّخني والدي وصفَعني لأول مرة في حياته.. أما أختي الصغرى فقد كادَت تفتك بي لولا تدخل والدتي و(باتار).. نسيت أن

أخبرك أن (باتار) كان حارسا شخصيا للعائلة قبل أن يصبح ملازما لي بعد هذه الحادثة.. المهم أن الأمر لم يمر مرور الكرام ولم أجرُؤ بعدها على الحديث أو مُلاطفة الخدم دون ذكر مراقبة أختي المستمرة وتوصية أبي لـ(باتار) بإبلاغه فور ملاحظته أي محظور.. سلوكي تغير مع البشر ظاهريا لكني أبطَنت قناعتي.. لا أذكر في أي سن توجهت إلى ذلك المعبد وسط العاصمة الإمبراطورية حيث كنت أعيش.. أقنعت (باتار) بطريقتي الخاصة بانتظاري خارج المعبد ريثما أتحدث إلى الراهب الذي كان يلقي مواعظه عن كوننا جميعا متساوين عند الخالق.. ما إن انتهى من مواعظه وخلا المعبد من سواه حتى توجهت إليه مباشرة واستوقفته بتأدب قبل مغادرته لأطلب الحديث معه قليلا.. لم يرفض بالطبع.. سألته:

- أخبرني.. ألسنا متساوون؟

الراهب في كياسة:

- بالطبع يا بنيّتي.. الخالق لا يعترف بالفوارق التي نضعها بيننا.

- وماذا عن البشر؟

- ما لهم؟

- أليسوا مثلنا؟ أليسوا مخلوقات عاقلة مثلنا؟

تدارك الراهب خطأَه وقال:

- كنت أقصد التيتانيين.. إنهم جميعا سواسية.

- والبشر؟

- بعض المخلوقات مُتساوون أكثر من سواهم.. هم مُتساوون كعبيد لنا ونحن كأسياد لهم.

- لماذا؟

الراهب في رصانة:

- لأنهم مدينون لنا بحياتهم وسيظلون كذلك أبدا.. كما أنهم يعيشون بيننا بسلام بتكرم من الإمبراطور الأعظم كما تعلمين.

- يعيشون بيننا بسلام؟! أخبرني الصدق أيها المحترم.. هل تسمي حياتهم بيننا ب((السلام))؟! هل أنت مُقتنع حقا بما تقوله؟!

تلفّت الراهب حوله وكأنه يخشى أن يسمع أحدهم حديثنا على الرغم من خلو المعبد قبل أن يزفر بضيق ويردف وهو يثبت عينيه بوجهي:

- أفكارك هذه خطيرة يا بنيتي.. آمل أن تراجعي نفسك وتكفّي عنها حالا.. لن أذكر حرفا مما دار هنا.. أستأذنك بالانصراف.

ضمّ طرفي عباءته الحمراء وانصرف على عجل.. تهربه الواضح من أسئلتي زادني اقتناعا بأفكاري.. مرت السنوات سريعا اعتزلت خلالها المجتمع ومناسباته بما فيها الاحتفال بيوم النصر والذي يقام في كل أنحاء الإمبراطورية.. ضايق هذا الأمر والداي لا سيما أبي الذي يصر على تواجد جميع أفراد الأسرة في هذا الاحتفال والذي يقام في قصرنا بحضور كبار المجتمع.. في بادئ الأمر كنت أختلق الأعذار لأبي لكنه واصل الضغط والإلحاح حتى صارحته بسبب نفوري من المجتمع ومناسباته فقد أصبحت في سنّ تؤهّلني للاستقلال برأيي.. جن جنون أبي ووصفني بالعار والهَرطَقة.. دارت نقاشات كثيرة حاول فيها إقناعي بخطأ أفكاري تارة باللين وتارة بالتهديد.. دائما ما كانت تنتهي تلك النقاشات دون أي نتيجة.. حتى جاء ذلك اليوم الذي أقام فيه والدي مأدبة عشاء لبعض من كبار الشخصيات.. أصر والدي بشدة على تواجدي مع ضيوفه.. حاولت التّملُّص كعادتي لكنه كان مُصرا بشكل عجيب ومريب إلى حد التهديد بالتبرّؤ مني وطردي من القصر! لم أفهم سرّ إصراره حتى عرفت المدعوين لأكتشف أن (زافين) القذِر من ضِمنهم! بالطبع أنت لا تعرف (زافين) هذا وليس لدي الكثير لأقوله عنه سوى أنه مغرور خاوي العقل وثقيل الظل تلهثُ وراءه الإناث لوسامته -بمقاييسنا- ولثراء عائلته الفاحش.. وكما علمت لاحقا كان ينوي خطبتي! التافه.. يظن نفسه جديرا بي.. لهذا كان يطاردني ويتودد

إلي بلزوجة خانقة كلما رآني.. ولهذا أصر والدي على حضوري ظنا منه أنها فرصة مناسبة للتقرب من بعضنا! لم أكن لأقبل بأمثال هذا الوغد.. تكفيني معاملته المقرفة للبشر.. صارحت أبي بهذا لكنه رمى بكلامي عرض الحائط وحذرني من فعل أي شيء يُثير حَفيظة ضيوفه فيما يتعلق بمعاملتهم للبشر خاصة (زافين) هذا.. تحاملت على نفسي لحضور مأدبة العشاء ومجاملة المدعوين المتأنّقين بابتسامة مصطنعة برفقة (باتار) بالطبع.. كنت أجول بين الضيوف والخدم يهرعون بينهم بالشراب والمحليات في فناء القصر الفسيح الذي تناثرت فيه الأشجار والنباتات وردية اللون المُنمّقة بعناية والإضاءات ذات الألوان الهادئة الممتزجة بموسيقى تبعث على الراحة والاسترخاء لتخلق جوّا شاعريا.. حتى فوجئت بـ(زافين) يعترض طريقي بابتسامة لزِجة.. ألقى التحية وقال شيئا عن اشتياقه لكل هذا الجمال.. رددت عليه ببرود وتجاوزته لكنه لاحقني وأمطرني بعبارات الغزل التي يفترض أن ترضي غرور أي أنثى سواي.. لكنها في حالتي كانت تثير اشمِئزازي لحد الغثيان.. عديم الإحساس.. لو كان أحد غيره لأدرك فورا مدى مقتي له.. كدت أصارحه برأيي فيه لولا أن مر بنا أحد الخدم بصحفة من المحليات.. تناول (زافين) قطعة منها بتعالٍ وهو يرمق الخادم متفحصا إياه من أعلى لأسفل باحتقار وكأنه يبحث عن أي خطأ في مظهره.. تناولت أنا قطعة وشكرت الخادم وصرفته بلطف أمام عيني (زافين) المستنكرتَين لهذا

الفعل الشنيع الفاحش.. تنحنح (باتار) محذرا في حين ردد (زافين) بكل ذهول:

– هل.. هل شكرتِ ذلك العبد للتوّ؟

أجبته ببرود وأنا أمضغ جزءا من قطعة الحلوى:

– وماذا في ذلك؟

تضاعف ذهوله واتسعت عيناه أكثر بعدم تصديق قبل أن يهتف باستِهجان:

– ماذا في ذلك؟! تقولين ماذا في ذلك؟! منذ متى كنا نشكر العبيد؟! وعلام نشكرهم؟! إنهم لا يفعلون ما يستوجب الشكر فهذا هو قدرهم ولا ينبغي لمواطنة تيتانية من عائلة مرموقة مثلك أن تحط من مكانتها بهكذا تصرف.

– ما شأنك أنت بما أفعل؟ لاحظ أني لم أطلب رأيك الذي لا يهمني البتّة.. وإن كنت تراهم عبيدا فأنا لا أراهم كذلك.

تنحنح (باتار) بصوت أعلى وكأنه يَحُثّني على إنهاء النقاش..

(زافين) باستغراب شديد:

– لا ترينهم عبيدا؟! ما الذي يعنيه هذا؟!

أنهى تساؤله وهو ينظر إلى (باتار) طالبا منه العون..

زفرت بضيق ثم رميت (زافين) بنظرة طويلة قبل أن أقول بثبات:

– (زافين).. اسمعني جيدا فأنا لن أعيد ما سأقوله.. أنا لا أرى البشر عبيدا كما تفعل أنت وأمثالك.. بل وأرى أنهم يمكنهم العيش دون أن يضطروا لخدمتنا.. وإن شاؤوا يمكنهم الرحيل والعيش بعيدا عنا فهم غير مُلزمين بما أبرمَه أسلافهم مع الإمبراطور الأعظم.. محاولات بعضهم للهرب أجدها مبرّرة وحقّا مشروعا لهم.. أعلم أنك لا تحتمل التفكير بشيء كهذا لكن دعني أخبرك أني لا أبالي برأيك ولا أقيم له وزنا.. وسأكون صريحة معك أكثر لأخبرك بألا تضيع وقتك في التقرب مني.. فأنا أمقُتك بشدة ولأسباب كثيرة لست رائقة البال لذكرها ولتعلم أن أحدها هو معاملتك المقززة للبشر.. لذا لن أرتبط بك أبدا وأرجو أن تكفّ عن ملاحقتي.

ما سمعَه مني فاجأه بحق وفاق قدرته على التحمل إلى حد أنه أصيب بشلل لحظي.. تنحنح (باتار) للمرة الثالثة وقال شيئا عن ضرورة تغيير دفة هذا الحديث الشائك.. انتشل (زافين) نفسه من حالة الشلل اللحظي وقال ببرود مفاجئ:

– تهتمين لأمر العبيد كثيرا.. لكنك لا تهتمين لأمري بتاتا على الرغم مما أكنّه لك من مشاعر.

في هذه اللحظة مرّ بجانبنا أحد الخدم وفي اللحظة التي تلتْها وجه (زافين) لكمة قوية مفرغا كل انفِعالاته إلى وجه الخادم الذي سقط أرضا بذهول دون أن يفهم سبب ما جرى له.. وقبل أن يستفيق من ذهوله بصق (زافين) على وجهه ثم انهال عليه ركلا وهو يردد بجنون:

- تهتمين لأمرهم ها؟ راقبي إذن.

مرّت لحظات لم أستوعب فيها ما فعله.. وعندما استوعبت غلى الدم في عروقي لأنقضّ عليه وأنا أهتف بكلمات غاضبة لا أذكرها.. كل ما كان يهمني وقتها هو أن أحول بينه وبين الخادم المسكين.. لكن اللعين استقبل انقِضاضتي بصفعة مُدويّة ارتجّ لها رأسي وهو ينعتني بخائنة الدم.. صفعته تلك طرحتني أرضا وقبل أن أتخذ أي رد فعل انقض عليه (باتار) ليُلقّنه علقةً لا أظنه ينساها وسط ذهول وصراخ المدعوين الذين تجمهروا ليفضّوا الشجار.. حسنًا.. ما حدث بعدها يسهل تخمينه.. لقد بلغ الأمر الإمبراطور الأعظم الذي أصدر قراره بوَسمنا وإرسالنا للعمل لدى (المُخوزِق) كجزء من أملاكه مثل كل العاملين عنده مما يعني أننا لم نعد تيتانيين بعد الآن.. مسكين (باتار).. لقد دفع ثمن دفاعه عني غاليا.. هكذا عاقبنا الإمبراطور الأعظم بأن سلبنا هويتنا ليمنحنا هوية من دافعت عنهم.. البشر.. أجل.. فقد أصبحنا منكم رغما عنا...

دعوةٌ خاصّة

ران الصمت الغرفة بعدما انتهت (أورغانا) من حكايتها.. ظلت تحدق إلى ظهره طويلا وكأنها تنتظر منه تعليقا على حكايتها.. تنفُّسه منتظم إلى حد مريب.. أيمكن أن يكون؟! عقدت حاجبيها ورفعت رأسها بحذر لتطلع على وجهه.. إنه هادئ وعينَيه مُغمضتان.. هل كان نائما طوال الوقت؟! أطالت النظر إليه بوجهٍ خالٍ من التعابير ثم استدارت وتوجهت نحو الباب بهدوء ولكنها توقفت عند عتبة الباب وقالت دون أن تلتفت إليه:

- أعلم أنك تتظاهر بالنوم حتى تتخلص مني.. كما أعلم أنك تسمعني الآن.. قد تتساءل عن سبب عدم إقدامنا على الهرب أنا و(باتار) بالرغم من قدرتنا على ذلك.. معك كل الحق فالحراس لن يصمدوا أمامنا ولكن نهرب إلى أين؟ نحن مَنبوذان وإن فعلنا سنظل مطاردين ما بقي لنا من العمر.. فضلا عن أن هروبنا سيَتسبّب بمذبحة لا داعي لها.. فـ(المخوزق) لن يتورّع عن إعدام طاقم الحراسة بالكامل وهذا ما لا أريده.

سكتت قليلا ثم قالت:

- والآن هل ستخبرني بقصتك؟

لم تتلقَّ أي رد.. زفرَت بخيبة أمل ثم قالت:

- قبل أن أغادر.. أريدك أن تعلم إني قد ارتحتُ إليك كثيرا.. لا أدري لماذا بالرغم من جَفائك.. وبقدر رغبتي بمعرفة كل شيء عنك إلا أني لا

أريد رؤيتك تتعذب أكثر.. أكره أن أقول هذا لكنك بحكم الميت طالما أنت في أرض (المخوزق).. لذا أنصحك بالاستسلام.

أنهت كلامها وغادرت الغرفة.. انقضت بضع دقائق حتى اطمأن (إميل) إلى مغادرتها ففتح عينيه وقطّب جبينَه مفكرا بما سمعه.. كل ما حكته عن هذا العالم وتاريخه وأن البشر قد جاؤوا من أرض أخرى بعيدة صعب التصديق.. لم يكن ليتخيل قصة كهذه حتى في أكثر خيالاته جُموحا.. إن صح ما قالته فهو محظوظ كونه لم يعش في عالم قاسٍ كهذا.. هذا إن كانت صادقة.. هو حذر وكثير الشك بطبعه لكنه لا يدري لم شعر بالصدق في كلامها.. ربما بسبب الوسم الذي تحمله كباقي البشر هنا.. وعلى الرغم من ذلك لن يتخلى عن حذره.. لن يثق بأحد.. لا المسوخ ولا البشر.. الجميع مُتواطئون مع سجّانه.. هكذا سيتعامل معهم -كيف لا وهم عبيده في النهاية!- من يدري.. ربما أرسلها ذلك المسخ لكسب ثقته ثم لاستِنطاقه بعيدا عن العنف.. كل شيء جائز.. تنصَحه بالاستسلام؟! يا لسذاجتها.. سيفرّ عندما تسنَح له أول فرصة.. صحيح أنه لا يريد التسبب بموت أحد من سكان البلدة لكن الذنب ليس ذنبه.. هم من أسروه.. حتى لو لم يهرب فهم معرضون للموت في أية لحظة طالما ارتَضوا العبودية لذلك المسخ.. ربما لو..

انفتح الباب في هذه اللحظة قاطعا سيل أفكاره.. أدار رأسه إلى (أليتا) التي دلفت الغرفة والتردد يطل من عينها الوحيدة قبل أن تسأله بحذر:

- ما الذي كانت تريده منك؟

رماها (إميل) بنظرة ثابتة أربكتْها قليلا ثم اعتدل في جلسته وقال ضاغطا على أسنانه دون أن يرفع عينيه عنها:

- كنت تسترقين السمع.. أليس كذلك؟

تبدّت الدهشة على وجهها وفتحت فمها لتقول شيئا لكنه سبقها واستطرد بحزم:

- إيّاك والكذب فأنت لا تُجيدينه.. هذا واضح من وجهك.

- كلا هذا لم يحدث.. لم أكن..

- أغلِقي فمك.

لم تجد (أليتا) ما تقوله فآثرت الصمت في حين أشاح هو بوجهه بغضب.. مضَت هُنيهة من الصمت ثم قال وكأنه يحدث نفسه بصوت مسموع:

- لهذا السبب لم يَحبِسني منفردا ولم يمنع أحدا من زيارتي.

لم تعلق (أليتا) على كلامه.. بدا لها وكأنه يفكر بأمر ما قبل أن يقف على قدميه ويمدد جسمه ليدفع الدم إلى أطرافه المخدّرة.. تأوّه بخُفوت مع تمدُّد عضلاته.. جراحه لا زالت تؤلمه.. خطا نحو الباب بخطى متثاقلة وهو يجر الكرة المعدنية خلفه..

هتفت (أليتا):

- إلى أين؟

تجاهلها وهو يتجاوزها ويفتح الباب ليفاجأ بالشاب ذو الشعر الأحمر واقفا أمامه وقد فوجئ هو الآخر بـ(إميل) يخرج في وجهه في ذات اللحظة التي أراد فيها الدخول.. رماه (إميل) بنظرة من طراز ((هل تريد شيئا؟)).

ظهر الارتباك على (ويل) وهو يقول:

- ك.. كيف حالك الآن؟

(إميل) ببرود:

- ماذا تريد؟

(ويل) بعد تردد:

- حسنا.. أردت أن أشكرك.

رفع (إميل) حاجبيه مُتسائلا:

- على ماذا؟

تلفّت (ويل) حوله وكأنه يخشى أن يسمعه أحد ثم انحنى على (إميل) وهمسَ في إذنه:

- لأنك أنقذت حياتي اليوم.

ختم قوله ونظر إلى (أليتا) الواقفة خلف (إميل) بنظرة رجاء أن يبقى ما سمعته سرا إن كانت قد سمعته فعلا..

(إميل):

- أهذا كل ما لديك؟

أومأ (ويل) رأسه بالإيجاب وهو ينزل عينيه للأسفل..

(إميل) بصرامة:

- تنحّى عن طريقي.

قالها وهو يتجاوز (ويل) ويعبر الممر الذي تناثرت على جانبيه أبواب الغرف الأخرى والذي ينتهي بردهة واسعة تتفرع منها ممرات أخرى..

نقل (ويل) بصره بين (أليتا) و(إميل) باستغراب ثم هتف وهو يحثّ الخطى خلف (إميل):

- إلى أين تذهب؟ توقف.

(أليتا):

- أوقفه يا (ويل).

لم يُعرهما (إميل) أي انتباه وهو يدلف الرّدهة التي وقف فيها بعض السكان وقد علَت أحاديثهم قبل أن يقطعوها وهم يُصوّبون أبصارهم نحو (إميل) الذي تجاهلهم تماما وهو يجول ببصره في الردهة قبل أن تستقرّ عيناه على باب كبير ذو درفتين افترض أنه الباب المؤدي إلى الخارج..

(ويل) وهو يضع راحته على كتف (إميل):

- أنت.. هلّا أخبرتنا ما تنوي فعله؟

ضرب (إميل) يده مُبعدا إياها وخطا نحو الباب الكبير بأقصى سرعة تسمح به الكرة المعدنية وسط ذهول الجميع..

هتفت (أليتا) وقد أدركت ما يعتزم فعله:

- توقف.. لا يمكنك الخروج.. حظر التجوال قد بدأ بالفعل.

لكنها تأخرت.. فقد فتح (إميل) الباب وخطى للخارج...هبّت الرياح الباردة قليلا على وجهه وجسده وتطاير معها شعره مما منحه الشعور بالانتِعاش وهو يبتعد عن المبنى ويجول ببَصره في الساحة الصغيرة التي حاول الفرار منها سابقا.. المصابيح المتناثرة على الأبواب

قد بدأت عملها.. لقد حل الظلام وخلت الساحة من السكان.. وجه بصره للأعلى وتصلب في مكانه مَدهوشًا مما يراه.. للاختصار يمكن القول أن ردّة فعله لم تختلف كثيرا عن ردة فعل (يزن) عندما شاهد سماء الليل بنجومه وقمره لأول مرة بحياته.. إلا أن السماء هذه المرة ملبدة ببعض الغيوم السوداء..

- أنت، عد للداخل.

هتف (ويل) وهو يطل برأسه من بين درفتي الباب دون أن يجرؤ على الخروج.. لم يبدُ على (إميل) أنه سمعه وهو يتطلع إلى السماء بانبهار حقيقي متجاهلا صيحات (ويل) و(أليتا) التي أطلت هي الأخرى برأسها.. كان (إميل) مأخوذا بما يراه إلى حد أنه لم يلحظ تحول نظرات كل من (ويل) و(أليتا) إلى نظرات ذُعر وهما ينظران إلى ما يقترب منه قبل أن يتواريا إلى الداخل بهَلع ويغلقا الباب.. كان مأخوذا إلى حد أنه لم يسمع صوت الخطوات التي تقترب من خلفه..

- ها أنت ذا أيها الغريب.. ألا تعلم أنك قد خرقت حظر التجوال؟

التفت (إميل) إلى الخلف لتصطدم عيناه بوجه (تشيه) المستفز وهو يمتطي المندالون ويرافقه أربعة رجال أشداء أحدهم يمسك بحبل غليظ.. غلى الدم في عروق (إميل) واشتعلت عيناه غضبا وهو يهتف:

- أنت.. أيها الوغد.

حاول الاندفاع نحو (تشيه) لكن الكرة المعدنية سرعان ما أعاقَت اندفاعه بالإضافة إلى الألم الساحق الذي نبض من جراحه ليجبر على التوقف مغمضا عينيه وهو يضغط على أسنانه من شدة الألم الذي يفوق قدرته على التحمل.. ابتسم (تشيه) للحظة بابتسامته الجانبية المعهودة وكأنه يسخر من محاولة (إميل) الواهنة لمهاجمته قبل أن تتلاشى وهو يأمر الرجال بصرامة:

- قيّدوه.

انقضّ الرجال بحماس وكأنهم ينتظرون هذا الأمر بفارغ الصبر.. صرخ (إميل) ألما وقهرا وهو يتهاوى بين أيديهم بسهولة ليقيدوا يديه بالحبل في حين انحنى أحدهم ليفك الكرة المعدنية عن كاحله بمفتاح خاص.. لو كان بكامل قواه لعرف كيف يتعامل معهم.. عادت الابتسامة الجانبية لترتسم على شفتي (تشيه) وهو يلكِز المندالون الذي أطلق صيحته الحادة ثم اقترب من (إميل) حتى وقف أمامه مباشرة.. تأمل (تشيه) (إميل) قليلا ثم أشار إلى أحد الرجال بإشارة لم يفهمها (إميل) في بادئ الأمر لكنه سرعان ما أدرك معناها عندما التقط الرجل طرف الحبل المقيد ليديه ليعقده حول عنق المندالون..

(إميل) بحدة:

- ما الذي تفعلونه؟ ما معنى هذا؟

(تشيه) دون أن تفارقه الابتسامة:

– السيد المعظم يدعوك لتناول العشاء عنده هذه الليلة.. إنها دعوة خاصة.. هنيئا لك أيها الغريب.

ردد (إميل) بتعجب يَشوبه الاستِنكار:

– ماذا؟ دعوة خاصة؟!

تجاهله (تشيه) وهو يستدير بالمندالون ويهتف بالرجال:

– هيا بنا.

أنهى هتافه ولَكز المندالون الذي أطلق صيحته المعهودة ثم انطلق عبر أزقّة البلدة بسرعة أجبرت (إميل) على الركض خلفه والرجال يتبعونه بذات الوتيرة.. تبا لهم.. جراحه تصرخ ألما من كل هذا الجهد.. بالكاد يلتقط أنفاسه وهو يسحب سحبا خارج البلدة متوجهين نحو الطريق المرصوف الذي يشق التلة والذي يؤدي بدوره إلى القصر.. الخوازيق بما تحمله من أجساد متناثرة على جانبي الطريق وقد انعكست عليها أضواء المشاعل مما منحها سَمتا شيطانيا يصعب أن تخطئه العين.. يشعر بأنه سيفقد الوعي في أية لحظة.. الإعياء بلغ منه مبلغا أفقده القدرة على إدراك ما حوله إلى حد أنه لم يلحظ أن الموكب قد اجتاز بوابة القصر المفتوحة على مصراعيها.. إلى حد أنه لم يستوعب أن الموكب قد توقف في

الفناء الخارجي ليصطدم أثناء ركضه المحموم بمؤخرة المندالون ليسقط بعدها على ظهره في مشهد يجمع ما بين البؤس والطّرافة.. لم يعد يشعر بساقيه.. العرق يغمر جسده كله.. لقد خارت قواه تماما.. إنهم يحلون وَثاقه.. فتح عينيه بإنهاك لتقعا على الفناء الفسيح المزين ببعض الأشجار كئيبة المظهر والمضاء بالمشاعل التي انعكست ظلالها على القصر الكئيب ذو الأبراج الشاهقة التي تجمع ما بين الشكلين اللولبي والمخروطي.. انقضّ عليه أحدهم فجأة ليغطي رأسه بكيس قماشي حجب عنه الرؤية وكتم أنفاسه للحظة قبل أن ينقض عليه آخرون ويحملونه بسرعة وسط هَمهمتِه ومقاومته المتخاذلة إلى داخل القصر.. شعر بهم ينعطفون به أكثر من مرة قبل أن يتوقفوا ويدفعوا به إلى داخل مكان ضيق جدا بالكاد يتّسع لرجل بالغ حتى يقف فيه دون أن يتمكن حتى من ثني جسده فضلا عن الجلوس! مكان أقرب لخزانة ذات رائحة عِطنَة.. أزاحوا الكيس عن رأسه بحركة خاطفة وأغلقوا الباب عليه بإحكام وهم يتبادلون الضحكات والتعليقات الساخرة على غرار:

– إن احتجت لقضاء الحاجة فلا تتردد في فعلها على نفسك.. نياهاهاها.

– فلتنعم بوقتك يا هذا ولتشغل نفسك بالتفكير في كل أسرار الكون فلديك كل الوقت هنا.. هاهاهاها.

صرخ (إميل) بوهن وهو يحاول دفع الباب بجسده دون جدوى:

- أخرجوني عليكم اللعنة.. أخرجوني.

أجابته ضحكاتهم الشامتة وهو يصرخ بإنهاك.. ويصرخ.. ويصرخ.. استمر هكذا لبضع دقائق حتى أدرك أنهم قد رحلوا.. ساد الهدوء كل شيء من حوله.. هدوء خانق كالمكان الذي حُبس فيه.. هل هذا ما عناه المنحطّ ذو الشارب عندما أخبره أنها دعوة خاصة؟! أهي محاولة من ذلك المسخ لكسر عزيمته؟ أجل.. لا بد وأنها كذلك.. كم شعر بالمرارة والغضب.. ليته لم يقبل بخوض هذه المغامرة منذ البداية.. كل هذا بسبب الأخرق (يزن).. كم تمنى لو يراه الآن حتى يقتلع عينيه وينهال على رأسه ضربا حتى يسحق جُمجمته.. يمكن تخيل ما قد يحدث للمرء إن بقي حبيسا في خزانة ضيقة تجبره على البقاء واقفا لساعات.. ساعات تخاطفته خلالها الكثير من الوساوس والأفكار السوداء.. لا يدري كم ساعة مرت عليه وهو في هذا الحال.. لحسن حظه أن الموت خنقا غير وارد هنا.. فالفتحات الطولية المحاذية لساقيه بالأسفل تضمن له تدفّق الهواء وبصيص من النور.. إن كان ذلك المسخ ينوي إبقاءه هنا لأيام فسيفقد عقله.. إن كان يظن أن هذه الألاعيب كافية لإخضاعه فهو واهم.. لن يستسلم له حتى لو تعفن هنا.. الجوع والظّمأ يكادان يقتلانه.. العرق يغمر جسده ليُحيله إلى كتلة لزِجة وقد التصقت ملابسه به.. وعيه ينسحب ببطء.. لكن مهلا.. هناك خطوات تقترب.. هناك من يعالج

قفل الباب.. في اللحظة التالية فتح الباب ليهوي بكل ثقله لولا أن تلقّفته الأيدي الغليظة..

– آغغغغغ.. يا لقذارته!

– رائحته شنيعة.

– لنحمّمه قبل أخذه إلى قاعة الطعام.

– أحضروا بعض الماء

أرقدوه على الأرض كيفما اتّفق.. إنه لا يقوى على الحركة.. كل ما استطاع فعله هو أن يعبّ الهواء النقي بنَهَم.. إنهم ينزعون عنه قميصه الزلق.. ثم.. سبلاششششش.. انتفض جسده عندما تناثر الماء البارد عليه.. قلبوه على ظهره وكرّروا ذات الفعل ثم ألبسه أحدهم قميصا بني اللون كالذي يرتدونه جميعا..

– هكذا أفضل.. هيا خذوه.

تعاونَ اثنان على سَحبه عبر ممرات القصر.. لم تَمضِ بضع دقائق حتى شعر بهم يجلسونه على مقعد وَثير.. رائحة شهية تتسلل إلى أنفه.. شعر بأحدهم يقرب قنّينة ماء باردة إلى فمه.. الماء البارد يَنساب على شفتيه ويشق طريقه إلى جوفه وروحه.. كم هذا مُنعش..

– استيقظ.. لقد حان وقت العشاء.

قالها أحدهم وهو يبعد قنّينة الماء عن فمه والتي يبدو أنه ارتشفها عن آخرها.. فتح عينيه بإنهاك وبُطء شديدين قبل أن تتّسعا شيئا فشيئا.. في ظروف أخرى كان ليصفّر انبهارا لما يراه.. إنه يجلس في أروع قاعة طعام رآها في حياته.. كل شيء في هذه القاعة يشي بالفخامة والثراء الفاحش.. الشّمعدانات الذهبية التي تحمل شموعا بيضاء والتي توزعت في أطراف القاعة بحيث تنير معظمها.. الثريات الضخمة المتدلية من السقف المرتفع والذي تُزينه نقوش فنّية تشي بالإبداع.. جدران القاعة وأرضيتها التي تجمع ما بين درجات اللونين الرمادي والأسود بتناسق عجيب.. السيوف والرماح مختلفة الأشكال والأحجام التي تُزين الجدران.. المائدة الطويلة التي يحتل أحد طرفيها والتي نقشت على أطرافها زخارف بديعة.. ازدحم طرفي المائدة بأصناف الطعام والشراب مما يوحي أنها معدة لشخصين! رائحة الطعام الشهية كانت كفيلة بأن تجعله يتخلى عن حذره وينسى ما ناله حتى الآن.. كفيلة بأن تجعله يتناسى وجود الخدم في أطراف القاعة.. كل ما يهمه الآن هو إسكات جوعه.. سال لُعابه على الرغم منه وهو يتأمل الأطباق.. بأيها يبدأ؟ بطبق أضلاع اللحم المشوية؟ أم بهذا الطبق الذي لا يدري كُنهه؟ لا يهم.. سيبدأ بأضلاع اللحم.. لم يحرك أي من الخدم ساكنا وهم يشاهدونه ينقض على الطعام كيفما اتّفق.. انهمك في تناول الطعام لبعض الوقت إلى حد أنه لم يلحظ القادم الذي دلف القاعة من أحد أبوابها الجانبية..

– من غير اللائق أن تبدأ العشاء قبل مُضيفك أيها البشري.

رفع (إميل) عينيه لتقعا على (غالياس) الذي ارتدى ملابس غاية في الأناقة هي أقرب للجلباب الواسع أسود اللون مع عباءة سوداء تنسدل على ظهره لتصل إلى الأرض.. كانت أطراف ملابسه مُوشّاة باللون الفضي البراق مما زاد من أناقتها.. ألا يخلع المسخ هذه الجمجمة أبدا؟!

كيف لم يشعر بقدومه؟! هرع أحد الخدم ليسحب لسيده المقعد المتصدر للطرف الآخر من المائدة.. أشار (غالياس) للخدم بمغادرة القاعة.. لو كانت النظرات تقتل لتحول (غالياس) إلى مِصفاة من نظرات (إميل) الذي يحدق إليه بعينَين تقطران مَقتا..

(غالياس) وهو يلتقط سكين الطعام مع أداة غريبة أقرب للشوكة ويتناول طعامه:

– كيف كان الاستقبال؟ هل أعجبك؟

(إميل) بجفاء شديد:

– مثل وجهك.

– ما زلت تحتفظ بجُرأتك ووقاحتك.. يبدو أن الاستقبال لم يكن حارا كما ينبغي.

قالها بصوته العميق ذو النبرة المحايدة التي لا يعرف معها إن كان راضيا أم ساخطا.. رفع (غالياس) بصره نحو (إميل) وقال:

- لم توقفت عن تناول الطعام؟ ألم يرُقْك؟

- ادخل في صلب الموضوع مباشرة.. لم جلبتني إلى هنا؟

(غالياس) وهو يعود لتناول طعامه:

- أتعلم.. كان ينبغي أن نعرف بعضنا بشكل أفضل.. ألا توافقني الرأي؟

- لا.

أردف (غالياس) وكأنه لم يسمع شيئا:

- عندما سألتك أول مرة عن المكان الذي جئتَ منه قلت إنك لا تذكر شيئا.. وعندما سألك غيري تظاهرت أنك من سكان الكوكب وراوغت الإجابات المباشرة ببَراعة لا تُنكر.. ألا تجد في هذا تناقضا كبيرا؟

صعد الدم إلى رأس (إميل) واحمر وجهه غضبا.. كما توقع تماما.. إنهم يَنقلون لسيدهم كل ما يدور معه.. يا لحماقته.. كيف فاتَه تناقض أقواله؟!

تابع (غالياس):

– كما قلت سابقا أنت لم تعرف العبودية يوما.. هناك ثلاثة احتمالات لا رابع لها.. الأول هو أن والديك كانا عبيدا لنا ثم تمكنوا من الفرار منذ سنوات وبالنتيجة تكون قد نشأت بعيدا عن العبودية وهذا بنظري مستبعد تماما نظرا لتناقض أقوالك السابقة مما يفضح جهلك بما يدور حولك.

سكت قليلا ليرتشف بعض الشراب من كأسه الأنيق ثم نهض بتؤدّة وخطى نحو (إميل) متابعا:

– الاحتمال الثاني هو أن أسلافك كانوا ممن فرّوا إلى خارج الكوكب بعد هزيمتهم قبل قرون ولسبب ما وبعد تلك المدة الطويلة قرر بنو جنسك إرسال بعضكم إلينا لسبب ما.. لا أخفيك سرا أني التقيت باثنين يرتديان ملابس قريبة جدا من ملابسك.. لم أُعِر الأمر اهتماما وقتها.. لكن عندما ظهرت أنت ورفيقيك أدركت أن الأمر يتجاوز المصادفة.. لذا أجريت بعض الاتصالات وتأكدت من أن هذا الاحتمال مستبعد أيضا.

انعقد حاجبا (إميل) عند هذه النقطة وهو يتابع (غالياس) بعينَين لا تطرِفان.. إذن هناك آخرون قد سبقوهم بالفعل..

كان (غالياس) قد وصل بالفعل عند (إميل)..

تابع (غالياس) وهو يدور حول مقعد (إميل) ببطء:

- لم يتم رصد أي جسم غريب قادم من الفضاء طوال القرون الفائتة ما لم تتَسلّلوا إلينا بوسيلة نجهلها وإن كنت أشك بذلك.. وهذا يقودنا للاحتمال الأخير.

مال برأسه ليُحاذي رأس (إميل) من اليسار وحدق إليه بثبات وكأنه يريد رؤية أثر ما سيقوله على ملامح وجهه وأكمل:

- أسلافك لم يغادروا الكوكب قطّ في ذلك اليوم بعد هزيمتكم.. لقد أختبؤوا في مكان نجهله وعاشوا في عزلة عما حولهم كل تلك القرون حتى جاءت أجيال لا تعرف شيئا عن هذا العالم وماضيه.. من العسير حقا تصديق ذلك لكنه الاحتمال الأرجح برأيي.

امتدت فترة من الصمت وكل منهما يحدق للآخر بثبات.. لم ينعكس على وجه (إميل) أي تغير يشي بما يفكر به.. إن كانت تلك المسخ صادقة فيما حكته فهو يرجح هذا الرأي أيضا.. لكنه لن يتحدث..

(إميل) بثبات:

- أنت تهذي.

- لست أهذي.. بل أصبت كبد الحقيقة.. أرى هذا جيدا في عينيك فهما لا تكذبان.

ابتلع (إميل) ريقه بحركة غريزية.. أنفاس هذا المسخ تلفَح وجهه بتسارع وكأن.. وكأن الحماس يغمره بالرغم من نبرة صوته المُحايدة.. قرب (غالياس) رأسه من وجه (إميل) أكثر وقال:

– اسمعني جيدا.. كلانا نعلم أنك كاذب وأنك تصرّ على التمسّك بلباس الغموض.. أعلم أنك عرفت الكثير عني بالفعل لكن ما لا تعرفه هو أني لا أميل إلى منح الفرص.. لقد منحتك فرصتك لكنك أبيت استغلالها.. ربما آن الآوان لتَستغلّها جيدا هذه المرة.. فكر جيدا.. إن خضعت لي وركعت أمام الجميع وأخبرتني بالمكان الذي تختبئون فيه فسأكتفي بإعدامك بالخازوق.. سأترفق بك وأقتلك بعدها بيوم واحد.. لن يطول عذابك كما ترى.. وإن لم تفعل فثق بأنك ستختبر ألوانا من العذاب لا تخطر ببالك حتى تفعل أو تموت.. والآن ما هو قرارك؟

لم يجبه (إميل) وهو يرسل إليه نظرات متحدية تنطق بقراره الذي لم يحِد عنه.. رفع (غالياس) رأسه دون أن يبعد بصره عن (إميل) وقال:

– هكذا إذن؟ لا بأس.. لا بأس...

تابع وهو يَخطو مُبتعدا:

– تُحاول حماية قومك أليس كذلك؟ تأكد من أنني سأجدهم عندما أنتهي منك.. سترى.

توقف (غالياس) عند إحدى النوافذ وشرد ببصره قليلا وهو يحدق للخارج قبل أن يقول:

- تلتزم الصمت لحماية قومك! أصارحك القول أني أحببت فيك روح المحارب.. والإيثار من صفات المحاربين النّبلاء.. ولكن.. ألا تظن أنه من الخسارة أن تمارس هذه الصفة مع جنس حقير كالبشر؟ هل كانوا سيؤثرونك على أنفسهم لو انعكست الأدوار؟ فكر جيدا وستدرك الحقيقة التي لا غبار عليها.. بنو جلدتك لا يستحقون إيثارك هذا.

رفع يده اليسرى المُشوّهة وتأملها بشرود متابعا:

- أنت تذكّرني بمن تسبّب بإصابتي هذه.. لم يتردد في مهاجمتي في سبيل حماية قومه حتى وهو يعلم بتفوقي عليه.. لقد ضحى بحياته من أجل ماذا؟ لا شيء.. تضحيته لم تُنقذ قومه من المصير المحتوم.. وها أنت ذا تسير على ذات الخطى ومن أجل ماذا؟ لا شيء.. لا شيء.

سكت قليلا ثم أضاف:

- أنتم البشر تسمّوننا بالوحوش تارة.. وبالشياطين تارة أخرى.. تصفوننا بالغِلاظ والقُساة.. لكن الحقيقة هي أنكم أنتم الوحوش الحقيقيون.. أنتم أكثر المخلوقات تعطُّشا للقتل والدمار.. تحكمكم غريزة الجشع.. هكذا كنتم فيما مضى قبل أن نوقفكم عند حدكم.. لو كان

الأمر بيد التيتانيين لما أبقوا على حي منكم.. لكنها إرادته وحكمته أن تُستعبدوا.. إنها إرادة الإمبراطور الأعظم..

قال آخر كلمتين بتعظيم وتبجيل شديدين وكأنه يمجّد إلها!

التفت إلى (إميل) مستطردا:

– بالمناسبة إن كنت تظن أني أنا من ابتكر ((الخازوق)) فأنت مخطئ.. لقد تعلمتها من بني جنسك.. لا تندهش.. بنو جنسك هم من ابتكرها ومارسها مع شعبنا لترهيبنا وبثّ الرعب في نفوسنا.. لا يمكنك إنكار أن من ابتكر هذه الوسيلة هو من يستحق أن يسمى بـ((الوحش)).

سكت (غالياس) وهو يتأمل (إميل) منتظرا تعليقه.. من الصعب أن يصدق أن البشر قد بلغوا هذا الحد من القسوة.. صحيح أن هناك اللصوص والمجرمون في عالمه بالأسفل لكنهم لم يبلغوا هذا الحد..

(إميل):

– ما الذي تريد أن تصل إليه بثَرثرتك الفارغة هذه؟

– ألم تفهم بعد أيها البشري؟

– ولا أريد أن أفهم.

– ما أريد قوله هو أنكم أيها البشر قد استحقَقتم مصيركم عن جَدارة.. طوال تاريخكم وأنتم تستعبدون باقي المخلوقات وتسخّرونها

لخدمتكم حتى وصل بكم الحال إلى استعباد بعضكم بعضا في الأزمنة الغابرة من تاريخكم الدموي كما علمنا لاحقا.. صدقني أيها البشري لو لم ننتصر عليكم لما تردّدتم في استعبادنا.. كنتم وما زلتم تفوقوننا عددا لكنها مشيئة الأقدار.. إن متعة إذلالكم واستعبادكم تفوق متعة إبادتكم بكثير.. لقد أدركت هذا لاحقا وفهمت السر وراء عدم أمره بإفنائكم.. إنها حكمته وعدالته.

قال آخر كلمتين بتَفخيم واضح.. إن لم يكن يقصد إمبراطوره المزعوم فمن يقصد إذن؟!

مال (غالياس) برأسه نحو (إميل) متابعا:

– هذه العدالة التي تستحقّونها.. وقومك الذين جئت منهم لا ينبغي لهم الإفلات من هذه العدالة.. هذا خطأ يجب تداركه وتصحيحه.. هل فهمت الآن ما أرمي إليه؟

امتدت فترة من الصمت وكلاهما يحدق للآخر بثبات.. لا.. لن يخبره.. فهو يعرف الآن المصير الأسود الذي ينتظر قومه إن اكتشف أمرهم..

(إميل) بجمود:

– سأفترض جدَلا أنك محقّ بشأني.. فهل تتصور أن أتعاون معك وأسلمك قومي؟! هكذا ببساطة؟!

– لست أطلب عونك أيها البشري.. بل آمرك.. فأنت ملك وعبد لي منذ اللحظة التي وطئت فيها قدماك أرضي شئت أم أبيت.. هذا هو القانون الذي سنه الإمبراطور الأعظم –نطقها بتمجيد شديد.

(إميل) باستِخفاف:

– يبدو أن الغباء والبلاهة صفتان سائدتان بالفعل بينكم يا معشر المسوخ...

نهض من مكانه واستند بيديه إلى الطاولة ومال للأمام متابعا بحزم مفاجئ:

– اسمَعني جيدا يا هذا.. لا يهمّني إن كنت تصدّقني أم لا.. كما أني لا أبالي بأي من قوانينكم السخيفة ولا أعترف بها.. إن كان عقلك البليد –إن كنت تملك واحدا–لم يستوعب بعد أني لم ولن أكون عبدا لأمثالك فهذه مشكلتك.. هذا ما لدي ولن تسمع غيره.

أنهى كلامه بانفعال واضح.. قبضة يده اليسرى تقبض على سكين الطعام تحسبا لأي ردة فعل على كل هذا الكم من الإهانات..

أخيرا وبعد هُنيهة من الصمت قال (غالياس):

– أيّة جُرأة تمتلك أيها البشري؟! أية جرأة؟!...

أدار ظهره لـ(إميل) وخَطا عائدا نحو مقعده:

– تتجرّأ علي وأنت أسير عندي وتحت رحمتي؟! جُرأتك هذه تستحقّ من أجلها الاحترام والعفو.. ولكن...

التفت إلى (إميل) عندما وصل إلى مقعده ومالَ نحوه بجِذعه:

– ولكن لا أريد أن يشاع أن هناك من تجرّأ عليّ وعلى أرضي ثم خرج سالما.

– وسأتجرأ أكثر ما دمت تصرّ على إبقائي هنا.

(غالياس) وهو يجلس على مقعده:

– أنت تملك كبرياء المُحاربين مثلي تماما.. كبرياؤك هو ما يمنعك من الخضوع لي في حين أن كبريائي يصرّ على إخضاعك مهما كان الثمن.. نحن متفاهمان إذن.. جميل.. هذا سيجعل من مهمة تحطيم كبريائك أكثر متعة.

ثم أردف قبل أن يرد عليه (إميل):

– أنصحك بتناول طعامك فأنت بحاجة إليه لما ينتظرك في الغد.

– وأنا أنصحك بألا تضيع وقتك إن كان له قيمة.. فلن تنال مني حتى لو قطعتني إلى ألف قطعة.

– لم كل هذا العناد والإصرار؟ مصيركم أيها البشر هو الموت اليوم أو غدا.. فما الفارق إذن؟ لم لا تستسلم فحسب؟

– وأنت لم لا تيأس وتكفّ عن المحاولة فحسب؟

قالها (إميل) مقلّدا صوت (غالياس) العميق بطريقة مثيرة للضحك.. في اللحظة التالية شعر (إميل) بألم حاد في كتفه الأيسر.. أطلق صرخة ألم قصيرة وارتد إلى الخلف ليسقط على مقعده.. عضّ على شفته السفلى محاولا كتم ألمه وهو يحدق إلى سكين الطعام المغروسة في كتفه قبل أن ينقل بصره نحو (غالياس) الذي فردَ ذراعه اليمنى لأقصاها باتجاه (إميل)..

(غالياس):

– لقد تماديت كثيرا أيها البشري.

أغمض (إميل) عينيه من شدة الألم وامتدت يده اليمنى لانتزاع السكين وهو يهتف:

– أيها السافل.

سالت الدماء بغزارة عندما انتزع السكين ثم ضغط بقوة على جرحه النازف..

(غالياس):

- بالمناسبة أيها البشري أنت أكلت من الطعام الذي أعددته لك.. فهل تعرف ما أكلته؟

تجمّد (إميل) في مكانه وتصـلّبت نظراته على الطبق الذي أكل منه وتساءل:

- ما الذي تعنيه أيها المسخ؟

نسيَ كل شيء عن جرحه النازف وركّز بصره على طبق أضلاع اللحم.. الآن فقط لاحظ أن أضلاع اللحم كبيرة نوعا ما.. قلب الأضلاع بحذر لتقع عيناه على شيء مَغمور في قاع الطبق.. شيء يبدو مألوفا جدا.. أمسكه باثنين من أصابعه ورفعه أمام وجهه ببطء ليراه جيدا.. لو كان بمزاج يسمح بالمزاح لقال إنه إصبع بشري.. ولكن.. يا للهول! إنه إصبع بشري بالفعل! شهق بعنف واتّسعت عيناه بذهول وعدم تصديق..

(غالياس) بهدوء شديد:

- أظنك ستشعر بالراحة عندما تعلم أن ما أكلته هو أحد الذين أرسلتهم خلفك.. لقد أعدم بالخازوق لكنه ولسوء الحظ مات سريعا.. لذا ارتأيت أن تكون أنت من يأكل لحمه..

رمى (إميل) بالإصبع بعيدا باشمِئزاز ثم استند إلى الطاولة بكلتا يديه وتسارعت أنفاسه.. إنه يشعر بتقلّص معدته.. إنه.. أووووع.. أفرغ كل ما في جوفه بلا تحفّظ.. سرت الارتجافة في جسده وهو يردد بصوت خفيض يهتز غضبا:

- سأقتلك.

(غالياس):

- لم أسمعك جيدا.. أعد ما قلته.

رفع (إميل) رأسه وصرخ بجنون:

- سأقتلك.

التقط السكين التي انتزعها من كتفه وقذفها عبر المائدة نحو (غالياس) الذي تصدّى لها بمخالبه التي برزت من أصابعه في لمح البصر..

(غالياس):

- أهذا كل ما لديك؟

أطلق (إميل) صرخة غضب هادرة متجاهلا آلام إصاباته السابقة والحالية وبقوة ولّدها غضبه اندفع نحو أحد الجدران وانتزع أحد السيوف المُسنّنة ثم انقض على (غالياس) صارخا:

- مت أيها الحقير.

هوى بالسيف على الجمجمة الحيوانية بلا رحمة.. فجأة تجمّد السيف قبل أن يصل إلى هدفه بأقل من 1 سم.. اتسعت عينا (إميل) في دهشة وهو يحدق إلى المخالب الطويلة التي تلقت ضربة سيفه وانحشر بينها..

(غالياس):

- ضربة قاتلة.. أُقرّ لك بذلك...

ثم هبّ من مقعده بغتة وأنزل السيف ببطء إلى الأسفل و(إميل) يقاومه حتى وصل السيف إلى أسفل ذقن الجمجمة:

- لكنها بلا قيمة ما لم تُصب هدفها.

كان نَصلُ السيف محشورا من منتصفه بين المخالب القاطعة مما جعلها نقطة ارتكاز له وهذا ما استغلّه (إميل) عندما غاص للأسفل بغتة برَشاقة ساحبا مقبض السيف معه بكل قوته لينتصبَ طرفه المدبّب للأعلى بحركة مفاجئة شاقا الهواء نحو ذِقن الجمجمة! تنبّه (غالياس) لهذا في اللحظة الأخيرة فتراجع برأسه إلى الخلف ومرقَ الطرف المُدبّب أمام عينيه ولكن بعدما احتكّ بذقن الجمجمة محطّما إياها بصوت مسموع!

ارتخت مخالب (غالياس) للحظة كانت كافية لكي يسحب (إميل) السيف بسرعة ويهم بتسديد طعنتِه لكنه فوجئ بـ(غالياس) يركله بعيدا

ليطير جسده وسط صراخه ويرتطم بالأرض على بعد يسير.. لكنه سرعان ما قفز ليقف على قدميه وهو قابض على سيفه وينفخ الهواء بغضب وقد اتخذ وضعية قتالية استعدادا لتوجيه هجمة أخرى في ذات الوقت الذي كان فيه (غالياس) يتحسّس الجزء المكسور من ذقن الجمجمة..

(غالياس):

- سريع البديهة.. أنت تُعجبني أيها البشري.

قالها وهو يقلص مَخالبه ويستلّ سيفا من الجدار الأقرب إليه..

(إميل):

- كفى ثرثرة.. استعد للموت.

أتبع قوله بأن انقضّ على خصمِه مطلقا صرخة قتالية.. تعالى صَليل السيوف وتردد صداها في أرجاء القاعة.. كانت ضربات (إميل) ماهرة وقوية بالرغم من فقده للدماء التي تنزف من كتفه لتلوّث ذراعه اليسرى.. إلا أن الغضب والكراهية هما من يحركانه ويدفعان بقوة جسده إلى أقصى حد.. لم يكن (غالياس) أقل براعة في استخدام السيف بطبيعة الحال وإن ظهر الاختلاف في أسلوب استخدام كل منهما له.. أدرك (إميل) منذ اللحظات الأولى للمبارزة أنه ليس نِدّا لخصمه الذي من

الواضح أنه يفوقه حنكة وقوة بكثير.. إنه يتلاعب به كما يتلاعب أي حيوان مفترس يحترم نفسه بفريسته قبل التهامها.. لكنه لم يُبالِ.. ولم يستسلم.. كان بالكاد يحافظ على توازنه وثبات قدميه أمام ضربات خصمه العنيفة التي شعر بها تهوي على سيفه كالجلاميد حتى تكاد تقتلعه من مكانه.. في المقابل أدرك (غالياس) أن (إميل) يتقن استعمال السيف ويجيد توجيه ضرباته.. صحيح أنه تعمد إصابته بخدوش سطحية أكثر من مرة لكن هذا لم يَثنِ الأخير عن مواصلة القتال..

(غالياس) وهو يتصدى لضربات سيف (إميل):

– أرى أنك بارع في المبارزة.. أخبرني من أين تعلمت هذا الأسلوب المميز في القتال؟

(إميل) وهو يلهث ويتلقى ضربة (غالياس) بجانب سيفه:

– أخبرني أنت أيها المسخ.. ألا تملّ أبدا من طرح الأسئلة؟

أعقب قوله بأن استجمع ما بقي له من قوة ثم انقض صارخا على خصمه.. وجه (غالياس) ضربة بالغة القوة إلى السيف الذي يشق الهواء نحو بطنه.. كانت ضربته كفيلة بأن تنتزع السيف من قبضة حامله لا سيما إن كان بشريا.. ولكن يا للعجب.. ظلّت قبضة (إميل) مُتشبّثة بالسيف بصلابة منقطعة النظير لتقتلعه ضربة (غالياس) مع سيفه ليطير في الهواء قبل أن يرتطم ظهره بعنف في الجدار المقابل ويحطم معه دِرعا مُحاطة

برمحين متقاطعين ثم يسقط أرضا.. حاول النهوض مستندا على سيفه بكلتا يديه لكن جسده خانه فتهاوى على ركبتيه وهو يلهث بشدة.. وقبل أن يكرر المحاولة شعر بيد ذات قوة كاسحة تمسك بتَلابيبِه وترفعه عاليا ليواجه الجمجمة الحيوانية...

(غالياس) بصوته الذي يخلو من أي انفعال:

- كفى.. جسدك لم يعد يحتمل.. لا أريدك أن تموت.

رفع (إميل) سيفه بإصرار عجيب وصوبه نحو نحر خصمه مطلقا صرخة غاضبة لكن أصابع يد خصمه الأخرى التفت حول معصمِه قبل أن يصل سيفه إلى هدفه واعتصرته لتجبره على إفلات السيف وهو يتأوه ألما..

(غالياس):

- مثابر حتى النهاية.. رائع.

ردد (إميل) بأنفاس ثقيلة حاقدة:

- سأقتلك.. سأقتلك حتى لو كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي.

- سأعيد سؤالي مرة أخرى.. لم لا تستسلم فحسب؟ لم المقاومة؟ ما الجدوى من كل هذا؟

(إميل) مركزا نظراته على (غالياس):

- لا أظنّك تفهم حتى لو أخبرتك.

- أجب فحسب.

(إميل) ويده اليسرى تتسلّل خلسة وببطء شديد نحو جيب بنطاله دون أن يرفع بصره عن (غالياس):

- هل تعرف شيئا عن الكرامة؟ المبادئ والقيم؟ إن كنت لا تعرف -وهذا ما أجزم به- فدعني أخبرك أنه لا قيمة للمرء من دونها.. صاحب الكرامة لا يتنازل عنها أو عن جزء منها إذ أنها لا تتجزأ.. لذا إن تنازلت واستسلمت لمطالبك فستسقط كرامتي.

- فلتسقط.. أليست حياتك أولى؟ ألا تخاف الموت؟

(إميل) ويده اليسرى تتحسّس شيئا بهدوء في جيب بنطاله:

- لن تفهم أبدا.. حينما يتعلق الأمر بالكرامة فلا مكان للخوف.. هذا ما تعلمته منذ صباي.

- أمممم.. ربما لهذا لم أعد أرى الخوف في عينيك.. ولكن.. لنفترض أنك ركعت مقابل أن أطلق سراحك.. حياتك مقابل كرامتك المزعومة هذه.. ما قولك.. أليس هذا عادلا؟

ابتسم (إميل) بسخرية قائلا:

– ألم أقل لك أنك لن تفهم أبدا.. من الواضح أنك بلا كرامة.. سمعتك تمجّد ذكر حاكمكم هذا الذي تدعوه بـ((الإمبراطور الأعظم)) كما لو أنك تمجد آلهة وليس مخلوقا مثلك.. أي ذلّ هذا؟! ماذا ستفعل إذن لو كنت أمامه؟ هل ستركع له؟ هل..

قاطعه (غالياس) وهو يضرب ظهره بالجدار:

– الإمبراطور الأعظم يركع له الجميع.. نركع له إجلالا واحتراما.

(إميل) بتهكم:

– احتراما أم خوفا؟

ضرب (غالياس) ظهر (إميل) بالجدار مجددا وقال:

– الزَم حدودك أيها البشـــري وتأدب.. لا تنسَ أن مصيرك رهن إشارتي.

– هذا ما تظنه.

قرب (غالياس) رأسَه من وجه (إميل) وقال بصوت كالفحيح:

– سترى أيها العبد.

– خسِئت.

كان هذا ما يريده (إميل) بالضبط.. لقد تعمد استدراج خصمه بالثرثرة كي لا ينتبه إلى ما يفعله حتى هذه اللحظة.. لذا ما إن أنهى هُتافه حتى سحب يده بسرعة من جيب بنطاله ليهوي بسكين الطعام على جانب عنق (غالياس) الذي لم يتوقع حدوث هذا فزمجرَ لهذه المفاجأة وأفلتَ (إميل) الذي سقط أرضا وسارع باغتنام الفرصة بأن امتدت يده لالتقاط أحد الرمحين و.. داست قدم ثقيلة على كفّه في ذات اللحظة التي أطبقت أصابعه على الرمح فأطلق صرخة ألم قصيرة ورفع بصره بغِلّ نحو (غالياس) الذي انتزع السكين من جانب عنقه وتأملها قليلا ثم قال:

– هذه السكين.. كيف سرقتها؟ أممم.. فعلتها عندما أدرت ظهري لك عائدا إلى مقعدي.. كانت تلك فرصتك الوحيدة أيها اللص.

كانت يد (إميل) الأخرى في هذه اللحظة تتحسّس ما حولها لالتقاط أي شيء يصلح كسلاح لكنها توقفت عن البحث عندما ضغط (غالياس) بقدمه على كف (إميل) الذي أغمض عينيه بألم وتأوّه بصوت مكتوم..

انحنى (غالياس) عليه وقال:

– كنت سَـخيّا معك.. منحتك الفرصـة مرتين لكنك أضـعتهما بحماقتك.

قالها وهو يُلوِّح بالسكين في وجه (إميل) الذي راوده شعور سيئ وهو يتابع ببصره السكين الملوثة بدماء سوداء!

(غالياس) وهو يقبض على أذن (إميل) اليسرى:

- هذا لن يقتلك ولكنه سيعلمك كيف تتأدّب مع أسيادك.

في اللحظة التالية ودون أن يمنح (إميل) فرصة التصرف مرر السكين بحركة خاطفة وقطع أذنه! أطلق (إميل) صرخة شنيعة جديرة بأن تخرج ممن قطعت أذنه.. لكن صرخته تلك سرعان ما اختنقت عندما شعر بشيء غضّ يدسّ في فمه ليبصقه على الفور.. إنها.. إنها أذنه المبتورة!

(غالياس):

- هل فهمت الآن؟ هل استوعبت الدرس جيدا؟

ردد (إميل) بإنهاك شديد وهو يحدق إلى أذنه:

- سأقتلك.. سأقتلك..

تصلّبت نظرات (غالياس) على (إميل).. وهذه المرة لم يقل شيئا على الإطلاق.

حزنٌ عَميق

إنه منتصف الليل.. البلدة كلها نائمة باستثناء دوريات الحراسة التي تجوب الطرقات بحثا عن مُتسلّل لا وجود له بالإضافة إلى الحراس الذين يطوقون البلدة والحقول من كل الجهات مصوبين مصابيحهم في كل اتجاه كيفما اتّفق.. لو قدر لأحد أن يتواجد في ذات الغرفة مع (أليتا) في هذه الساعة لأدرك أنها تمرّ بوقت عصيب.. العرق يغمرها و.. شهقت بعنف وهي تهبّ من رُقادها فَزِعة.. تلاحقت أنفاسها وهي تحدق إلى الفراغ المظلم قبل أن تستوعب أن ما مرت به ليس سوى كابوس.. أطرقت برأسها وتبدى حزن عميق على ملامحها.. من يعرف ما مرت به لن يصعب عليه أن يعرف أنها تبكي بحرقة في داخلها دون أن يظهر ما يدل على ذلك على وجهها -باستثناء نظرتها المتصلبة- إنه ذات الكابوس الذي لا ينفكّ عن زيارتها معظم الليالي.. ليتها لم تولد في هذا العالم.. ومضات من حياتها البائسة تمر أمام ذاكرتها.. طفولتها التي لا تختلف عن طفولة أي إنسان على هذا الكوكب.. لقد نشأت وسط عائلة مكونة من أم وأب وأخ يصغرها قليلا.. على الرغم من حياة العبودية التّعسَة إلا أن وجودها مع عائلتها جعل تلك الحياة محتملة.. حتى جاء ذلك اليوم الذي قرر فيه سيدها أنه قد حان الوقت لبيعها.. كانت وقتها تبلغ من العمر العاشرة.. توسُّلات والديها لم تثمر بأي نتيجة كما هو متوقع.. هكذا فارقت عائلتها وسط الدموع ومشاعر الحزن ووجدت نفسها تعمل لدى سيدة لا تقل سوءا عن سيدها السابق.. عاشت أياما سوداء كقلوب

أسيادهم التيتانيين.. صحيح إنها صادقت بعض العبيد لكن هذا لم يعوّضها أبدا عن عائلتها.. مرت سنوات مريرة دون أن ترى عائلتها أو تتواصل معهم ولو لمرة واحدة.. توسلت كثيرا لسيدتها أن تسمح لها بمكالمة أهلها ولو لدقيقة واحدة.. لكن الرد يأتيها دائما على شكل بَصقَة أو صَفعَة على وجهها دون ذكر السّباب والقذف المشين.. تكرر هذا كثيرا حتى أصابها اليأس.. كانت قد أتمت ثمان سنوات عند سيدتها القبيحة حتى جاء ذلك اليوم الذي لن تنساه لسبب بسيط وهو أنه قد حفر أثره على وجهها وتحديدا على خدها الأيسر.. إنه القطع الذي لم ينجح الوسم الذي تحمله في ذات الموضع في إخفائه.. كان خطأ تافها في نظرها ونظر أي مخلوق عاقل لكنه شنيع في رأي سيدتها.. لقد أخطأت في مقدار بعض التوابل التي ينبغي إضافتها إلى الطعام فماذا كانت النتيجة؟ أصبح الطعام ذا طعم مُقرف كالوحل حسب تعبير سيدتها التي أرغَت وأزبدَت في وجهها حتى تناثرت قطرات من لعابها عليها وكأن ما حدث كارثة ما بعدها كارثة.. التقطت سيدتها أقرب شيء إليها وكان لسوء حظ (أليتا) مقصًّا هوت به على خدها ليترك أثرا لا ينمحي.. لم تكتفي سيدتها بهذا وإلا لهان الأمر.. لا زالت تتذكر كيف ارتجفت كل جوارحها عندما علمت أنها قد بيعت إلى المعظم (غالياس).. تتذكر كيف انهارت باكية تتضرع إلى سيدتها وتقبل قدميها.. رمتها سيدتها بنظرة اشمئزاز وكأنها ترمق كومة فضلات وقالت ببرود شديد:

- فات الأوان يا صغيرة.. لقد تم بيعك بالفعل.. استعدي للمغادرة.

اتسعت عيناها بذُعر لا يوصف واختنقت الكلمات في حلقها.. هي تعرف والكل يعرف أن العمل عند المعظم (غالياس) يعني الموت وبأبشع وسيلة فسمعته الرهيبة يعرفها القاصي قبل الداني.. هكذا وجدت نفسها مرة أخرى تعمل عند سيد جديد -وأي سيد- منذ أن وطئَت مقاطعته وهي تراقب بذُعر زملاءها يعدمون واحدا تلو الآخر.. تترقب بخوف اليوم الذي يقع فيه الاختيار عليها.. هكذا يمكن تخيل كيف مرت عليها الأيام والليالي.. تنام كل ليلة دون أن يفارقها الشعور أنها تنامها للمرة الأخيرة.. لهذا اجتهدت وثابرت في العمل حتى جاء ذلك اليوم الذي استدعاها فيه سيدها وأصدر إليها أمرا عجيبا.. لقد أمرها هي دون سواها أن تقوم بإحصاء عدد من بقيَ حيا في أحد أجزاء حديقته -حديقة الخوازيق- في بادئ الأمر لم تفهم السرّ وراء اهتمام سيدها بشيء كهذا.. تساءلت في نفسها عن جدوى هذا إن كان سيدها لم ولن يتوقف عن غرس عبيده في حديقته في كل الأحوال.. لكنها في النهاية نفّذت الأمر -لم يكن خيار الرفض واردا من الأساس- غطّت فمها وأنفها بقطعة قماش عقدتها حولها وقد قررت أن تنهي مهمتها بسرعة.. كانت تتحاشى النظر إلى الوجوه وتكتفي باحتساب من يئنّ أو ترتعِش أطرافه السفلية.. كانت تقوم بمهمتها على مَضض ولا تدري

كيف أفلتت منها نظرة واحدة غيّرت كل شيء.. الجهل إما أن يكون نقمة أو نعمة على صاحبه.. ليتها لم تُلقِ تلك النظرة.. بالرغم من أن جميع الوجوه تتشارك ذات الشحوب والنظرات الزائغة المتعطّشة للموت إلا أن واحدا من تلك الوجوه شد انتِباهها.. فقد كان ينظر إليها ويمد يده المرتعشة نحوها ويحاول قول شيء ما إلا أن الحروف أبت أن تخرج من فمه.. ضيقت عينيها وهي تُمعن النظر إليه.. هذا الوجه مألوف جدا.. تكاد تقسم أنها تعرفه.. اقتربت بحذر لتراه عن قرب.. إنه.. إنه.. اتسعت عيناها حتى كادتا تخرجان من محاجرهما بذهول وعدم تصديق.. مستحيل.. لا يمكن.. إنه.. إنه والدها! ارتجف فكّها السفلي وهي لا تكاد ترى شيئا من بين دموعها.. تنبّهت إلى اليدين اللتان امتدتا من جسدين يجاوران والدها.. إنهما.. إنهما والدتها وأخوها الأصغر! لا.. هذا غير صحيح.. تضاربت مشاعرها ما بين الحزن والعجز والقهر.. أطلقت عويلا طويلا يقطع نِياط القلوب وأجهشت في البكاء كما لم تفعل من قبل وهي تتحسّس أقدامهم المتدلية واحدا تلو الآخر وتضمّها إلى وجهها الغارق في الدموع لتبللها.. طوال تلك السنوات وهي تمنّي نفسها بلمّ الشّمل مع عائلتها ولو لمرة واحدة.. لكنها لم تتصور أبدا أن يكون لم الشمل بهذه الصورة! انهارت على ركبتيها تحت أقدامهم وهي تواصل بكاءها.. كان ذهنها مُشوّشا ويائسا إلى حد أنها لم تسمع الخطوات الثقيلة التي تقترب من خلفها.. إلى حد أنها لم تجفل عندما هبطت تلك اليد

الثقيلة على كتفها بهدوء وبرز رأس يرتدي جمجمة حيوانية ليحاذي جانب رأسها الأيمن ليقول بصوته العميق المحايد:

- أنصحك بالكفّ عن البكاء وإلا لحقتِ بهم.

أطلق طائر الشّؤم الرابض على كتفه صيحة تأييد.. اهتز جسدها بمشاعر الحزن والغضب.. لا تدري كيف وجدت يدها طريقها إلى الحجر الرابض بجانبها.. لا تدري كيف أطلقت صرخة تحمل كل حزنها ومقتها وهي تهوي بالحجر على رأس سيدها.. لكن.. قبضت يد سيدها على معصمها قبل أن تصل ضربتها إلى هدفها وفي أقل من لمح البصر مرقَ شيء حاد على عينها اليسرى ليُمزقها وتتناثر الدماء على وجهها وعلى جمجمة سيدها.. أطلقت صرخة ألم وقهر وهي تحاول التّفلُّت من (غالياس) الذي قال وهو يُلوِّح بمخلبه الملوث بدمها أمام وجهها:

- سأكتفي بعينك هذه المرة.. في المرة القادمة ستُسلخين حية قبل أن أغرسك بجانب عائلتك الحقيرة.

سكت قليلا ليسمح لها باستيعاب ما قال وهي تجهش أكثر في البكاء ثم أردف بهدوء:

- والآن آمرك بالصمت.. كفي عن البكاء حالا وإلا نفذت وعيدي.

بالرغم من انخِراطها في البكاء إلا أنها تعرف جيدا أن سيدها لن يتردد في تنفيذ وعيده فهو يفعل أكثر مما يقول ولن يضيره لو زاد عدد

ضحاياه لهذا اليوم واحدا.. صحيح أنها لم تعد راغبة في الحياة لكنها لا تريد أن تموت بالخازوق.. لذا حكمت عقلها وتمالكت نفسها وهي تكتم حزنها وألمها دون أن ترفع عينها اليمنى التي باتت وحيدة..

ربت (غالياس) على خدها بلطف عجيب وقال:

– عبدة مطيعة.. هكذا أريد لعبيدي أن يكونوا.. أن يكون ولاؤهم المطلق لي وحدي لا لعائلاتهم.. والآن أجيبي.. أيهما أحب إليك.. أنا أم عائلتك؟

ولأنها تعرفه جيدا نظرت إليه بعين محمرة وقالت بصوت خفيض:

– أنت.

– أنت؟

فهمت ما يعنيه فقالت بصوت مُختنق:

– أنت يا سيدي.

مسح على رأسها بحنان مبالغ فيه وقال:

– رائع.. رائع.. هكذا أصبحت عبدة مخلصة.. سأعتبر عائلتك قربانا منك...

حررها وهبّ واقفا دون أن يبعد بصره عنها وتابع:

– وسيَسرّك بالتأكيد أن أعلن قبولي لهذا القربان.

أطلق الطائر صيحة تأييد مجددا.. استدار (غالياس) عائدا من حيث أتى وقال:

- تابعي عملك يا عبدتي المخلصة.

منذ ذلك اليوم لم تذرف دمعة واحدة.. فقد اكتفت بالبكاء في قلبها.. ومنذ ذلك اليوم لم تهنأ بالنوم كباقي البشر إن كانوا يهنؤون بالنوم.. معظم الليالي ترى عائلتها المغروسين على الخازوق وهم يمدون أيديهم نحوها ويرمقونها بغضب ويلومونها لأنها لم تقتلهم لتريحهم من عذابهم ذلك اليوم.. ويبدو أن لعنة عائلتها لم تَكتفي بمطاردتها أثناء نومها وإنما امتدت حسب اعتقادها لتصيبها بالنحس.. كل من شاركها السكن لم تطل إقامته.. ما هي إلا أيام معدودة حتى يتم إعدامه بالخازوق.. ولهذا يتجنب الجميع مشاركتها الغرفة ولو كان الأمر بيدهم لتجنبوا العمل معها أيضا.. هي تعرف أنهم يطلقون عليها لقب ((المنحوسة)).. لا يمكنها لومهم.. حانت منها نظرة إلى السرير الذي كان يشغله المدعو (إميل).. شعور غريب راودها وهي تحدق عبر ظلام الغرفة -التي اعتادته عينها- إلى سريره الشاغر.. شعور لم تستطع فهمه حتى الآن وكأنه.. وكأنه ترك فراغا في نفسها لم يتركه من سبقوه.. هل تفتقده؟ هي تعرف الجواب لكنها تأبى الاعتراف به.. ربما لسوء تعامله معها.. على الأرجح أن أمره قد انتهى.. فهو لم يعد منذ أن قام -بحماقته- بخرق حظر التجوال.. الجميع يعلم عقوبة خرق أي قانون في هذه المقاطعة.. ولكن

هذا الشاب فعل ما هو أكثر من مجرد خرق القوانين.. لقد أهان سيدها وضرب بأوامره عرض الحائط أمام الجميع.. لقد فعل ما لم ولن يفعله أي إنسان ولو بعد آلاف السنين.. ابتسمت دون أن تبارح عينها السرير وهي تسترجع ما فعله بالتفصيل وكأنه.. انتشلها من خواطرها صوت باب المنزل الخارجي وهو يفتح فجأة لتتبعه وقع أقدام كثيرة تقترب بسرعة من غرفتها! وقبل أن تستوعب أي شيء اقتحم غرفتها رجلان يحملان ما بدا لها للوَهلةِ الأولى جثة هامدة ألقيا بها وسط الغرفة التي بدد ظلامها النور المُتسلّل من فتحة الباب.. تبع الرجلان مباشرة رجل ثالث يحمل الكرة المعدنية التي كانت تقيد كاحل (إميل) ويرافقه (تشيه) الذي أمره بتقييد الكرة إلى كاحل الجثة! كانوا يعملون متجاهلين وجودها تماما حتى أن أحدهم لم يكلّف نفسه عناء الالتفات إليها.. الخصوصية هناك تكاد تكون معدومة -باستثناء بيت الخلاء- احتاجت إلى بضع ثوان لتستوعب أن الجثة تتنفس بصعوبة وأن عيناها نصف المفتوحتين تحدقان إلى الفراغ بلا وَعي.. ثم احتاجت إلى بضع ثوان أخرى كي تُدرك أن هذا الجسد المُثخن بالجراح والذي يحمل ضِمادةً على أذنه اليسرى وأخرى على كتفه اليسرى ليس سوى شريكها الجديد (إميل)! كانوا قد انتهوا من تثبيت السلسلة إلى كاحله عندما تساءلت:

- ما هذا؟ ما الذي حدث؟

تجاهلها الجميع في حين بصق (تشيه) على (إميل) ورماه بأقذر الشتائم قبل أن يندفع مع رجاله مغادرين الغرفة.. أغلقت الباب ثم أنارت مصباح الغرفة وتأملته قليلا.. هذا الشاب لن يكفّ عن إبهارها بتهوّره.. لا بد وأنه قد أغاظ السيد المعظم حتى يعيدونه إليها هكذا كالخرقة البالية..

"أهلا بعودتك أيها الشاب المتهور". أسرتها لنفسها وقد عاودها ذات الشعور الدافئ الذي لا يمكنها تفسيره...انحنت عليه وقالت:

- أنت.. هيا انهض.. دعني أسا..

بَتَرَت كلامها عندما لاحظت أنّ عينيه مُغمضتان وتنفسه منتظم.. لقد نام دون أن يشعر.. لا تدري كم مر عليها من الوقت وهي تحدّق إلى وجهه وكأن هذا يشعرها بالارتياح.. وكأنها تراه للمرة الأولى بهذا القرب.. أدركت متأخرة أنها تحدق إليه بابتسامة خفيفة تعلو شفتيها! هزّت رأسها وكأنها تطرد فكرة ما ثم نهضت وهمست دون أن تبارح عينها وجهه:

- لا بأس (إميل).. يمكنك النوم هنا الليلة.

أطفأت المصباح واستلقت على سريرها ولم تَنسَ أن تلقي عليه نظرة أخيرة بابتسامة حانية.. ودت لو قالت له: ((تصبح على خير)).. لكنها تعرف أن ما ينتظره في الصباح أبعد ما يكون عن الخير فآثرت الصمت

واكتسى وجهها بالأسى عليه قبل أن تدير ظهرها وتغمض عينها.. ما زال لديها بضع ساعات للنوم حتى الصباح.

مُعضِلة

استيقظت (أليتا) قبل شروق الشمس كعادتها دوما.. ألقت نظرة سريعة إلى حيث كان (إميل).. عينها التي اعتادت الظلام رأت خيال جسده كما تركته تماما.. تنهدت ثم نهضت بتثاقل لتنير المصباح قبل أن تمارس طقوسها الصباحية المعتادة.. اغتسلت ثم توجهت إلى المطبخ قبل استيقاظ الجميع لإعداد إفطارها سريعا ثم عادت إلى غرفتها وهي تحمل حصة (إميل) من الإفطار.. دلفت الغرفة متوقعة أن تراه كما هو لكنها فوجئت به جالسا على طرف فراشه يتحسّس ضِمادة أذنه اليسرى بشرود قبل أن يرفع بصره نحوها بتجهم.. لم تجد ما تقوله فاكتفت بابتسامة خفيفة وهي تضع صحفة الطعام على المنضدة المجاورة له وهو يتابعها بعينين حادتين لم تطرفا منذ أن دخلت الغرفة.. تحاشت نظراته وهي تنسحب لتجلس بدورها على طرف سريرها..

(أليتا) وهي مستمرة في تحاشي النظر إليه:

- ألن تأكل طعامك؟

(إميل) بصرامة وهو مستمر بالتحديق إليها:

- خُذيه بعيدا.. لا أريده.

نظرت إليه باستغراب وقالت:

- لا تريده؟ لكن.. لكنك لم تذُق شيئا منذ ليلة البارحة..

صرخ (إميل) في وجهها ورمى بصحفة الطعام ليتناثر ما عليها في كل مكان:

- قلت لا أريده.

أفزعتها صرخته فشهقَت وهي تتأمّل ما أحدثَه من فوضى قبل أن ترفع عينها المغرورقة بالدموع إليه وتتساءل:

- لماذا؟ لماذا فعلت هذا؟

نظر إليها بثبات وسألها:

- ما الذي يَحويه هذا الطعام؟

- ما الذي يحويه؟! أي سؤال هذا؟! إنه خضار مهروس لا أكثر.. أنا أعددته بنفسي.

ضغط (إميل) على كلماته قائلا:

- لا تكذِبي أيتها العوراء.. ألم يأمرك سيدك الخسيس بإضافة أشياء قذرة إلى الطعام؟ أجزاء بشرية؟ فضلات؟ أو أي شيء قذر مما يروقُ لنفسه القذرة؟

صحيح أنها تكن الكراهية لقاتل أهلها في صدرها لكنها تؤمن كذلك بتملّكه لها وحقه في التصرف فيها كيفما يشاء وإن كان في ما تكره حالها كحال كل العبيد في كل مكان وزمان.. لذلك هبّت من مكانها وهتفت:

– أنت.. كيف تجرؤ على نعت السيد المعظم بهذا الوصف؟ أنا لا أسمح لك ب..

قاطعها باستخفاف:

– تسمحين أو لا تسمحين.. من يهتم؟ سأنعتُه بكل شتيمة ونقيصَة كيفما أشاء...

ثم تابع بجدية:

– والآن أجيبي عن سؤالي.. هل أضفتِ أي قذارة في الطعام؟

لا فائدة من مجادلته في أمر سيدها.. لقد أدت ما عليها.. لذلك قررت ألا تجادله أكثر وقالت بمرارة وهي تعاود الجلوس إلى سريرها:

– هل ستصدقني إن أقسمت لك أن سيدي لم يأمرني بشيء كهذا؟ هل ستصدقني إن قلت لك أني لم أضع شيء سوى ما تراه عيناك؟ هل ستصدقني؟

نقل (إميل) بصره إلى بقايا الطعام المتناثرة ثم إليها وقال بتجهّم:

– طبعا لا.

زفرت بضيق ثم انحنَت لتلتقط ما تناثر على الأرض وقالت:

– المطبخ في نهاية الممر المقابل لهذا الممر.. يمكنك إعداد طعامك بنفسك هناك إن شئت –ثم ألقت نظرة على ملابسه وتابعت–وإن كنت

ترغب بالاغتِسال فدورة المياه في نهاية الممر الذي تقع فيه غرفتنا.. آخر باب على اليمين.

نظر إليها طويلا وهي منهمكة في التقاط ما يمكنها التقاطه من الأرض ثم قال:

- لماذا؟

التفتت إليه متسائلة:

- لماذا ماذا؟

(إميل):

- لماذا تسمحون لهذا المسخ بإذلالكم والتحكّم في مَصيركم بهذا الشكل المهين؟ مهما بلغ من جبروت وقوة يظل فردا واحدا وأنتم عددكم يتجاوز المئات وربما أكثر.. لماذا لا تثورون عليه وتتخلصون منه؟

تبدى الخوف على ملامحها وأفلتَ من يدها ما كانت تجمعه وهي تحدق إليه مَصعوقَة ثم قالت بصوت أقرب للهَمس وهي تنقل بصرها إلى الباب ثم إلى النافذة وكأنها تتوقع أن يتنصّت عليهما أحد:

- أخفض صوتك.. ما هذا الذي تقوله؟! هل جننت؟

- الجنون هو حياة الذل التي تعيشونها.

– تريد منا أن نتمرّد على مالكنا وولي نعمتنا؟ أنت مجنون.. إنه يملكنا ومن حقه التصرف بنا كيفما شاء.. كلنا نؤمن بهذا فبأي حق نتمرد عليه؟

– بحق الحرية.. بحقّ الكرامة إن كنتم تؤمنون بهما.

رددت وكأنها تسمع هذه الكلمات لأول مرة:

– حرية؟! كرامة؟! ما هذا الكلام؟...

تابعت وهي تعود إلى ما كانت تقوم به:

– اسمعني.. إن كنت تظن أن كلامك الفارغ هذا سيجد أذنا صاغية فأنت مخطئ.. أنصحك ألا تكرّره ثانية.

(إميل) وهو يرميها بنظرة احتقار:

– إن كنتم جميعا تفكرون بذات الطريقة فأنتم تستحقون ما يفعله ذلك المسخ بكم.. حتى الحيوانات تبدي بعض المقاومة عند المبالغة في إيذائها.

تجاهلته وهي تضع ما جَمعتْه على الصحفة قبل أن ترفعها لتضعها على المنضدة المجاورة لها وتجلس إلى سريرها متحاشية النظر إليه.. نور الصباح يتسلل ببطء من خَصاص النافذة.. زفر (إميل) بضيق ثم التقط الملابس البنية من درج منضدته وسار نحو الباب وهو يجرّ الكرة المقيدة إلى كاحله..

(أليتا):

- إلى أين؟

تجاهلها وهو يخرج من الغرفة.. أطلت برأسها من خلفه لتراه متوجها نحو دورة المياه.. خلع ملابسه أولا ثم انتزع ضمادتي أذنه وكتفه اللتان تلوّثتا بالدماء.. تأمل نفسه من خلال المرآة ثم امتدت يده متجاهلة جراح جسده لتتحسّس الفراغ الذي تركته أذنه المبتورة.. إنها تنزف قليلا.. تصاعد الغضب والكراهية في أعماق قلبه وأطلق صرخة غاضبة وهو يهوي على المرآة ليُهشّمها.. اغتسل سريعا وبدل ملابسه مضطرا.. ما إن دلف إلى الغرفة حتى هبّت (أليتا) عندما رأت الأثر الدامي على جانب رأسه وكتفه وقالت شيئا عن أن جراحه ستتلوّث إن بقيت هكذا.. لكن ما أثار دهشتها بحق هو أنه لم يعترض ولم يقل شيئا البتّة.. فقد اكتفى بأن جلس على طرف سريره بصمت وخلع القميص لتنهمك هي في تنظيف جراحه وتضميدها كيفما اتفق.. الحياة بدأت تدبّ في المنزل.. هذا واضح من الأصوات التي تتناهى إليه.. انفتح باب الغرفة بهدوء فالتفت كل من (إميل) و(أليتا) إلى القادم الذي لم يكن سوى (ويل) الذي أطل برأسه وتبدت الصدمة والضيق على وجهه للحظة قبل أن يستدرك نفسه ويتظاهر بالحرج قائلا:

- صباح الخير (أليتا).. صباح الخير يا.. يا..

أنقذته (أليتا) من ضعف ذاكرته وقالت:

- اسمه (إميل).

(ويل):

- احم.. صباح الخير (إميل)..

ثم دلف الغرفة دون إذن كعادته يتبعه فتى صغير يشبهه كثيرا..

(ويل) بصوت خفيض وابتسامة متحفظة:

- (إميل)... هذا أخي الأصغر (ليو).. لقد جاء ليشكرك بنفسه على إنقاذك لحياته بالأمس...

نظر إلى أخيه بابتسامة مشجّعة:

- هيا (ليو).. قل له شكرا.

ابتسم (ليو) وأطلّت من عينيه نظرة امتنان ثم اندفع فجأة نحو (إميل) وعانقه بحرارة آلمته قليلا..

(ويل) بذات الصوت الخفيض وكأنه يخشى أن يسمع أحد كلامه:

- أعتذر يا (إميل) بالنيابة عن أخي.. فهو لا يستطيع النطق منذ كان طفلا.

هز (إميل) رأسه متفهما بوجوم..

(أليتا) وهي تربت على رأس (ليو):

- لقد تحسّن كثيرا.. بالكاد كان يمشي بالأمس.

(ويل):

- بالفعل.. أظنه يستطيع العمل اليوم.

(أليتا):

- من الأفضل أن يفعل.. أنت تعرف..

فجأة اقتحمت مجموعة من الرجال الغرفة.. التفت الجميع نحو (تشيه) ورجاله الذي رفع حاجبيه بدهشة مصطنعة ثم خفضهما وابتسم بخُبث عندما وقعت عيناه على (ليو) الذي ما زال يعانق (إميل) قبل أن يصاب بالهلع ويتخلى عنه في حين سدد (إميل) نظرات ملؤها الحقد والكراهية تجاه (تشيه)..

(تشيه) وهو يجيل بصره بين الوجوه بحنان ساخر:

- يا للروعة يا للروعة.. يا لها من لحظات حميمة.. إنكم تلمسون شغاف قلبي.. كم أكره أن أقاطع هذه اللحظات المؤثرة لكنها أوامر السيد المعظم كما تعلمون...

ثم ركز بصره على (إميل) وقال:

– أوه.. نسيت أن أحيّيك.. صباح الخير.. المعذرة.. يجب أن أكون دقيقا وأقول –مال نحو (إميل) وأضاف باستمتاع: صباح العذاب.

ثم أصدر أمره بصرامة مفاجئة:

– هيا يا رجال.. خُذوه.

ما هي إلا دقائق حتى وجد (إميل) نفسه مقيدا من جديد إلى ذات العارضة الخشبية وسط النظرات التي تتراوح ما بين الشامتة والمُشفِقة واللا مبالية.. الجو بارد والسماء مُلبّدة بغيوم سوداء تنذر بالويل وكأنها تتَنبّأ بما يدّخره له معذبه الذي اتّكأ باسترخاء شديد في خيمته وبجانبه ما لذ وطاب من طعام وفاكهة وشراب في حين استقر طائر الشؤم على عمود الخيمة بصمت.. وقف (تشيه) بجانب سيده منتظرا أوامره.. رمى (إميل) كل هذا بنظرات استعلاء رافعا رأسه بشموخ.. تساءل في سرّه عما سيتلقاه اليوم من عذاب.. كل ما يأمله هو ألا يلجؤوا لاستخدام ذلك المسحوق الذي نسي اسمه.. تلك تجربة لا يتمنى تكرارها أبدا.. تركزت عيناه على شيئين مَركونين بجانب الخيمة.. دلو ماء وكيس قماشي لم يصعب عليه تخمين استخدامه.. كان يحاول فهم نوع العذاب الذي سيتجرعه لهذا اليوم.. أشار (غالياس) إلى (تشيه) الذي انحنى لسيده ثم التقط أحد أطباق الطعام الصغيرة مع ملعقة غريبة الشكل وتقدم من

(إميل) الذي أشاح بوجهه معلنا رفضه لتناول هذا الشيء.. أصدرت معدته أصواتا تفضح جوعه لتتّسع ابتسامة (تشيه) الشامتة في حين أدرك (غالياس) سبب تمنعه فقال:

– اطمئنّ أيها البشري.. طعام البارحة فقط هو الذي احتوى ما تتقزز منه نفسك.. أما هذا فإنه طعام طيب كأي طعام آخر.. هيا كل ولا تتردد.

رائحة الطعام والحق يقال تفتح الشهية.. لكن ما الذي يضمن له أن معذبه صادق؟ لا.. لن يدخل فمه شيء من طعامهم.. ربما يكتفي بتناول ثمار الفاكهة لاحقا إن عاش.. هكذا حسم أمره واستمر بتجاهل معدته..

(غالياس) وهو يتناول ثمرة فاكهة:

– كما تشاء...

ثم أشار إلى (تشيه) برأسه وتابع:

– ابدأ.

تابع (إميل) (تشيه) وهو يلتقط الكيس القماشي.. وكما توقع تماما انكتمت أنفاسه بغتة عندما غطى (تشيه) رأسه بالكيس.. بعدها شعر بالماء البارد يقذف على جذعه العاري لينتفض قليلا.. ما الذي ينوون فعله؟ ما الذ.. في اللحظة التالية شعر بمن يمسك بإحدى يديه المُقيدتين إلى الخلف.. ثم.. أطلق (إميل) صرخة ألم هائلة لم ينجح الكيس في كتمانها

عندما غرس (تشيه) إبرة رفيعة تحت أظفر أصابع يده اليمنى.. وهكذا بدأ اليوم الثاني من العذاب..

- ها قد وصلنا.

قالتها (أدريانا) وهي تخطو على مَهلها بين أشجار الغابة القريبة من الكهف.. تلفّت (يزن) حوله باحثا عن شيء ما وتساءل:

- أين؟ أنا لا أرى أي قبر هنا؟

- هنا أيها الأحمق.

قالتها وهي تنزل على ركبتيها أمام إحدى الأشجار وتخلع جَعبَة السهام والقوس لتضعهما جانبا مع صيد اليوم من الطيور ثم ضمت كفيها وأغمضت عينيها وهي تُتمتم بصوت هامس أقرب للصلاة.. توقف (يزن) خلفها ودقق النظر إلى الشجرة.. لاحظ الحروف المحفورة على جذعها والتي شكلت كلمة ((سارة)).. إذن هذا هو قبر والدتها!

لم يكن راغبا بالمجيء من الأساس.. كان يقضي وقته في مراقبة ما يجري لـ(إميل) في تلك البلدة النّحس إلى أن جاءت (أدريانا) إليه وقالت له الكثير من الكلام عن أن الاكتفاء بالمراقبة لن تفيد (إميل) ولن تخفف عنه.. دخل في جدال عقيم معها ثم جاء والدها ليصطف بجانبها..

كلاهما اتفقا أنه عليه أن يصفي ذهنه ويبتعد عن المراقبة ولو قليلا.. عليه أن يشغل نفسه بشيء آخر ريثما يستقر على قرار أو خطة معينة.. بالطبع لم يفوت (رايان) فرصة التلميح -للمرة الألف- إلى أن التخلي عن (إميل) مؤلم لكنه ضروري لضمان سلامتهم ومن ثم عودتهم إلى الأسفل.. ربما لهذا وافق -على مَضض- على مرافقة (أدريانا) إلى رحلة الصيد هذه وإن ظل مشغولَ البال بـ(إميل) دون أن ينسى (أوليفر) الذي يجهل كل شيء عنه منذ افتراقهم لليوم الثاني.. سألته (أدريانا) إن كان يرغب بتعلم استخدام القوس.. أجابها بأنه لا يملك البال الرائق كما أنه لا يهتم بهذا في الوقت الحالي.. أخبرته أنه من الأفضل أن يتعلم من أجل الدفاع عن نفسه سواء طال بقاؤه هنا أم قصر.. إنها محقة.. هكذا علمته الأساسيات ودربته قليلا وأخبرته أنها تفضل استخدام القوس على البُندُقيّة التي ما زال والدها يحتفظ بها منذ سنوات.. فالبُندُقيّة تجذب الانتباه بصوت طلقاتها المدوية على النقيض من القوس الذي يعتبر برأيها سلاحا مثاليا للصيد الصامت.. بعد تدريبها الأوليّ له اصطادت ما يكفيهم لهذا اليوم من طيور تشبه إلى حد ما تلك الموجودة في الأسفل والتي هي أقرب للزواحف الطائرة منها إلى هذه الطيور ذات الريش الكثيف.. بعدها اقترحت عليه زيارة قبر والدتها في طريق عودتها وفي أثناء ذلك عرف منها شيئا جعل الرعشة تجري في أوصاله.. عرف أن البشر في هذا العالم لا يدفنون في المقابر.. وإنما يتم التخلص منهم -أحياء أو أموات-

بوسائل غاية في الشناعة ذكرت له بعضها مثل فرْم الضحية وهي حية ابتداء من قدميها.. رمي الضحية إلى حيوانات مفترسة تنهشه حيا حتى الموت! وأمثلة كثيرة تقشعر لها الأبدان ولا يمكن أن تصدر إلا من وحوش لا تعرف الرحمة.. كانت -لأول مرة- تثرثر بلا انقطاع عن هذا الموضوع حتى بلغا القبر وها هو ذا معها.. شرد بأفكاره بعيدا إلى حد أنه لم ينتبه إلى أن (أدريانا) قد أنهت صلاتها ثم التفتت إليه وكادت تخبره أنها انتهت لكنها ظلت ترمقه لما يزيد عن الدقيقة بتمعن.. بدا لها مهموما للغاية..

(أدريانا):

- لقد انتهيت.

تنبه (يزن) إلى صوتها فرمش بعينيه والتفت إليها وكأنها أيقظته من غفوة قصيرة ثم قال:

- حقا؟ آه.. حسنًا.. هيا لنعد.

لكنها استوقفته وهي تهب من جلستها:

- انتظر لحظة.

التفت إليها مجددا ورفع حاجبيه بتساؤل فتابعت:

- أما زلت تفكر به؟

- أفكر بمن؟

- ومن غيره، صاحبك أسير ذلك الوحش؟

ابتسم (يزن) بمرارة وقال:

- تعرفين الجواب.. فلم السؤال؟

- هل أنتما مقرّبان إلى بعضكما إلى هذا الحد؟

أشاح (يزن) بوجهه وتنهد بعمق وشرد ببصره حتى ظنت أنه يتهرب من الجواب ثم قال:

- يمكنني أن أكتفي بكلمة ((نعم)).. لكنها ستكون إجابة ظالمة وغير دقيقة.. أجل.. نحن مقربان أكثر مما تتصورين.. هو أكثر من مجرد صديق طفولة ترعرعت معه.. إنه كالأخ.. لا أذكر عدد المرات التي تشاجرنا فيها وكم مرة أقسمنا ألا نكلم بعضنا مرة أخرى.. لكننا دوما نعود وكأن شيئا لم يكن مهما طال فراقنا.. لا أدري إن كان والدك قد حدثك عن أسطورة الخلّ الوفي.. هل تعرفين ما تعنيه؟ إنها تعني أن وجود الصديق الوفي المخلص لصاحبه أكثر من نفسه لا يمكن أن يوجد.. لكنني أعتقد أن الأسطورة عارية من الصحّة بالنسبة لي على الأقل.. أتعلمين لماذا؟ لأن..

عاد ببصره إليها وتابع بتأثر:

– لأن (إميل) هو الخلّ الوفي مهما قالوا عنه.. لو كان مكاني لما تردد لحظة في اقتحام البلدة وإثارة الفوضى فيها من أجلي لو اقتضى الأمر.. أعترف أني لا أملك جُرأته ولا شجاعته.. أعترف أني متردد وخائف وجبان.. لهذا لم أقدم على فعل شيء حتى اللحظة.. إنه يعذب هناك وأنا عاجز عن مساعدته.. لا أدري ماذا أفعل؟ لكني لا أستطيع العودة من دونه.. لن أسامح نفسي ما حييت إن فعلتها.

طال الصمت هذه المرة و(أدريانا) تنظر إلى عينيه بما يشبه الحيرة وكأنها تحاول استيعاب ما قيل.. ما أثار دهشة (يزن) هو أن نظرة البرود في عينيها الناعستين قد تلاشَت لتحلّ محلها نظرة غريبة لم يعهدها من قبل!

قطعت حبل الصمت بصوت أقرب للهمس وبنبرة غريبة:

– ما أجمل وفاءك.

تبدى الاستغراب على (يزن) وهو يتساءل:

– ماذا؟

تابعت وكأنها لم تسمعه دون أن تبعد بصرها عن عينيه:

– أنا لا أعرف صاحبك لذا لا أستطيع الحكم عليه.. إن كنت تراه مثالا للإخلاص والوفاء فأنت لا تقل عنه وفاء.. فقط تنقصك الشجاعة

-اقتربت منه أكثر- كنت أظنك تتصنع الوفاء أمامنا كي لا تظهر بمظهر الخسيس الذي يتخلى عن صاحبه.. لكني أدرك الآن مدى صدق وفائك.

أنهت كلامها وهي تنظر إلى عينيه بتركيز غريب وتقترب منه ببطء مما أربك (يزن) الذي تراجع إلى الخلف بحركة غريزية.. تنبهت (أدريانا) إلى حركته فتَنحنَحت لتُداري حرَجها ثم قالت وهي تستعيد برودها وتدير ظهرها له لتلتقط حاجياتها:

- ماذا عن الآخر؟ هل أنتما مقربان أيضا؟

- من تقصدين؟ (أوليفر)؟

(أدريانا) وهي تشد القوس وجَعبة السهام على كتفها:

- لا أعرف اسمه لكني أقصده هو بالتأكيد.

قالتها ثم التفتت إليه بانتظار جوابه قبل أن تتركز نظراتها على نقطة ما خلف كتفه لجزء من الثانية وقبل أن يفهم ما حدث دفعته جانبا بحركة سريعة ثم أطلقت سهمها نحو النقطة التي كانت تحدق إليها.. سمع صرخة ألم قصيرة تبعها صوت سقوط جسم ما.. حدث كل هذا في لحظات..

- م.. ماذا؟ ما الذي حدث؟

قالها وهو ينهض ويتلفت حوله باحثا عن (أدريانا) التي وجدها تصوب سهما آخر دون أن تطلقه على الجسد الرابض خلفه بين الأشجار والذي استقر سهمها الأول في كتفه.. هذا الجسد.. هل يمكن أن يكون..؟! اقترب بحذر وألقى نظرة على وجه ذلك الجسد.. شهق بعنف وهتف:

- يا إلهي.. (أوليفر).

التّحدي

بالنسبة لـ(إميل) فقد خيّل إليه أن دهرا كاملا مرّ عليه وهو في هذا العذاب.. ولكنها في الحقيقة كانت نصف ساعة فقط! نصف ساعة لم يتوقف فيها (تشيه) عن غرس إبَرِه الرفيعة تحت أظفار أصابع يديه وقدميه.. تارة ببطء وتارة بسرعة.. كانت الآلام رهيبة بحق إلى الحد الذي لا يدري معه كم مرة فقد وَعيَه من شدة الألم قبل أن يفيق صارخا على آلام غرس الإبرة مجددا.. مع كل غرسة كان يشعر وكأن الموت يقترب كثيرا ثم يبتعد في آخر لحظة ضاحكا ليستمتع بعذابه أكثر بالتواطؤ مع (غالياس) الذي يراقب كل هذا باستمتاع حقيقي..

- يكفي هذا.. انزع الغطاء عنه.

قالها (غالياس) آمرا (تشيه) الذي انحنى بخضوع كعادته ثم نفذ الأمر.. ما إن نزع الغطاء عن رأسه حتى أخذ (إميل) يعبُّ الهواء بجشع دخل على أثرها في نوبة من السّعال وقد سال لُعابه ليتدلى من فمه في مشهد يجسد كل المعاناة.. عيناه نصف المفتوحتان تحدّقان إلى أبعاد لا وجود لها..

شد (غالياس) رأس (إميل) من شعره بقسوة وقال:

- والآن بعد أن ذُقت هذا العذاب هل ستركع أم ماذا؟

رمى (إميل) معذبه بنظرات ملؤها الحقد والكراهية وقال بصوت منهك:

- حقير.

في اللحظة التالية برزت مخالب (غالياس) من يده الأخرى ووضعها كالسيوف على عنق (إميل) وقال:

- اركع أيها البشري أو أقتلك الآن.

(إميل) بثبات ونشاط مُفاجئ يتناقض بشدة مع حالة جسده:

- أتحداك.

تصلب الجميع في أماكنهم لدى سماعهم لهذا التحدي الصارخ.. تركزت كل العيون على (غالياس) بترقب لما سيفعله.. لكنه ولدهشتهم لم يحرك ساكنا باستثناء أنه شدد قبضته على شعر (إميل) الذي تقلّص وجهه قليلا من الألم وقال بنبرة واثقة:

- أرأيت أيها المسخ؟ كنت أعلم أنك لن تستطيع فعلها حتى لو أردت ذلك.. أتدري لماذا؟ أتدري؟

صمت قليلا وكأنه يتعمد جذب الانتباه لما سيقوله ثم أخذ نفسا عميقا وواصل كلامه بثقة أكبر وبصوت أعلى:

- لأني أفهم طريقة تفكيرك.. أنت لا تريد لي الموت قبل أن أعطيك مُرادك.. لأني إن مت قبلها فسيلحق بك العار وسيقال أن هناك من تحداك ولم يرضَخ لك حتى مَماته وهذا ما لا تريده.. وإن صبرت على عذابك ونجوت دون أن أعطيك ثم كففت عني فسيلاحقك عار أعظم

لا يمحوه الزمن.. إذا لا فكاك لك من هذه الورْطة إلا التشبّث برهانك وهو أن أستسلم.. أليس كذلك؟

خيل لـ(إميل) أنه سمع صوت زمجرة خافتة لكنه استطرد بابتسامة ماكرة:

– يا لك من مُغفّل.. لو أنك أعدمتني منذ البداية دون محاولة إذلالي لأرحت نفسك من كل هذا.. لكنها الحماقة.. أضف إلى ذلك أنك اخترت الشخص الخطأ لتمارس معه ألاعيبك الصِّبيانية.. يا لتعاسَة حظك.

هذه المرة كان صوت الزمجرة واضحا.. ضغط (غالياس) بمخالبه على عنق (إميل) إلا أن الأخير لم يأبه بهذا وهو يرمق (غالياس) بنظرات ماكرة مستفزة..

(غالياس):

– لا تراهن كثيرا على كلامك أيها البشري.. يمكنني تجاهل كل هذا وقتلك متى شئت.

(إميل) باستخفاف:

– حقا؟

ضرب (غالياس) جانب رأس (إميل) الأيسر بالعارضة الخشبية وقال:

- أنت أحمق بشري رأيته في حياتي.

سال خيط من الدم من جانب رأس (إميل) ليمتزج مع خيط الدم الذي سال من موضع إذنه المبتورة لتلوث الضمادة التي تغطيها.. لكن لم يبدُ على (إميل) أنه يبالي بالألم وهو يقول باستمتاع:

- وربما أشجع بشري أيها المنحط.

كرر (غالياس) فعلته ولكن بقوة أكبر سالت معها الدماء لتغرق جانب رأس (إميل) ورقبته لكن الأخير حافظ على ابتسامته المستفزة وهو يقول بتعب:

- را.. رائع.. كم أحب أن.. أن أراك تشتعل غضبا.. هذا مم.. ممتع.. مُت بغيظك.

كاد (غالياس) أن يكرر فعلته للمرة الثالثة لكنه توقف في اللحظة الأخيرة وقبضته اليسرى القابضة على شعر (إميل) ترتعش وكأنه يقاوم رغبته الجامحة في تهشيم هذا الرأس الذي لاحظ صاحبه هذا كما لاحظه الجميع فقال بأنفاس متثاقلة:

- اقت.. اقتلني كيفما.. كيفما شئت.. بقائي حيا لن يزيد إلا من عذابك أنت.

للمرة الأولى في حياتهم بدا للجميع أن (غالياس) متردد وعاجز عن اتخاذ القرار.. طال صمته وهو يمعن النظر إلى (إميل) الذي بادله نظرات تقول بوضوح أنه لا يبالي أبدا بما سيفعله..

أخيرا قال (غالياس):

– أممم.. لقد فهمت الآن.. تريدني أن أقتلك لكي أريحك من كل هذا العذاب.. أليس كذلك؟

(إميل) بتهكم:

– لم.. لم أتوقع كل هذا الذكاء من برميل قَذارة مثلك.

سحب (غالياس) مخالبه عن عنق (إميل) ليكور قبضته قبل أن تنطلق نحو هدفها بقوة.. أغمض (إميل) عينيه وقد أدرك أن معذّبه سيَفرم وجهه.. لكن القبضة لم تصل إلى وجهه كما توقع.. بل إلى جرح كتفه الذي لم يندمل بعد.. أطلق (إميل) صرخة ألم رغما عنه ودار مخّه في رأسه عندما غاصت القبضة في جرح كتفه لتنفجر منها الدماء.. لم يرفع (غالياس) قبضته بل واصل الضغط للحظات وسط صراخ (إميل) الذي يكاد يفقد وعيه من شدة الألم لولا أن أبعد (غالياس) قبضته بغتة وحرر رأس (إميل) ليتهاوى على صدره بأنفاس لاهثة متعطشة للهواء.. أطلت نظرات الإشفاق من البعض وخاصة من (أورغانا) و(أليتا) و(ليو).. لم تفُت نظرات (أليتا) تلك على (ويل) الذي أشاح بوجهه في ضيق..

أشار (غالياس) إلى (تشيه) بالاقتراب..

(تشيه) وهو ينحني كعادته:

- سيدي.

(غالياس):

- اعتنوا بجراحه.

- حالا يا سيدي.

- سيبقى هنا حتى أنظر في أمره.. أطعموه واسقوه بالقدر الذي يسد حاجته ويدفع الموت.

- السمع والطاعة يا سيدي.

رفع (غالياس) بصره نحو العمال الذين انتفضوا ذُعرا وانهمكوا بسرعة مذهلة في العمل وكأنهم يقومون به منذ فترة.. توقف بصره على (ويل) وأخيه فأشار إليهما بالاقتراب.. توجّسا منه خيفة وهما يقتربان مطأطئي الرؤوس حتى انحنيا عنده بكل ذلّ..

(ويل):

- سيدي.

(غالياس):

- لا تفرحا كثيرا أنت وأخوك.. فأنا لم أنسكما لحظة واحدة وإنما أرجأت مصيركما حتى تنالاه مع هذا...

أشار برأسه إلى (إميل):

- والآن عودا إلى العمل.

(ويل):

- أمرك سيدي.

انصرف (غالياس) ولحق به طائره.. أصدر (تشيه) أمره إلى (أليتا) لتعتني بجراح (إميل) الذي فقد الإحساس بما حوله بعينيه نصف المغمضتين ونظراته التائهة المصوبة إلى الأسفل وشعره الناعم المتناثر حول رأسه.. لم يستعد شعوره إلا عندما تساقطت أول قطرات المطر عليه.. رفع رأسه بإنهاك شديد متطلعا إلى ما حوله.. إنه وحيد.. لقد حل الظلام الذي لم يُبدّد من وحشته إلا المصابيح المحيطة بالحقول.. غريب أمر هذه القطرات التي تنهمر من الأعلى! تلفت حوله ببطء ليكتشف أن القطرات تنهمر بغزارة على كل شيء وليس على رأسه فقط! لا يدري إن كانوا قد أطعموه دون أن يشعر.. لكن الظمأ يكاد يقتله.. رفع رأسه للأعلى وفتح فمه على اتساعه ليسمح للقطرات بالتجمع في فمه.. بعدما

ارتوى أخيرا تفحص جسده الممشوق بنظرة سريعة.. لقد ضمدوا جراحه.. يمكنه الشعور بالضمادة التي تغطي جانب رأسه الأيسر.. الجو يزداد برودة.. بعدما استرد شيئا يسيرا من قواه حاول أن يحرر نفسه من قيوده.. حاول.. وحاول.. لكن بلا فائدة.. أسند رأسه على العارضة وأغمض عينيه وسمح للقطرات بالتدفق على وجهه.. تناهشته الكثير من الأفكار والوساوس السوداء.. خطر له في لحظة ضعف أن يستسلم لمعذبه لكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة.. عزّة نفسه وكرامته تأبيان هذا الخيار.. المسخ اللعين يجيد عمله بحق.. إنه بارع في التعذيب.. لكن هذا لا يكفي لتطويعه..

- هلّا حكيت ما حدث معك مرة أخرى؟

قالتها (أدريانا) ببرود وهي تحدُج (أوليفر) المُستلقي على الحشيّة البدائية بنظرات الريبة والشك.. عقد (رايان) حاجبيه وهو منهمك في تدوين شيء ما في مذكرته التي عفا عليها الزمن في حين رد عليها (يزن) وهو يساعد (أوليفر) على الجلوس:

- إلى متى ستظلين تكررين ذات السؤال؟! لقد حكى لك ما حدث أكثر من ثلاث مرات حتى الآن فهل استيعابك بطيء أم أنك اكتسبت عادة سيئة جديدة في استجواب من لا تعرفينه؟

(أدريانا):

- أنا أتحدث إليه فما شأنك أنت؟

التفت إليها بحدة قائلا:

- أجل لا شأن لي ولكن ماذا عنك؟ ألا يكفي أنك كدت أن تقتليه بتسرعك وحماقتك؟ ألا يكفي أنك..

(أوليفر) وهو ينظر من خلالهما بشرود:

- (يزن) أنا لا أمانع أن أحكي لها مرة أخرى.

(يزن):

- ولكن..

(أدريانا) وهي ترفع أحد حاجبيها ثم تخفضه بشماتة:

- لقد سمعته.. إنه لا يمانع كما ترى.

رماها (يزن) بنظرة غلّ وهو يقاوم رَغبته في خنقها لو استطاع قبل أن ينهض بصمت ويجلس إلى الطاولة مع (رايان) ليعقد ذراعيه على صدره ويشيح ببصره بعيدا بتجهم وهي تتابعه ببصرها باستمتاع.. ما إن جلس (يزن) حتى عادت (أدريانا) ببصرها إلى (أوليفر) ورمته بنظرة من الطراز الذي يقول ((كلي آذان صاغية))... تحسّس (أوليفر) الضّمادة البدائية

الملوثة قليلا بالدماء والتي تغطي موضع إصابة كتفه وبدأ يحكي وهو ينظر إلى المجهول:

– عندما هوجمنا في الغابة انقضّ علي بعضهم ليعزلوني عن (إميل) و(يزن) ولما لم يجدوا مني مقاومة تذكر اكتفوا بأحدهم ليبقيني مُكبلا بين ذراعيه القويتين.. كنت يائسا وأنا أشاهدهم ينالون من (إميل) و(يزن)...

ارتعش فكّه السُّفلي وتابع:

– كنت خائفا وعاجزا عن فعل شيء حتى اندفعت أنت مع حيوانك بينهم.. أظن أنك اصطدمتِ بمن كان يُكبلني ليطرحني معه أرضا ويفلتني.. كنت مذعورا ولم أفكر بشيء وأنا أجري مبتعدا عن الجميع بأقصى سرعة.. أظن أن رأسي اصطدمت بشيء ما.. ربما غُصن بارز.. المهم أني لم أشعر بنفسي لاحقا إلا وأنا ملقى على الأرض وسط الغابة.. لم أعرف ماذا أفعل.. بقيت تائها في الغابة والرعب يتملكني.. لكن شعوري بالرعب لا يقارن بشعوري بالندم لأني تخليت عن (إميل) و.. (يزن)..

أنزل رأسه للأسفل وكأنه يتجنّب نظرات الجميع:

– لم أعرف إلى أين أذهب وكان كل أملي هو أن أجد صاحبي إلى أن.. إلى أن..

قاطعته (أدريانا) ببرود:

- إلى أن وجدتنا وتسلّلت من خلفنا.

أومأ برأسه إيجابا.. منذ الوهلة الأولى أدركت (أدريانا) أن (أوليفر) أكثر جبنا وعجزا من (يزن).. نظرت إليه طويلا ثم اقتربت منه بهدوء وانحنت عليه و.. أجفل (أوليفر) عندما امتدت يدها لتتحسّس رأسه.. انتبه (يزن) لهذا فهتف باستنكار:

- ماذا تفعلين؟ هل أنت مجنونة؟

تجاهلته (أدريانا) وهي تواصل ما تقوم به وسط نظرات عدم الفهم من (أوليفر)..

(أدريانا):

- غريب.. لقد قلت أن رأسك اصطدم بشيء ما أثناء هروبك.. لكن رأسك سليم تماما بلا خدش أو كدمة واحدة!

(أوليفر) وهو يتحاشى نظراتها التي بدت ثاقبة هذه المرة:

- لا أدري.. كنت أقول ربما.. لست واثقا.

تدخل (يزن):

- كفّي عن هذا الهراء وابتعدي عنه.

ازداد انعقاد حاجبي (رايان) مما يشي أنه يتابع ما يجري بسمعه على الأقل.. تجاهلت (أدريانا) (يزن) للمرة الثانية وتراجعت إلى الخلف ورمت (أوليفر) بنظرة شك طويلة ثم قالت:

- أنت تخفي شيئا.. أنت لم تقل الحقيقة كاملة.

ولعلمه بأن (أوليفر) ساذج وأبعد ما يكون عن إخفاء الحقائق فقد هبّ (يزن) من مكانه قبل أن يجيبها (أوليفر) وقال بحدة:

- ما هذا الكلام الفارغ؟

التفتت إليه وقالت:

- الكلام الفارغ هذا هو ما أشعر به أيها المُتحذلِق.. وشعوري لم يخطئ من قبل.

(يزن) باستخفاف:

- شعورك؟ يا سلام.. لماذا لا أشعر أنا بذات الشعور إذا؟ لماذا أرى ما قاله طبيعي ومن الممكن أن يحدث مع أي شخص؟

(أدريانا):

- ربما لأنك غبي.

(يزن):

- وربما لأنك بلهاء.

(رايان):

- كفى.. يكفي هذا.

قالها دون أن يرفع بصره عن مذكرته فتوقفا وكل منهما يحدق إلى الآخر بتقرّف..

أردف (رايان):

- أنا مع (يزن).. ما حَكاه صاحبه لا غبار عليه.. وبغض النظر عما ترينه فهذا ليس مهما.. المهم الآن أن الفتى هنا وبأمان معنا.. أليس كذلك؟

تنهد (يزن) وهو ينقل بصره إلى (أوليفر):

- هذا صحيح.

نظر (رايان) إلى ابنته ورفع حاجبيه متسائلا:

- أليس كذلك يا (أدريانا)؟

(أدريانا) وهي تنظر إلى (أوليفر):

- بلى يا أبي.

(رايان):

- هذا ما أودّ سماعه.

ظلت (أدريانا) تنظر بثبات إلى (أوليفر) قليلا قبل أن تستدير متوجهة نحو الفتحة المؤدية إلى خارج تجويف ((غرفة المعيشة))..

(رايان):

- إلى أين؟

(أدريانا):

- أريد أن أختلي بنفسي قليلا.

قالتها ثم توقفت عند الفتحة ورمت (أوليفر) بنظرة أخيرة طويلة.. هذه المرة كان (أوليفر) ينظر إلى عينيها مباشرة بنظرات خاوية لا تعكس أي مشاعر..

(أدريانا) موجهة كلامها إلى (يزن):

- من الواضح إن صاحبك لا يثِق بي ولا بأبي.. أنصحك بأن تسأله عما يخفيه عندما تختلي به لربما أفصح لك إن كان يعتبرك صديقه.

(يزن) وهو يعود للجلوس على مقعده بتَجهّم:

- شكرا على النصيحة.. لكني لن أعمل بها.

هزّت كتفيها بلا مبالاة:

- هذا شأنك.

قالتها ثم غادرت التجويف بخطى متمهلة.. تنهد (رايان) وهو يتابعها حتى غادرت ثم تمتم بصوت خفيض لم يسمعه سواه: "مثل أمها تماما".

(يزن):

- لا عليك يا (أوليفر).. لا تُلقِ بالا لما قالته.

(أوليفر):

- إذا فأنت تصدّقني؟

الحق يقال أنها قد بذرَت الشكّ في نفسه.. لذا لم يكن (يزن) مُقتنعا تماما بما قال لكنه قاله على كل حال وشبح ابتسامة زائفة يلوحُ على شفتيه:

- ولم لا أصدقك؟ حتى لو افترضنا أنك تخفي شيئا فهذا ليس مهما.. المهم أنك معنا كما قال (رايان).

أنهى كلامه وهو يلتفت إلى (رايان) بتلقائية الذي بادله الابتسامة وهو يهزّ رأسه بتأييد..

في الظروف الطبيعية لم يكن (يزن) ليتبادل حديثا كهذا مع (أوليفر) إذ أنه لم يعتبره صديقا يوما كما أنه لا تربطه به أي علاقة من أي نوع -باستثناء (إميل) الذي يصر دوما على اصطحابه- لكنه على الأقل يعرف

(أوليفر) وإن لم يَستسِغه على العكس من (رايان) وابنته فهما غريبان ولم يعرفهما إلا منذ يومين..

(أوليفر):

- (يزن)؟

(يزن):

- ماذا يا (أوليفر)؟

- هل عثرت على الكبسولة الثانية؟

شرد (يزن) ببصره متذكرا سبب ما يمرون به ثم قال:

- لقد حددت موقعها.. إنها في تلك الغابة المرعبة.. غابة الجثث.. لكني لم أعد مهتما بها.. كل ما يهمني الآن هو إيجاد وسيلة مناسبة لإنقاذ (إميل).

(أوليفر):

- ألم تتوصل إلى خطّة حتى الآن؟

أطلق (يزن) تنهيدة عميقة ثم قال:

- لم أتوصل إلى خطة مَضمونة النتائج بعد.. فكرت بمحاولة التسلل لكن هذا الخيار فيه مخاطرة عالية.. فالحراسة مشددة بالفعل ومن الصعب

أن يتسلل أحد دون أن يتم رَصده.. كما أن هذه الفكرة تحتاج إلى شخص جريء ذو دراية كافية بالبلدة ومخارجها ودوريات الحراسة.. ربما لو تمكن هذا الشخص من تجاوز هذه العقبات والوصول إلى المولد الذي يغذّي البلدة بالكهرباء وتدميره عندها سيعم الظلام ومع إحداث بعض الفوضى لتَشتيتِ الانتباه ستكون الفرصة مُواتية لمساعدة (إميل).

(أوليفر):

- خطة لا بأس بها.

ابتسم (يزن) بحزن قائلا:

- أجل لكن ينقصها أهم عنصر.. من هذا الشُّجاع الذي سيقبل القيام بها؟ أنا وأنت لا نصلح بالتأكيد ولا داعي لذكر الأسباب...

ابتلع ريقَه وتابع وهو يتحاشى النظر إلى (رايان):

- ربما أنسب شخص لهذه المهمة هو (أدريانا).. لقد تحدثت معها واقترحت عليها أن تسلب ملابس إحدى الجثث حتى نتنكّر بهيئة سكان البلدة ليسهل عليها التسلل لكنها رفضت.. هذا من حقها ولا يمكنني لومها.

ساد الصمت بعدها لدقائق معدودة..

(أوليفر):

- أليس لديك خطة أخرى؟

(يزن):

- بلى.. كنت أفكر بأننا لو تعاوننا جميعا على...

قاطعه (رايان):

- لن ينجح أي من هذا.

التفتا إليه بتساؤل فتابع:

- فكر بالأمر من هذه الزاوية.. عدد سكان البلدة الكبير سيمكنهم من احتواء أي موقف طارئ بسرعة أيا كانت الخطة التي تنوي تنفيذها.. كما أن أي محاولة لتحرير صاحبك لن تمر مرور الكرام وستنبّه ذلك الوحش لمحاولتنا وعندها لن يهدأ له بال حتى يعثر علينا ولو اقتضى الأمر إشعال المقاطعة كلها.. وهذا يقودنا إلى أن فرصة إنقاذ صاحبك معدومة طالما أن ذلك الوحش على قيد الحياة.

تبدى الوُجوم على (يزن) وقد فهم ما يلمح إليه (رايان) فأشاح بوجهه في ضيق وإن اعترف في قرارة نفسه بصواب رأي (رايان) ولو جزئيا.. أجل.. إنقاذ صديقه مرهون بالتخلص من ذلك الوحش.. ولكن كيف؟ هذا هو السؤال؟

مرت بضعة أيام على (إميل) وهو يتقلّب في أصناف العذاب -يومين منها قضاها مقيدا إلى العارضة الخشبية- ففي إحدى المرات علقوه من قدميه ووضعوا أسفل رأسه مبخرة تنفث الدخان لتكتم أنفاسه وانهالوا ضربا على بطنه وظهره.. وفي مرة أخرى شدّوا أطرافه بوضعية المصلوب على الأرض ثم وضعوا صخرة كبيرة على صدره كادت أن تسحق أضلاعه.. حتى أطفال البلدة لم يفوتوا فرصة رَشقِه بالقاذورات وكأنهم يشاركون سيدهم نقمته عليه.. مع كل هذا العذاب لم يجد (إميل) في نفسه القوة لمحاولة الهرب.. فلا يكاد يرتاح ليلا حتى يعذب في الصباح.. لم يكن يجد الراحة إلا عندما يعيدونه إلى غرفة (أليتا) لتطعمه وتعتني بجراحه -حتى تساءلت في نفسها عن جدوى العناية بجراحه إن كان سيعذب غدا!- وعلى الرغم من ذلك لم يستسلم ولم يتزحزح عن موقفه ولم يكف عن الاستهزاء بـ(غالياس) وحتى تحقيره أمام الجميع.. وكأن العذاب لا يزيده إلا عنادا وتمسكا برأيه.. وكأن الألم قد فقد هيبته في نفسه..

إلا أن أكثر ما أثار دهشة الجميع هو أن سيدهم لم يعدم أحدا طوال الأيام الفائتة! لم يجرؤ أحدهم بالطبع على ذكر هذا الأمر علانية ولا حتى سرّا فيما بينهم وإنما اكتفوا بذكره في صدورهم.. حتى (تشيه) الذي يعتبر نفسه مقرّبا من سيده لم يجرؤ على تذكيره خشية أن يكون هو أول ضحايا عودة الإعدامات.. من الجلي أن تركيز سيدهم قد انصبّ تماما على هذا

الشاب الذي سلبَه كل مُتعةٍ وكسرَ هيبتَه أمامهم حتى أنهم تمنوا ألا يموت (إميل) لكي يستمر الحال هكذا دون إعدامات..

في ذلك الصباح كان (إميل) مقيدا إلى العارضة ومن خلفه عقد (تشيه) حبلا غليظا حول عنقه أخذ يشده بإحكام حتى احمر وجه (إميل) وكادت تنقطع أنفاسه قبل أن يُرخيَه فجأة بإشارة من (غالياس) الذي انهال فورا على جسد (إميل) بالسياط فلا يكاد ينتهي عذاب الخنق حتى يبدأ عذاب السياط في مشهد يجسد قمة البؤس لمن ينظر إلى (إميل) وقمة البطش لمن ينظر إلى (غالياس).. كانت (أليتا) تراقب ما يجري بمزيج من الشفقة والإعجاب وبالطبع لم تفت نظراتها تلك على (ويل) الذي احمر وجهه واشتعل قلبه بالغيرة.. كم تمنى لحظتها أن يموت (إميل) وكم تمنى في ذات الوقت لو يملك شيئا من شجاعته حتى ينال على إعجاب (أليتا) كما ناله (إميل)..

على الجانب الآخر كانت (أورغانا) تراقب ما يجري مع (باتار) كعادتها..

(أورغانا) وهي تضع الثمار في السلة:

- إن استمر الحال هكذا فسوف يموت.

(باتار) وهو يستخرج الثمار من الأرض:

- أيهما تقصدين يا سيدتي؟

أطلقت (أورغانا) ضحكة خافتة قصيرة وقد فهمت مَغزى سؤاله..

صمتت قليلا وهي تتأمل (إميل) ثم قالت بصوتها الخافت:

- (باتار).. هل كنت تتصور أن هناك بشري قادر على الصمود كل هذه المدة أمام (المخوزق)؟

توقف (باتار) عما يقوم به ورمى (إميل) بنظرة طويلة غامضة ثم قال:

- سيدتي.. أعلم أن ما سأقوله غريب وربما أغرب ما سَتسمعينَه مني.. أقسم أن هذا البشري في قيوده تلك أكبر وأعظم من (المخوزق) سيد هذه المقاطعة.. أقسم أني لم أرَ بشريا يملك إرادته وبصلابته.

رفعت (أورغانا) حاجبيها بدهشة حقيقية ثم أنزلتهما وابتسمت قائلة:

- عجبا (باتار).. هل تخدعني أذناي أم أن هذا الشـــاب قد نال إعجابك؟

(باتار) وهو يعود إلى عمله:

- أرجو أن تعفيني من الجواب يا سيدتي.

اتسعت ابتسامتها وقد أدركت الجواب ثم عادت ببصرها نحو (إميل) ليكتسي وجهها بالأسى وهي تُغمغم:

– كم هو مؤلم أن أرى شابًا مثله يتعرض لمعاملة كهذه.

(باتار):

– أجل.. إنه أمر محزن يا سيدتي.. لكننا لا نملك فعل أي شيء.

التزمت (أورغانا) الصمت هذه المرة وهي مستمرة في التحديق إلى (إميل) بنظرات غامضة لا تفصح عما يختمر في رأسها.

حلّ الليل البَهيم على المقاطعة.. ومن شُرفة قصره تطلع (غالياس) بشرود إلى مقاطعته وهو يتجرع الشراب من كأسه الذي لا يكاد يفارقه كلما اختلى بنفسه بينما استقر طائره على سور الشرفة وهو ينظر إلى سيده وكأنه ينتظر منه أن يفرغ ما في جَعبتِه.. بعد صمت طال تكلم (غالياس) ولكن بلغة بني جنسه الغريبة على كل من يسمعها:

– لشد ما نال مني اللعين.. لعمري إني لم أعد أعلم أيّنا يعذب الآخر.

أطلق الطائر صيحات متتالية وكأنه يحدث سيده الذي التفت إليه وقال بشرود:

– معك حق.. ليتني لم أُشهد عبيدي عليه.. فهم يرقبون أيّنا يستسلم أولا.. وهذا اللعين لا يخشى الموت.. إن استمر الحال هكذا فسوف يفسد العبيد ليس مقاطعتي فحسب.. وإنما في الإمبراطورية كلها إن شاع خبره..

ارتشف من كأسه قليلا ثم شرد ببصره بعيدا واستطرد:

– ترى ما الذي سيقوله الإمبراطور الأعظم إن علم بعجزي أمام هذا البشري؟ اللعين.. إنه يظهرني بمظهر العاجز أمام عبيدي.

أطلق الطائر صيحتين قصيرتين لكن (غالياس) أخرسه بإشارة من يده وقال:

– أعدمه؟ لا.. هذا لم يعُد مُجديا الآن..

سكت قليلا وهو يتأمل كأسه ثم قال محدثا نفسه بصوت مسموع:

– كيف أتخلّص من هذه الورطَة؟ كيييف؟

هذه المرة لم يطلق الطائر أي صوت وكأنما أدرك أن سيده يفكر بعمق.. كي.. فجأة لمعَت عينا (غالياس) ببريق مخيف لم يفُت الطائرَ الذي فهم ما يعنيه هذا على الفور..

(غالياس) وهو يعتصر كأسه حتى كاد يسحقه:

- لقد وجدتّ الحل.. كيف لم يخطُر ببالي من قبل؟

برقت عينا الطائر بجَذَل.. يَبدو أن أمنيته بتذوق لحم البشري الذي أعجز سيده باتت أقرب مما يتصور.. أطلق الطائر صيحات مبتهجة وهو يحلق حول سيده الذي لم يُشر له بأن يخرس هذه المرة..

نَصرٌ زائف

"المسخ الخسيس.. ما الذي يدور في رأسه؟". قالها (إميل) محدثا نفسه وهو يتناول ثمرة من الصحن المركون بجانبه ويقضمها بشرود.. لقد لاحظ أشياء غريبة في الساعات الماضية.. أولها عندما تسلّل أحدهم إلى الغرفة في ساعة متأخرة أثناء نومه وأيقظ (أليتا) بهدوء وهمسَ لها ببضع كلمات سريعة لم يسمعها لتغادر على أثرها الغرفة دون أن يتبادر إلى ذهنها أنه من النوع اليقِظ الذي ينام بعين واحدة.. أما الثاني فهو مجيء (تشيه) القذر ورجاله لاقتيادِهِ في وقت مبكر على غير العادة -حتى قبل أن تغادر (أليتا) إلى العمل- دون أن يمنحوه فرصة تناول طعامه -منذ تلك الليلة المشؤومة وهو عازف عن تناول أي طعام عدا الثمار التي ينتقيها بنفسه من المطبخ دون أن ينسى أن يغسلها جيدا باستثناء بعض المرات التي سمح فيها لـ(أليتا) بعد إلحاحها بجلب الطعام بعد التأكد من غسله أمام عينيه- أما الثالث -وهو أشدها غرابة- هو أن المسخ قد ألغى جلسة تعذيبه لهذا اليوم! لقد كان (تشيه) ورجاله يقتادونه عبر أزقّة البلدة عندما جاء أحدهم مسرعا ليبلغهم بهذا الخبر! لكم ضحك عندما احمرّت وجوه مرافقيه غيظا وهم يعيدونه إلى غرفته والحسرة تغمر وجوههم.. وها هو ذا جالس على سريره وحده في الغرفة -وربما في المبنى كله- يفكر في معنى كل هذا.. إنه لا يشعر بالارتياح لما يجري.. الشك يكاد يتحول إلى يقين.. لقد فتّش الغرفة كلها وتفحص طعامه وتشمّمه بحثا عن أية ألاعيب قذرة.. لكن لا شيء.. كان شاردا في أفكاره عندما فُتح باب

الغرفة بهدوء.. رفع عينيه باستغراب نحو (أليتا) التي دلفت الغرفة متحاشية نظراته المتسائلة.. تابعها بنظراته الثاقبة حتى جلست على طرف سريرها..

(إميل):

- لماذا عدت؟

(أليتا) وهي مستمرة في تحاشي النظر إليه:

- إنها أوامر السيد المعظم.

كاد يسألها عما يُحاك حوله لكنه سرعان ما أحجم لعلمه أنها لن تنطق بحرف في كل الأحوال خوفا من سيدها المُنحطّ.. التقط كأس الماء المركون بجانب طبق الثمار وقربه من فمه وارتشف القليل عندما حانت منه نظرة لحظية نحو (أليتا) كانت كافية لكي يلحظ تلك النظرة الغريبة التي ارتسمت في عينها وهي تنظر إليه.. نظرة غامضة لم يستطع تفسيرها.. وضع الكأس جانبا وسألها بتجهم:

- ما بك؟ لم تنظرين إلي هكذا؟

- هاه؟

- هل أنت صمّاء؟ قلت لك لم تنظرين إلي هكذا؟

أنزلت عينها للأسفل وقالت بصوت خفيض:

- لا شيء.

تصاعد الشكّ في نفسه فسألها:

- هل تُخفين عني شيئا؟

بدا عليها التوتر وهي تُجيبه بخفوت:

- لا.. لا شيء.

تضاعف شكُّه فقال بحدّة مباغتة أفزعتْها:

- تكذبين.

لم تجبه هذه المرة.. ملامحها تفضح توترها الذي بلغ ذُروته.. بدا له وكأنها تعيش صراعا داخليا في هذه اللحظات.. تصاعد الدم إلى رأسه واحتقنت عروقه غضبا.. يبدو أنه لا مناص من.. ولكن.. ما هذا الشعور الغريب الذي يداهمه؟! شعور عارم بالرضا والسعادة عن كل شيء.. شعور عارم بالانتشاء لم يسبق له أن جربه من قبل! يا للبهجة.. ابتسم ببلاهة وهو يتابع (أليتا) التي اقتربت منه بحذر وابتلعت ريقها قبل أن تخرج الكيس القماشي من جيبها وتنحني عليه بتردد قائلة:

- ستل.. ستلبس هذا الكيس ولن تنزعه حتى تؤمر بذلك.

أومأ برأسه بسعادة:

- سأفعل.

- ستبقى في مكانك ولن تَبرحَه حتى يأتي من يأخذك.

- سأفعل.

- جيد.

غطّت رأسه بالكيس دون أن تشده حتى لا يختنق وألقت عليه نظرة أخيرة قبل أن تغادر الغرفة.. لم تَمضِ دقيقة واحدة حتى اقتحم (تشيه) وزبانيَته الغرفة.. وكما هي العادة انهمك الرجال في تكبيله في حين انحنى أحدهم ليفك السلسلة عن كاحله.. كانوا يعملون وكأنهم يعلمون سَلفا بأنهم سيجدونه مغطى الرأس.. لكن ما أثار دهشتهم بحق هو أن (إميل) لم يبدِ أية مقاومة ولم ينفُث لسانه السّليط في وجوههم كعادته.. لولا المبالغة لقالوا إنه سعيد بما يحصل معه! ما الذي دهاه؟! كان (تشيه) هو أول من أفاق من دهشته فصرخ بالرجال:

- لم تقِفون هكذا؟ هيا خذوه.

لم تَمضِ دقائق على قوله إلا و(إميل) معلق في الساحة على شيء هو أقرب للشواية حيث تم تقييده إلى قضيب معدني عُلق طرفاه بشكل عمودي على قضيبين آخرين بحيث يرتفع (إميل) عن الأرض بمسافة لا بأس بها كمن يتم إعداده للشواء..

- هيا متّعنا.

قالها (غالياس) بنبرة آمرَة لـ(تشيه) الذي أحنى رأسه ثم قرب المشعل الذي يحمله نحو كومة الحطب المتكومة أسفل القضيب الذي يحمل (إميل).. تعالت ألسنة اللهب لتلسع حرارتها الجذع العاري المليء بالندوب والجراح واتخذ (تشيه) مكانه ليبدأ بتدوير القضيب ببطء واستمتاع.. تعالت همهمات غير مفهومة من خلف الكيس الذي يغطي رأس (إميل).. جسده يتقاطر عرقا ليكتسي باللون الأحمر وينكمش ويتلوى بعنف.. الهمهمة تحولت إلى صراخ مكتوم.. النار تنحت أثرها على جسده ببطء وقسوة.. بدا كالذبيحة التي تقلب على النار حتى تنضج مع فارق أن الذبيحة ميتة بينما هو حي! أشاحت (أورغانا) ببصرها عن المشهد.. أشار (غالياس) لـ(تشيه) بالتوقف.. ما هي إلا ثوان حتى وقف (إميل) أمام معذبه مستندا إلى رجلين.. الكيس القماشي ينكمش ويتمدد بانتظام سريع مما يشي بأنفاسه المتلاحقة..

(غالياس):

- اركع.. اركع وإلا أعدتك فوق النار حتى ينضج لحمك.. اركع.

لم يُعر أحد للأمر أهمية.. فقد اعتاد الجميع عناد (إميل) وسخريته اللاذعة حتى أصبح الأمر مُملا.. أشار (غالياس) للرجلين لكي يُفلتا (إميل).. ما إن فعلا حتى انهار على ركبتَيه واستند على الأرض بكفيه

وهو يلهث بشدة.. ما حدث بعدها فجّر الذهول في النفوس وجعل كل الأبصار تلتقي عند (إميل).. فتحت (أورغانا) عينيها وأغلقتهما أكثر من مرة وفركتهما جيدا للتأكد مما تراه.. فأمام العيون غير المصدقة اتخذ (إميل) وضعية الركوع تحت قدمي (غالياس) الذي تأمله قليلا برضا ثم رفع ذراعيه على امتدادهما ورفع بصره نحو السماء معلنا بكل وضوح أنه يعيش لحظة انتصاره بكل جوارحه.. حلق الطائر فوق الرؤوس مطلقا صيحات طويلة تعبر عن بهجته.. أطبقت (أورغانا) على فمها بكفها لتمنع شهقة انفعال كادت تفلت منها.. حتى (باتار) -ولأول مرة-تجلى عدم التصديق على ملامحه وهو ينظر إلى (إميل) بكل أسف.. أطلت نظرة الأسى من البعض ونظرة الشماتة من البعض الآخر.. لكن نظرات الشماتة سرعان ما تلاشت وضاقت صدور أصحابها عندما تذكروا أن استسلام (إميل) يعني عودة الإعدامات إلى سابق عهدها وهم اللذين أملوا أن يصمد لأطول فترة ممكنة لكن أملهم قد مات الآن..

- أنا لا أفهم.. كيف استسلم هكذا وهو الذي صمد طويلا حتى ظننت أني لن أرى ما رأيته؟ كيف حدث هذا؟ كيف؟

قالتها (أورغانا) وكأنما تحدث نفسها أكثر مما تحدث (باتار) الذي غرق في تفكير عميق.. كانا في غرفتهما التي لا تختلف كثيرا عن أي غرفة

أخرى في هذه المقاطعة.. كانت (أورغانا) تذرع الغرفة ذهابا وإيابا في حين جلس (باتار) على طرف سريره بصمت.. التفتت (أورغانا) إليه قائلة:

– (باتار) قل شيئا.. أخبرني لماذا برأيك استسلم هذا الشاب بعد كل هذا الصمود الطويل؟ ألا يثير الأمر ريبتَك؟

رفع (باتار) بصره نحوها وهم بالكلام لكنها استوقفته بإشارة من يدها وقالت:

– لا.. لا تقل لي أن تعذيبه قد آتى ثماره.. هذا التفسير لن أستطيع فهمه أو تقبله.. فهل لديك أي تفسير آخر؟

نظر إليها طويلا ثم تنهد بعمق وشرد ببصره بعيدا وكأنه ينتقي الكلمات المناسبة لما سيقوله..

(باتار):

– سيدتي.. أظنّ أني أملك تفسيرا لما جرى.

أطل الاهتمام من عينيها وهي تقول:

– حقا؟ أخبرني ما هو تفسيرك.

– هذا البشري الذي صمدَ صمود الجبال لا يمكن أن يستسلم إن أردت رأيي يا سيدتي.. لا بد من حِيلة ترغمه على ذلك ودون إدراك منه.. وهذا ما أجزم أن (المخوزق) قد فعله.

- أي حيلة هذه؟ أخبرني.

- أعتقد أن (المخوزق) قد أمر بدسّ مادة مخدّرة في طعام هذا البشري.. إن لم أكن مخطئا فقد دسّ له مادة تستخدم للاستجواب نطلق عليها ((ترياق الطاعة)).. ترياق لا طعم له ولا لون ولا رائحة.. جرعة بسيطة في الطعام أو الشراب تكفي لسلب إرادة مُتناوله وإلغاء قدرته على الكذب ومنحه شعورا زائفا بالنشوَة والسّعادة مما يجعله سهل الانقياد لما يؤمر به حتى لو خالف آراءه ومعتقداته.. العيب الوحيد في هذا الترياق هو أنه يفضح متناوله عن طرق ملامح الوجه التي تعكس سعادة لا وجود لها.. لهذا أخفى (المخوزق) وجه البشري كي لا تنكشف حيلته الرخيصة.

اتسعت عينا (أورغانا) لما قيل.. أردف (باتار):

- ما يؤكد كلامي يا سيدتي هو أن المخوزق قد اصطحب البشري معه إلى قصره.. لا بد وأنه قد انتهى من استجوابه قبل زوال مفعول الترياق.

(أورغانا):

- (باتار) كيف استنتجت كل هذا؟

(باتار):

– سـيدتي هل نسـيتِ عملي السـابق الذي أعفاني منه الإمبراطور الأعظم؟

(أورغانا):

– لا لم أنسَ ولكن..

سكتت قليلا ثم غَمغمَت بشرود:

– يا لها من حيلة حقيرة.

– أتعلمين يا سيدتي.. هذه أول مرة في حياتي يحظى فيها بشري بكل احترامي.. يكفيه فخرا أنه قد هزم (المخوزق) في تحدي الإرادة.. هذه هي الحقيقة شاء من شاء وأبى من أبى.. سيدرك (المخوزق) هذه الحقيقة عندما يفيق من نشوة انتصاره الزائف..

سكت قليلا ثم تابع:

– أتعلمين يا سيدتي.. كم أود لو يستطيع هذا البشري الفرار.. مثله لا يجب أن يموت.. ليتني أملك الحيلة لمساعدته.

مرّت ثوان من الصمت.. غمغمت (أورغانا) بغموض شديد:

– صدقت (باتار).. مثله لا يجب أن يموت.

- أنا فعلت هذا؟ هذا مستحيل.. أنتم تكذبون.

صرخ (إميل) في وجوه كل من (أليتا) و(ويل) وأخيه الأصغر (ليو) اللذين اجتمعوا في الغرفة معه بعدما عاد من قصر (غالياس).. إنه لا يذكر شيئا مما حدث.. لم يصدق حرفا مما قالوه فثار في وجوههم كما هو متوقع..

(ويل) بوجوم:

- الكل رآك وأنت تفعلها.. اسأل من شئت وسوف..

قاطعه (إميل) بثورة:

- أنت تكذب.

(ويل) بضيق:

- ولماذا أكذب؟ لاحظ أنه ليس من مصلحتي أنا وأخي أن يحصل ما حصل.. فمصيرنا الآن هو ذات المصير الذي ينتظرك.

(أليتا) موجهة كلامها إلى (إميل):

- (ويل) لا يكذب.. وإلا أخبرني لماذا أمر السيد المعظم بإيقاف جلسات التعذيب وبعدم التعرض لك بأي نوع من الإيذاء الجسدي؟ أليس هذا دليلا قاطعا على أنك قد ركع...

قاطعها (إميل) بصرخة هادرة:

- كاذبة.. أنا لم أفعلها.

تلفت حوله باحثا عن شيء يفرغ فيه جام غضبه فلم يجد سوى الصحفة بما تحويه من بقايا الطعام فما كان منه إلا أن قذف بكل هذا إلى الجدار المقابل صارخا بسخط.. ارتدت الصحفة المعدنية بعيدا وتناثرت بقايا الطعام مع شظايا الصحن في كل مكان.. أجفل الجميع لما حدث واختبأ (ليو) خلف أخيه الأكبر.. تهاوى (إميل) على سريره جالسا بأنفاس متثاقلة.. لولا الكرة المعدنية التي تقيد حركته لحطم كل شيء في هذا المبنى.. ما قالته ذات العين الواحدة منطقي.. وإلا لماذا يشعر بالمرارة والقهر يعتصران قلبه بشدة؟ ليته يتذكر.. هل فعلها عندما أغشي عليه أثناء تعذيبه؟ إنه لا يذكر شيئا منذ أن.. منذ أن.. توقف عن التنفس عند هذه النقطة وتجمدت عيناه في الهواء وكأن فكرة ما هبطت على رأسه فجأة.. نظرات (أليتا) الغريبة إليه وهو يرتشف من كأس الماء قبل عدة ساعات.. ارتباكها عندما حاول استنطاقها عما تخفيه.. الأشياء المريبة التي سبقت كل هذا من مغادرتها أثناء نومه وإلغاء جلسة تعذيبه.. كل هذا يبدو مترابطا وكأنه.. وكأنه.. رفع رأسه ببطء شديد وسدد نظرات تشتعل توحشا نحو (أليتا) التي ما إن رأت نظراته تلك حتى اتّسعت عينها ذُعرا وقالت بارتباك وهي تتراجع إلى الخلف:

– ما.. ما بك؟ لماذا تحدق إلي هكذا؟

نهض (إميل) وقد تحولت نظرات التوحش إلى نظرات من يستعد للقتل وهو يتقدم نحوها ويقول من بين أسنانه:

– أنت.. أنت من فعلها.

تراجعت (أليتا) أكثر حتى اصطدم ظهرها بالجدار وهي تقول بتَوَتُّر متزايد:

– ما الذي تتحدث عنه؟ أنا فعلت ماذا؟

انتصب (ويل) في مكانه متحفزا وتراجع (ليو) بعيدا في حين أخذ (إميل) يقترب أكثر من (أليتا) متجاهلا آلام الحروق في جسده والكرة التي يجرها خلفه وهو يقول بمقت شديد:

– أيتها الحقيرة.. ما الذي دَسستِه في شرابي؟ أجيبي وإلا طحنت وجهك.

أمسك بتلابيبها ورفع قبضته أمام وجهها فأطلقت صرخة فزع وأغلقت عينها وامتدت يداها أمام وجهها لتحمي نفسها مما هو قادم..

– أنت.. ما الذي تفعله؟

فتحت (أليتا) عينها لترى (ويل) يندفع نحو (إميل) الذي طوّح بمرفقه إلى الخلف.. أطلق (ويل) صرخة ألم قصيرة وارتد إلى الخلف

ممسكا بأنفه النازف أمام نظرات (ليو) الخائفة.. وقبل أن يستدرك (ويل) نفسه هوى (إميل) بقبضته بكل قوته نحو وجه (أليتا) التي أغلقت عينها مجددا بصرخة.. لكنها لم تشعر بأي ألم! فتحت عينها بحذر لتكتشف أن القبضة قد هوت على الجدار بجانب رأسها تماما! التقت عينها بعيني (إميل) الثائرتين وهو يقول بأنفاس غاضبة:

– لحسن حظّك أني لا أضرب النساء.. لو كنت رجلا لعرفت كيف أتصرف معك أيتها السافلة.. لقد وثقت بك في طعامي.. أعلم أنك لن تتحدثي ما لم ألقّنك درسا.. لكني لن أفعل.. ليس من أجلك وإنما من أجلي أنا.

صمت قليلا ثم أضاف:

– والآن لا أريد أن أراك هنا.. اخرجي حالا.

(أليتا) بكلمات متعثرة:

– أنا لم.. لم أفعل ما.. ما تظنه.. أنت مخطـ..

صرخ بهياج وهو يشير نحو الباب:

– قلت اخرجي.. اغربي عن وجهي.

لم تجد (أليتا) بدا من المغادرة ليتبعها كل من (ويل) و(ليو) بصمت.. ما إن أغلقوا الباب حتى انهار (إميل) على ركبتيه وأخذ يضرب الأرض

صارخا بقبضته حتى أدماها.. التفت نحو قيد كاحله وحاول تحرير نفسه بعنف ولكن بلا فائدة.. ما لم يعلمه أحد هو أنه كان يستغل أوقات خلوته في دورة المياه في محاولات بائسة لتحرير كاحله.. لقد جرب كل ما وقع في يده من إبر رفيعة وحتى السكاكين وأي شيء رفيع ولكن دون جدوى.. لكم شعر بالحسرة وهو يتخيل المسخ الوضيع يتلذّذ بانتصاره الزائف في هذه اللحظات.. خطر له خاطر جنوني وهو أن يسلب خصمه لذة انتصاره بأن يقتل نفسه هنا والآن.. هكذا لن ينعم بتنفيذ وعيده وسيموت غيظا عندما يراه جثة هامدة وسط هذه الغرفة.. راقت له الفكرة.. لكن لا.. لن ينهي حياته فقط لمجرد إغاظة عدوه.. ما زال لديه وقت كاف لإيجاد وسيلة للهرب.. فالمسخ -حسب فهمه لطريقة تفكيره- لن يقدم على تنفيذ عقابه حتى يتعافى ويسترد قوته.. أي أنه لديه ما يقارب الـ 72 ساعة أو أكثر.. ولكن كيف السبيل إلى الهرب؟ كيف؟

لا أريد أن أراك ثانية

في هذه الأثناء -وفي الكهف تحديدا- خيّم الوُجوم على كل من (يزن) و(أوليفر).. خاصة (يزن) الذي لا زال يجد صعوبة بالغة في استيعاب ما رآه.. (إميل) الذي يعرفه حق المعرفة لا يمكن أن ينحني لأي مخلوق كائنا من كان حتى لو أحرقوه حيا.. فكيف إذن حصل ما حصل؟! كيف؟!

لكم شعر بالمرارة والألم يَخنقانه لحظتها وكأنه هو من تعرض لهذا الإذلال.. ضميره لم يكُف لحظة عن إلقاء اللوم عليه كونه السبب في كل هذا..

مرّ صباح اليوم التالي دون أن يشاهد (إميل) في ساحة التعذيب.. عندها فقط أدرك كل من بالكهف أن إذلال (إميل) هو هدف (غالياس) وها قد ناله الآن.. فما الذي سيفعله بـ(إميل) بعدها؟ سيعدمه بالطبع ولكن كيف؟ بالخازوق؟ هذا مستبعد.. بالتأكيد سيبتكر وسيلة شيطانية لا تنسى ستجعل من (إميل) عِبرة لكل من تُسوّل له نفسه التمرد أو تكرار فعلته.. ربما اليوم أو غدا أو بعد أيام.. هذا هو الاستنتاج الذي توصل إليه من بالكهف حسب فهمهم المتواضع لطريقة تفكير (غالياس).. ولكن.. ماذا لو خالف (غالياس) كل التوقعات وقرر إعدام (إميل) بعيدا عن الأعين؟ (غالياس) من النوع الذي لا يمكن التّنبُّؤ بأفعاله وليس من المستبعد أن يفعلها في الخفاء إن لم يكن قد فعلها وانتهى

الأمر.. هذا كان رأي (رايان) الذي يحمل تلميحا واضحا لم يعد يخفى على أحد وخاصة (يزن)..

تساءل (أوليفر) بصوت مرتعش:

- هل.. هل يعني هذا أن (إميل) قد.. قد يكون ميتا الآن؟

أجابه (يزن) وهو ينظر إلى (رايان) بضيق واضح:

- لا أظن يا (أوليفر).. لدي شعور قوي أن (إميل) ما زال حيا.. ولدي شعور أقوى أن ذلك الوحش لن يفوّت فرصة استعراض بطشِه بـ(إميل) أمام عبيده.. لذا اطمئن.. إنه حي.

بدا الارتياح على (أوليفر) في حين تنحنح (رايان) وقال شيئا عن حاجته لتفقد احتياجات الحصان (هيرو) ثم غادر التجويف بخطى سريعة.. تثاءبَت (أدريانا) بملَل وأعلنت عن رغبتها باستِنشاق الهواء وسألت (يزن) إن كان يرغب بمرافقتها لكنه أخبرها أنه ليس بمزاج يسمح له بشيء كهذا.. هكذا ولأول مرة أصبح وحيدا في الكهف - بغض النظر عن (أوليفر) الذي لا يشكل وجوده فارقا..

(أوليفر):

- (يزن).. ما العمل الآن؟

أطلق (يزن) تنهيدة عميقة وقال وهو يفتح مذكرته بشرود:

- لا أدري حقا.. الوقت ليس من صالحنا.. لا يمكننا مساعدة (إميل) إلا إذا تخلصنا من ذلك الوحش.. أو بتَحييد خطرِه بوسيلة ما...

ابتلع ريقه بصعوبة وتابع:

- أو بقتله.. كيف؟ لا أدري.

بدأ يقرأ -للمرة المائة ربما-بعينَيه كل ما دوّنه من معلومات -مما حكاه (رايان)-عن (غالياس) لعله يظفر بما يعينه عليه.. كل ما استنتجه هو أن ذلك الوحش حاد البصر بشكل خارق بالإضافة إلى ردود أفعاله الإعجازية والتي تمكنه من التصدي للطلقات النارية بمخالبه.. إذن لا يمكن قتله من مسافة بعيدة سواء بالبُندُقيّة أو السهام.. ماذا عن القتال القريب؟ هذا هو الانتحار بعينه.. إذن كيف يمكن قتل وحش كهذا أو حتى تحييده ولو مؤقتا؟ كيف؟ مهما بلغ من قوة فهو يظل مخلوقا حيا بمعنى أنه يتأثر بالإصابات مثله مثل أي مخلوق آخر ولو كان منيعا لما اضطرّ إلى التصدي للطلقات.. في هذه الحالة لا توجد طريقة لتَحييده أو قتله إلا بالخديعة.. ردود أفعاله السريعة والخارقة.. ربما يمكنه استغلالها لخداعه.. ولكن كيف؟ زفر بضيق وحانت منه نظرة عابرة نحو حقيبته.. تصلبت نظراته عليها فجأة ولمَعَت عيناه ببريق عجيب وكأنما هبطت على رأسه فكرة مفاجأة.. تحرك نحو حقيبته وفتحها بلهفةٍ أمام عيني (أوليفر)

غير المباليتين ليفتشها قليلا قبل أن يجد ما يبحث عنه.. أطلت من عينيه نظرة من وجد الحل أخيرا.. يا له من أحمق كبير.. لقد كان الحل في متناول يده طوال الوقت.. كل ما عليه الآن هو إقناع (أدريانا) بخطته للقضاء على ذلك الوحش.. ولكن ماذا عن أتباعه؟ إن قتل سيدهم أمام أعينهم فلا خوف منهم.. لا بد وأن يقنع (أدريانا) بتنفيذ خطته غدا فقد حل الظلام منذ ساعات وذلك الوحش لن يعدم (إميل) إلا في وضح النهار.. سيخرج إليها الآن..

- (يزن) ما الذي يوجد خلف ذلك الممر؟

تساءل (أوليفر) فجأة وبلا مقدمات وهو ينظر بشرود نحو الممر الأيسر الذي لم يدخله أي منهما قط.. يا لعقلك يا (أوليفر).. أهذا ما يشغلك الآن؟! بالرغم من لهفة (يزن) للخروج إلى (أدريانا) إلا أن شيئا ما تحرك في صدره وهو يحدق إلى فتحة ذلك الممر.. شيء أشبه بالحافز الخفيّ الذي يحثه على الاستكشاف.. هو ليس فضوليا بطبعه لكن ذلك الصوت يلحّ عليه حتى يكاد يفجر صدره...(رايان) وابنته في الخارج وهذه فرصة لن تتكرر.. هكذا أصاخ السمع ليتأكد أن أحدا لن يُباغته أثناء قيامه بفعله المُشين ثم نهض وتوجه بخطى ثابتة نحو ذلك الممر..

(أوليفر):

- (يزن) هذا تصرف غير لائق.

همس (يزن):

- شششششش.. أخفِض صوتك.. نظرة واحدة فقط وسأعود.

لم ينتظر سماع رد (أوليفر).. عبر الممر بخطوات سريعة.. ها هو ذا يتطفل على خصوصيات الآخرين.. وقف قليلا يتأمل التجويف الذي لا يختلف كثيرا عن التجويف الذي ينام فيه فيما عدا أنه يفوقه حجما بثلاث مرات على الأقل ويتفرع منه ممرّان آخران.. إنه يحوي حَشيّتين للنوم ومصباحا عتيقا مُعلق بالسقف ينير المكان مع بعض المتعلقات الشخصية مثل قطع الملابس وبُندُقيّة صيد قديمة جدا.. توقفت عيناه على منضدة بدائية صغيرة من الطراز المخصص للكتابة.. لماذا الكتابة تحديدا؟ لأن تلك المذكرة المهترئة التي تخص (رايان) ترقد فوق المنضدة بإهمال.. كما قيل آنفا الفضول ليس من طباعه عندما يتعلق الأمر بخصوصيات الآخرين لكنه ذلك الحافز الغامض الذي أخذ يدق صدره بعنف آمرا إياه بتفقد المذكرة.. كما أن تلك اللّذة الخفية في الاطلاع على أسرار الآخرين قد تحركت لتتآزر مع ذلك الحافز اللعين.. هو نفسه يملك مذكرة مشابهة ويعرف تماما أنها في الغالب تمثل معقل أسرار صاحبها وربما أشنعها.. ترى أية أسرار تحمل هذه المذكرة؟ تردد قليلا قبل أن يخطو نحو المنضدة.. ها هو ذا يمسك بالمذكرة ويتحسسها بين يديه.. هذا فعل مُعيب وشائن.. هو نفسه لم يكن ليقبل أن يطلع أحدهم على أسراره فكيف به يفعلها مع الآخرين؟ كاد يعيدها وينسى الأمر برُمّتِه لكن ذلك

الحافز أطل برأسه مجددا وألح عليه بشراسة غير مسبوقة.. هذه فرصة لن تتكرر.. شعر بالمذكرة ذاتها تدعوه لإماطة اللثام عن مَكنوناتها.. أصاخ السمع مجددا وتلفت حوله وكأنما يتوقع أن يتم ضبطه بالجرم المشهود ثم ابتلع ريقه و.. فتح المذكرة! أنّبه ضميره لكنه تجاهله تماما.. لقد فعلها وانتهى الأمر.. لن يسعه الوقت لقراءتها كلها لذا سيكتفي بقراءة رؤوس الأقلام من كل صفحة.. أمضى بضع دقائق وهو يتصفحها.. إنها أقرب لليوميات التي لا تهم أحدا سوى صاحبها.. بعض الصفحات تتحدث عن أحلام صاحبها وأمانيه وبعضها الآخر يتحدث عن طفولته مع أبيه (نايل).. تبسم (يزن) وهو يقرأ تلك الصفحات لكن ابتسامته تلك سرعان ما تلاشت عندما وصل إلى الربع الأخير من المذكرة.. عقد حاجبيه باهتمام ثم اتسعت عيناه شيئا فشيئا لهول ما يقرأ! الآن فقط عرف لماذا لم يُعلم (رايان) ابنته القراءة والكتابة وقد كان هذا بوسعه كل تلك السنين.. ترى هل تعلم (أدريانا) كيف ماتت والدتها؟ مستحيل وإلا لهجرت والدها منذ سنوات.. هذا إن لم تقتله! ليت الأمر توقف عند هذا الحد.. (رايان) لم يخبره بالحقيقة كاملة عن موت والده.. تبدى عليه الذهول والصدمة أكثر من أي وقت مضى.. ذهوله تحول إلى عدم تصديق ثم إلى غضب عارم تكفيه شرارة واحدة حتى ينفجر.. يداه تهتزان غضبا حتى يكاد يمزق المذكرة.. أنفاسه تتسارع.. كان في غمرة انفعالاته إلى درجة أنه لم يسمع صوت الخطوات القادمة من الممر!

إلى حد أنه لم يلتفت إلى (رايان) الذي تجمد في مكانه عندما فوجئ به وسط التجويف الذي يَقطُنه مع ابنته..

(رايان) بدهشة:

- (يزن)؟ ما الذي تفعله هنا؟

انتقلت عيناه من وجه (يزن) إلى المذكرة التي يمسكها وقد لاحظها للتو.. امتقع وجهه بشدة.. من الغباء أن يسأل عما وجده بالمذكرة.. لقد انكشف كل شيء..

(يزن) بصوت يهتز غضبا ودون أن يرفع بصره عن المذكرة:

- لماذا؟

بدا (رايان) متوترا وخائفا وهو يحاول قول أي شيء لكن صوته المختنق لم يسعفه للنطق بحرف واحد..

استدار (يزن) بجسده كله صارخا بثورة وهو يقذف بالمذكرة نحو (رايان):

- قلت لماذاااا؟

أجفل (رايان) وارتد إلى الخلف عندما اصطدمت المذكرة على وجهه كمن تلقى صفعة مفاجئة على خدّه.. بدا من الواضح أن ما قرأه (يزن) قد أشعل شياطين غضبه إلى الحد الذي جعله ينسى فارق السن بينهما..

(رايان) بصوت مختنق:

- ب.. بني.. اسمعني..

قاطعه (يزن) بهياج:

- لا تدعُني بنيّ.

ابتلع (رايان) ريقه بصعوبة ثم قال وهو يقترب ببطء من (يزن) مادا ذراعيه أمامه:

- أرجوك.. دعني أشرح لك..

قاطعه (يزن):

- تشرح لي ماذا؟ هاه؟

أشار بإصبع يرتعش غضبا نحو المذكرة الراقدة بين قدمي (رايان):

- أليسَ كل شيء واضحا هناك؟ هل ستنكر ما كتبته بنفسك؟ أجبني.

(رايان) وهو يقترب أكثر بحذر:

- اهدأ أرجوك.. استمع إلي.. أنا ناد..

(يزن) بصرخة هادرة:

- ابتعد عني.

ختم صرخته بأن دفع (رايان) بكلتا يديه بخشونة ليرتد الأخير إلى الخلف وتتعثر قدمه ليسقط بجوار مذكرته في مشهد مثير للشفقة.. أغمض (رايان) عينيه بألم وأشاح بوجهه بعيدا وهو يعتدل في جلسته.. تعالت أصوات خطوات سريعة قادمة من الممر..

- ما الذي يجري هنا؟

هتفت (أدريانا) وهي تندفع إلى الداخل يتبعها (أوليفر) بتعابير وجهه المملة.. تصلبت في مكانها عندما وقعت عيناها على والدها الذي يغالب دموعه قبل أن تنقل بصرها إلى (يزن) الذي لم يبدُ عليه أنه لاحظ وجودها وهو يرمي أباها بنظرات احتقار..

(أوليفر):

- (يزن) لم كل هذا الصراخ؟

لم يأبه أحد بالرد عليه.. كان كل شيء واضحا بالنسبة إلى (أدريانا).. (يزن) اعتدى على والدها وهذا كاف لكي تشتعل عيناها غضبا وهي تهتف:

- أيها الجبان.

همّت بالانقضاض عليه لكن يد (رايان) امتدت أمام ساقيها لتمنعها وهو يقول من بين دموعه:

- لا يا ابنتي.. توقفي.

- ولكن يا أبي..

- لا بأس يا ابنتي.. دعيه وشأنه.

ظهر عليها التردد وهي تنظر إليه بأسى ثم إلى (يزن) بسخط وقد بدا واضحا أنها تقاوم رغبتها في قتله -وهي قادرة على ذلك-العجيب أن (يزن) لم يلتفت إليها ولو لمرة واحدة وكأنها غير موجودة..

همسَت بصوت كالفَحيح:

- لقد نجوت هذه المرة أيها الرِّعديد.

قالتها ثم انحنت على والدها لتسانده..

(يزن) موجها كلامه إلى (رايان) بجفاء:

- اطمئنّ لن أتحدث بما عرفته.. لن أُنعَت بـ((الواشي)) بسببك فأنت لا تستحق هذا.. سأرحل الآن فلم أعد أطيق البقاء في مكان أنت فيه.. ولكن قبل أن أفعل سأترك ورقة تشرح لك طريق العودة للأسفل.. لا لن أرافقك.. فكما قلت مرارا لن أتخلى عن صديقي فأنا لست مثلك..

ثم وجه كلامه إلى (أوليفر) الذي وقف يراقب كل هذا بصمت:

- هيا (أوليفر) لنغادر هذا المكان فقد ضاقت نفسي بمن فيه.

أطلقت (أدريانا) سبّة بذيئة وهي تهم بالانقِضاض عليه للمرة الثانية.. وللمرة الثانية منعها (رايان) وصوت بكائه يتعالى.. عبر (يزن) بجانبها وتبعه (أوليفر) متسائلا:

- لست أفهم شيئا.. لماذا نرحل؟

- لقد سمعت ما قلته للتوّ.. لن أكرر كلامي.

- ولكن إلى أين؟

- إلى أي مكان غير هذا.

توقف (يزن) عند فتحة الممر ورمى (أدريانا) بنظرة طويلة غامضة لم تفهمها قبل أن يغادر التجويف.. استخرج مذكرته من حقيبته وانتزع منها صفحة خالية ثم شغّل الساعة الذكية.. انتظر قليلا حتى ظهر الخط الأزرق المتعرج الذي يمثل مسار العودة..

(أوليفر):

- أليس من الخطر المغادرة في هذا الوقت؟ لقد حل الظلام كما تعلم.

(يزن) وهو يخطّ ما يراه على الورقة:

- أنت لست مجبرا على المغادرة معي.. يمكنك البقاء هنا والعودة إلى الأسفل معهما.

(أوليفر) وهو يهز رأسه مُعترضا:

- لا يا (يزن).. لن أعود من دون (إميل).. سأبقى معك.

في هذه الأثناء كانت (أدريانا) تخفف عن والدها بكلمات حانية بينما انشغل عقلها بما سمعته منذ قليل.. ما الذي عرفه ذلك الجبان ولم تعرفه هي طوال حياتها مع أبيها؟ الحق يقال أنه قد أشعلَ فضولها.. ما الذي عناه بكلامه؟ لا بد أن للأمر علاقة بمذكرة أبيها التي ترقد كالجثة بجوارها.. خطر لها أن تسأل أباها -بما أنها لا تجيد القراءة-لكنها سرعان ما أحجمت لأنها تعرف أن أباها سيُراوغ ولن يخبرها بما ترغب بمعرفته طالما أنه لم يفعل من تلقاء نفسه طوال حياتهما معا.. إذن فليس أمامها إلا الخيار الأخير والذي سيغادرهم الليلة بلا عودة إن كان جادا فيما قاله.. هكذا اتخذت قرارها وليكن ما يكون..

ألن تُقاتل من أجل حياتك؟

إنها أول 24 ساعة تمر عليه دون عذاب جسدي في هذه البلدة اللعينة.. وهو لم يتوصّل إلى وسيلة للفرار حتى الآن.. كما ذكر آنفا كان تقديره أن المسخ سينتظر حتى يتعافى -المفارقة العجيبة هنا أن تعافيه يعني اقتراب موعد عقابه بوسيلة هو نفسه يجهلها- ولكن ماذا لو خالف المسخ توقّعاته وقرّر تنفيذ وَعيده قبل ذلك؟ تبا.. كم يَمقُت شعور المحكوم عليه بالإعدام الذي لا يعلم متى ينفذ فيه الحكم الممتزج مع شعوره بالعجز عن تحرير نفسه خاصة مع تلك الكرة المعدنية التي لا تفارق كاحله.. كم يمقت نظرات الشماتة المطلة من عيني (تشيه).. كم يمقت نظرات الشفقة خاصة تلك التي قابلته بها المدعوة (أورغانا) التي جاءت إليه قبل حلول الظلام وحظر التجوال لتودعه على حد قولها.. تبادلت معه بضع كلمات قابلها بلسانه السليط قبل أن يدير ظهره لها.. لكنها قربت رأسها من أذنه السليمة وهمست له بكلمات سريعة جعلت عيناه تتسعان في ذات الوقت التي تسللت يدها بخفّة لتدسّ شيئا في جيب بنطاله قبل أن تغادر الغرفة على عجل.. والآن ها قد حل الظلام والعوراء المدعوة (أليتا) لم تعد منذ أن تركته مع (أورغانا) لوحدهما.. لا يهم.. فقد أصبح يعاملها كالجدار الذي لا يلتفت إليه البتة.. من الجدير بالذكر أنهم لم يحاولوا وسمه حتى الآن.. إما أن المسخ نسي الأمر برمته أو أنه أرجأه إلى يوم عقابه.. لا فارق.. لا يدري متى غلبه النعاس وهو مُستلقٍ على فراشه ولا كيف.. على أنه صحا من نومه مفزوعا على صرخات مختلطة

ووقع أقدام كثيرة ممتزجة مع رائحة الحريق! رمش بعينيه في محاولة لاستيعاب ما يجري وقد بدأ الدخان يتسلل ببطء من أسفل باب الغرفة الذي انخلع فجأة ليندفع (تشيه) ورجاله إلى الداخل...صرخ (تشيه) برجاله:

- فكوا قيده.. أخرجوه بسرعة.

نفذ الرجال الأمر بسرعة لا تصدق قبل أن يسحبوه سحبا وسط الأدخنة إلى خارج المبنى حيث الليل البارد.. إنه لا يحلم إذن.. إنه حريق بالفعل.. الكل يركض صارخا إلى الخارج.. (أليتا.. (ويل).. (ليو).. الكل بلا استثناء.. يبدو أن كل من في البلدة قد استيقظ للمشاركة في إخماد ألسنة اللهب التي تلتهم ثلاثة أو أربعة مبانٍ بما فيها المبنى الذي كان فيه! لقد كونوا صفوفا بأجسادهم كي تنتقل دِلاء الماء بينهم بشكل أسرع.. يا للفوضى العارمة.. لكنها لم تمنع من إحكام الطوق حوله.. خمسة رجال أشداء بمن فيهم (تشيه) يقتادونه بعيدا عن النيران عبر أحد الأزقة المؤدية إلى ساحة البلدة.. النيران يمكن التعامل معها وسيُعدَم الكثيرون بسببها أما هروب (إميل) أو موته محترقا فيعني حتمية إعدام كل ما يدبّ على أرض المقاطعة بلا استثناء..

همس (تشيه) في أذنه السليمة:

- لو لم تكن ثمينا للسيد المعظم لتركت النيران تلتهمك.

تجاهله (إميل) وهو يلتفت نحو المباني المشتعلة.. أهذا ما عنتْه المتوحشة (أورغانا) عندما همست له بأن يستعد للهرب؟ الحق يقال أنه لم يتصور أن تكون صادقة فيما قالته.. لقد تصور أنها إحدى ألاعيب المسخ الدنيئة.. لم يصدقها حتى وهي تدسّ ذلك الشيء في جيب بنطاله.. لم يصدقها حتى عندما تفحّص ما دسّته وعرف ماهيته.. لكنه الآن لا يملك إلا أن يصدقها خاصة مع ما يجري من حوله.. لا بأس بخطتها على الرغم من بساطتها.. فقد أجبرت سجانيه على فك قيده المزعج وهذا كاف.. كل ما عليه الآن هو مباغتتهم والتحرر منهم بحركة خاطفة.. لكن لا.. ليس في هذا الزقاق الضيق الذي يمنحهم الأفضلية في محاصرته.. سيفعلها بمجرد بلوغهم ساحة البلدة.. لم يتبقّ إلا بضع خطوات تفصله عن الساحة.. أخذ نفسا عميقا وتأهب للانطلاق.. لقد حان الوق.. تسمّر في مكانه عندما وقعت عيناه على المتواجدين في الساحة.. (غالياس) مع طائره القبيح.. (أورغانا) ورفيقها الضخم وقد أحاط بهما عدد لا بأس به من حاملي الرماح وقد علت وجهيهما ملامح من اكتشف أمره.. بدا منظرهما مثيرا للضحك بطولهما الفارع وسط الحراسة التي لا قيمة لها.. من الواضح أن السبب الوحيد الذي يمنعهما من الإطاحة بالحراس والفرار هو (غالياس) الذي تناثرت السلطة والسيطرة من حوله وانعكس نفوذه على الجميع.. المسخ اللعين.. لقد اكتشف كل شيء.. التقت عيناه بعيني (أورغانا) للحظة كانت كافية

ليرى فيها خيبة أملها أو هذا ما بدا له.. كان (غالياس) يتحدث إلى كلّ من (أورغانا) ورفيقها وهو يدور حولهما بتُؤدّة كما يدور الحيوان المفترس حول صيده الثمين:

– بئسا لكما من خائنين.. هل ظننتما حقا أني غافل عنكما؟ يا للغباء.. يا للسذاجة.. أنا مندهش أنكما لجأتما لحيلة حمقاء كهذه في حين أنه كان بوسعكما تحرير البشري والفرار به بعيدا أثناء نوم الجميع وقبل أن يبلغني الخبر.. فلم لجأتما لهذه الحيلة التافهة؟

لم يتلقَّ أي رد فاستطرد:

– أنا سأخبركما.. التردد.. تُقدمان ثم تُحجمان.. تخشيان الفشل والعواقب.. لهذا أشعلتما النار ليبدو الأمر عارضا فتسود الفوضى مما يمنح البشري فرصة الهرب وتبقيان أنتما بعيدا عن الشبهات كما تظنان.. أليس كذلك؟

لم يجبه أحد.. كرر سؤاله وهو يتوقف أمام (أورغانا):

– أليس كذلك؟

(أورغانا) وهي تتجنب النظر إليه:

– ليس لدي ما أقوله أيها المخوزق.

تأملها قليلا ثم قال:

– أي عار جلبتُماه لبني جلدتكما.. أي عار.. (أورغانا).. من المخزي أن تحمل خائنة مثلك اسما عظيما كاسم جدتك التي قاتلت معي في حربنا قبل قرون مضت.. وأنت يا (باتار) –قالها وهو يلتفت إليه– جدك لم يكن محاربا لا يشقّ له غبار فحسب.. بل كان من أعز أصدقائي.. كان رفيق سلاح.. كان واحدا من اثنين لم أستطع التغلب عليهما طوال حياتي المديدة.. من المؤسف أن ينتهي نسله بوَصمةِ عار مثلك.

تعالى صوتُ نَحيب فالتفت (إميل) لتقع عيناه على مجموعة من الرجال يجرون (ويل) الذي يُحملق إلى ما حوله بعينين زُجاجيتين مع أخيه الذي ينتحب بلا تحفظ..

نقل (غالياس) بصره بين أسراه ثم أخذ نفسا عميقا وقال:

– بصفتي حاكم هذه المقاطعة وأحد المعظمين الأربعة فقد حكمت عليكم بقطع أقدامكم اليوم.. وغدا أيديكم والذي يليه ألسنتكم ثم آذانكم.. ستأكلون مما يقطع منكم وستعيشون في هذه الصورة ما بقي لكم من العمر وستعذبون أشد العذاب حتى أشاء موتكم وعندها..

مال نحوهم وازدادَ تحدّب ظهره وهو يضيف بلهجة مخيفة:

– وعندها ستُسلخ جلودكم وأنتم أحياء ثم تعدمون بالخازوق ولكن ليس أي خازوق.. بل خازوق يليق بكم ويجعل منكم عبرة لكل من تسول له نفسه التّجرُّؤ علي.

تلا الحكم غير مبالٍ بالنيران المستعرة على بعد زقاق واحد عنه والتي انعكست ظلالها على جمجمته مما منحه سمتا شيطانيا هو جدير به.. أطلق طائره صيحة رضا في حين شقت الابتسامة الجانبية وجه (تشيه) بسعادة لا توصف.. انهار (ويل) باكيا على ركبتيه وهو يتوسل الرحمة.. تحول نحيب (ليو) إلى عويل يقطع نِياط القلوب.. شحب وجه (أورغانا) في حين بدا (باتار) أكثرهم تماسكا -أو هو يتظاهر بذلك- تلفت (إميل) حوله وهو يفكر بطريقة للنجاة من هذا المصير المريع.. توقفت عيناه على (أليتا) التي أشاحت بوجهها بمجرد أن التقت أعينهما.. العوراء الحقيرة.. لقد فشلت الخطة بسبب وشايتها ولا شك.. إنها تقف هناك مع من تَجمهروا لمشاهدة هذه المهزلة.. كم تمنى لحظتها لو يستطيع الوصول إليها ليقتلع عينها الأخرى ويمزق جلد وجهها..

أشار (غالياس) برأسه إلى (إميل) آمرا عبيده:

- لنبدأ بهذا وليوسم أولا.

تعالت صيحات التأييد وانقضت الأيدي لتُكبّله وسط صراخه وشتائمه.. ما هي إلا دقائق حتى برز السيخ المعدني ذو الطرف المحمرّ من الحرارة والذي يحمل وسم الجمجمة الحيوانية ذات القرون الأربعة أمام عينيه اللتان اتسعتا على آخرهما.. حاول أن يبعد رأسه لكن أحدهم تطوّع وثبّته بغِلظة.. الوسم يقترب من خده حتى شعر بحرارته تلفح

خدّه الأيسر قبل أن يصل إليه.. ما لا يعلمه (إميل) هو أن الأدرينالين يتدفق في جسد المرء في أوقات الخطر مما يمنحه قوة إضافية تساعده في المواقف الصعبة.. وهذا ما حدث بالضبط.. فقد أدرك (إميل) أن الوسم سيدفع إلى خده بسرعة خاطفة الآن.. لذا استنفرَ كل طاقته وانطلق إلى الأسفل صارخا بقوة مفاجئة في ذات اللحظة التي اندفع فيها الوسم الساخن نحو خده الذي لم يعد في مكانه.. شعر بالوسم الملتهب يحرق أطراف شعره من الأعلى قبل أن تنطلق صرخة ألم شنيعة ممن كان يثبت رأسه.. كانت المفاجأة صاعقة حتى أن الأيدي تراخت عنه قليلا.. لم يضيع ثانية واحدة فسحب ذراعيه من بين الأيدي التي تكبله بغتة ثم انتزع السيخ من يد حامله وطوح به بحركة دائرية مطلقا صرخة قتالية.. أصاب الذهول الجمع المحيط به وهم يتلقون ضربات السيخ الحامية على رؤوسهم فتفرقوا عنه صارخين بألم.. تبدت الدهشة على كل من (أورغانا).. (باتار).. (ويل) وأخيه.. وحتى (أليتا).. أطلق الطائر صيحة غاضبة محتجة على إفساد اللحظة في حين وقف (غالياس) يراقب كل هذا بصمت مهيب.. (إميل) وهو يتخذ وضعية قتالية:

– لن أسمح لكم بتنفيذ ما يقوله المسخ المعتوه.. ابتعدوا عني.

تأهب حاملي الرماح وتحركوا نحو (إميل) لكن (غالياس) أشار لهم بعدم التدخل.. نظر (تشيه) إلى سيده الذي لم يقل أو يفعل شيئا.. فهم (تشيه) ما يعنيه هذا فهتف بالرجال غير المسلحين:

- ما الذي تنتظرونه أيها البلهاء؟ أمسكوه.

لم يكد ينهي كلامه حتى انقض الرجال صارخين على (إميل) الذي تفادى أولهم بقفزة جانبية أعقبها بأن هوى بالسيخ على مؤخرة رأسه ثم استدار ليركل الثاني في فكه ويهوي على أنف الثالث بقبضته الحرة.. الحق يقال أن الأدرينالين قد أدى عمله على أكمل وجه مع (إميل) الذي استبسل في القتال وسط نظرات الانبهار التي أطلت من بعض العيون لا سيما (أليتا) وكل من تلقى ذات الحكم الذي تلقاه.. ولكن إلى متى سيستمر هذا القتال العبثي؟

الدائرة تضيق شيئا فشيئا من حوله وهو يتلفت بتَوَتُّر ملوّحا بسلاحه في الوجوه.. لحظة.. ما هذه الرائحة؟ إنها رائحة شواء.. لا.. إنها أقرب ما تكون إلى رائحة اللحم المشوي لو كان متعفنا.. بعبارة أخرى هي أقرب لرائحة الجثث المحترقة! توقف الهجوم دفعة واحدة.. الجميع يشتم ذات الرائحة.. الجميع يلتفت بتوجُّس ناحية الحقول حيث تقبع خلفها غابة الجثث.. التفت (إميل) بحذر إلى ذات الناحية.. يمكنه من مكانه هذا تمييز أعمدة الدخان المتصاعدة من خلف المباني.. اتسعت عيناه وقد فهم ما يعنيه هذا.. أطلّ الذعر الحيواني من العيون وارتجفت الشفاه وهتف أحدهم بجزع:

- الحديقة.. إنها.. إنها تحترق.

- لاااا.

ساد الهَرْج والاضطراب الساحة.. اندفع الكثير بلا انتظام نحو غابة الجثث دون أن ينتظروا أمر سيدهم الذي ظل يحدق إلى ناحية حديقته بصمت مخيف وصدره يعلو ويهبط في حين حلق طائره فوق الرؤوس لا يَلوي على شيء مطلقا صيحات طويلة وكأنما يُولوِل لهذه المصيبة.. استغل (إميل) الاضطراب الحاصل فاندفع وهو يهوي بالسيخ على من تبقى من محاصريه وشق طريقه بينهم ثم..

- إلى أين؟

برز (تشيه) أمامه بغتة وأعقب هتافه بأن هوى بسوطه عليه بكل قوته..

هتف (إميل) وهو يواصل انطلاقته:

- ليس ثانية أيها الوغد.

كان قد استوعب الدرس جيدا لذا قفز عاليا هذه المرة متفاديا السوط الذي مرق من تحته وقبل أن يهبط على قدميه سدد ضربة محكمة بطرف السيخ على صدغ (تشيه) الذي لم يجد الوقت الكافي ليتدارك نفسه أو حتى للذهول.. تردد صوت الضربة عاليا وتفجرت الدماء لتغرق جانب رأس (تشيه) وهو يهوي كالجُوال الثقيل بلا حراك... واصل (إميل) انطلاقه

ولكن ولدهشة الجميع -باستثناء (غالياس) الذي لم يبعد بصره عن أعمدة الدخان- ليس إلى خارج الساحة! بل إلى جانب النافورة الجافة حيث (ليو) و(ويل) اللذان صعقا وهما يريان (إميل) ينقض على من يكبلونهما لينهال عليهم بسلاحه حتى شتّتهم عنهما..

(إميل):

- ما الذي تنتظرانه؟ اهربا.

هتف بهما وهو يُصوّب نظراته نحو (غالياس) الذي بدأ صدره يعلو ويهبط بوتيرة أسرع مع صوت زمجرة خافتة أقرب لزمجرة وحش غاضب.. تطلع كل من (ويل) وأخيه إلى (إميل) بمنتهى الغباء..

التفت (إميل) إليهما وهتف:

- لا تحدقا إلي هكذا.. اهربا.

ردد (ويل) ببلاهة:

- نهرب؟! نهرب ممن؟! ولماذا؟!

عاد (إميل) ينقل بصره بتَوَتُّر بين (غالياس) الذي بقي كما هو وبين الرجال اللذين لَمَلَموا أنفسهم واحتشدوا من حوله مجددا..

(إميل):

- أيها الأحمق.. هل ستستسلم لمصيرك هكذا؟ ألن تقاتل من أجل حياتك؟

(ويل) بحيرة:

- أقاتل من أجل حياتي؟! كيف؟! إنها ملك للسيد المعظم وهو قد قرر..

قاطعه (إميل) وهو يُلوِّح بالسيخ في وجوه الحشد الذي بدأ يطوقه:

- اخرس أيها الأبلَه.. اخرس.

ثم التفت إلى (أورغانا) و(باتار) اللذان يتابعان كل هذا بذهول صامت وهتف بهما:

- وأنتما.. هل ستَستَسلمان أيضا؟

تطلعا إليه طويلا قبل أن ينقلا أبصارهما بينه وبين (غالياس) وكأنهما يخبرانه أن ما يقوله لا قيمة له بوجود سيد المقاطعة.. احتقن وجه (إميل) بغضب قائلا وهو يعود ببصره نحو الحشد الذي يستعد للانقضاض عليه:

- تبا لكم.. أنتم تستحقون ما سيجري عل...

فجأة دوّت صرخة هادِرة غاضبة ارتجت لها الساحة بما فيها.. صرخة زلزلت كيان كل من في الساحة بلا استثناء.. الكل شعر بالرعب يجتاح قلبه ليشلّ حركته ويجبره قسرًا على التحديق إلى مصدر الصرخة الذي لم يكن سوى (غالياس) الذي رفع عقيرته نحو السماء مطلقا صرخته وكأنه بذلك يطلق العنان لكل انفعالاته.. فجأة وأمام العيون الذاهلة التي لم تستوعب ما يجري في بادئ الأمر انقض (غالياس) على عبيده اللذين لم يجدوا الوقت الكافي للهرب كالوحش الكاسر.. يلكُم هذا ويطوّح بالثاني نحو أقرب جدار ويدوس آخر على صدره محطّما أضلاعه.. كان (إميل) يراقب المسخ وهو يعمل في عبيده بعينين متسعتين وقد أصيب بشلل لحظي لهول ما يراه.. ثم.. التفت (غالياس) إليه بعينين تشتعلان -حرفيا- وأشار إليه بإصبع يهتزّ مَقتا قائلا بصوت يحمل كل كراهيته:

- أنت.. أنت السبب في كل هذا.

مع آخر كلمة اندفع بسرعة لا تصدق نحو (إميل) الذي شعر بثقل الهواء من حوله وشهق عندما وجد (غالياس) يقف أمامه مباشرة بقامته الفارعة المهيبة.. في اللحظة التالية وفي لمح البصر انتزع (غالياس) سلاح (إميل) من يده وطوح به بعيدا وفي اللحظة التي تلتْها شعر (إميل) بيدين كالفولاذ ترفعانه للأعلى وصاحبهما يردد بكل غضب:

- كل هذا بسببك.

شعر بجسده يطير في الهواء قبل أن يصطدم ظهره بعنف بأحد جدران مباني الساحة ليهوي بكل ثقله أرضا والدوار اللحظي يكتنف رأسه.. كل عظمة وعضلة في جسده تئنّ ألما.. حاول النهوض لكنه شعر بذلك الكيان الهائل يقف فوق رأسه.. رفع عينيه نصف المغمضتين لتقعا على (غالياس) الذي التقط ساقه اليمنى وشدّها بيُسراه وهو يقول بنَبرةٍ لا تمت إلى شخصيته بصلة:

- أيها البشري النّجِس.. هل بلغت بكم الجُرأة أن تشعلوا النار في حديقتي حتى أنشغل بها وتنجحون بالفرار؟ كلكم ستدفعون الثمن.. سأنفذ حكمي بنفسي وسأبدأ بك..

برزت مخالبه القاطعة من أصابع يمناه.. اتسعت عينا (إميل) وقد فهم ما يراد به.. توتّرت عضلات ساقه وهو يحاول تحريرها ويداه تفتّشان من حوله عن أي شيء يصلح كسلاح..

(إميل):

- لاااا.. لاااا..

رفع (غالياس) ذراعه عاليا ولمَعَت مخالبه ببريق مخيف ثم.. في جزء من الثانية لمح (إميل) المَخالب البتّارة وهي تقطع الهواء بصوت مسموع نحو قدمه.. أغمض عينيه صارخا بيأس..

- إياااااك.

تناهى إلى سمعه صرخة أنثوية مألوفة جدا في ذات اللحظة التي كان ينبغي فيها أن تُبترَ قدمه.. فتح عينيه لتقعا على (غالياس) الذي زمجر بحنق وارتدت يده إلى الاتجاه المعاكس لتلطم وجه (أورغانا) التي هاجمته من الخلف ليُحلّق جسدها بعيدا عن مجال رؤية (إميل)..

(غالياس):

- كيف تجرؤين أيتها الخائنة؟

سمع (إميل) صوت شيء ثقيل يهوي على الأرض.. التفت إلى مصدر الصوت ليرى (أورغانا) تهب واقفة على قدميها وهي تمسح بكفها خيط دم أسود سال من فمها قبل أن.. فجأة دوت صرخة غضب هادرة ارتجفت لها القلوب.. لا.. إنها ليست من (غالياس).. إنها.. في اللحظة التالية انقضّ شيء ضخم وهو يزمجر بوحشية على (غالياس) الذي تخلى عن (إميل) ليواجه هذا المهاجم.. حدق (إميل) بأنفاس مبهورة إلى (غالياس) الذي التحمَ مع (باتار) في قتال هو أقرب لقتال الضواري.. أطلقت (أورغانا) صرخة قتالية ثم قفزت لتنضمّ إلى (باتار) في قتاله المميت.. كان (غالياس) يقاتل بقبضتيه وكأنه يحرص على عدم قتل خصميه.. الحق يقال أن (غالياس) كان بالغ القوة ولكن (باتار) لم يكن خصما هيّنا أيضا.. أما (أورغانا) فقد كانت الأقل قوة بينهم.. كانت ضربات (غالياس) غاية في العنف.. فعلى الرغم من تصدي (باتار)

لمعظمها إلا أنها تقذفه إلى الخلف كلما تلقى إحداها ليرتطم بأحد الجدران وينسفه بدوي أشبه بدوي الانفجار لتنهار قطع القِرميد مُخلفة سحابة من الغبار قبل أن يقفز (باتار) من خلالها لينقض مجددا على خصمه في حين أن (أورغانا) تهاجم (غالياس) من الخلف في محاولة لتطويقه لكنه سرعان ما يلطمها مبعدا إياها ليواصل المعركة مع (باتار)..

(باتار) وهو ينحني متفاديا قبضة (غالياس) بخفة لا تتناسب مع حجمه:

- كيف جرؤتَ على ضرب سيدتي؟

(غالياس) وهو يتصدى للَكمات (باتار) المتتابعة:

- هذا حقي أيها الخائن الدّنس فأنتما ملكي.

(باتار) وهو يقفز جانبا متفاديا لكمة قوية اخترقت الأرض حيث كان يقف:

- ليس بعد الآن.

- هذا ما تظنه.

لم يجرؤ أي من أتباع (غالياس) على التدخل -حتى لو تدخلوا فهم لن يحدثوا أي تأثير يذكر على مجرى القتال- نهضت (أورغانا) بتثاقل بعد أن تلقت عددا لا بأس به من اللكمات وخيوط الدم الأسود تنساب من

جانب رأسها وأنفها وفمها.. (أورغانا) موجهة كلامها إلى (إميل) وهي تتأهب للهجوم مجددا:

- أنت ماذا تنتظر؟ اهرب.

تطلع إليها بحيرة وهو لا يزال مُستلقيا في مكانه فتابعت وهي تمسح الدم من وجهها:

- أسرع.. لن نصمد للأبد.

- ولكن..

صرخت به وهي تندفع نحو القتال الدائر أمامها:

- أسرع.

نهض (إميل) وبدا عليه التردد وهو ينظر إلى الزّقاق المؤدي إلى الحقول قبل أن يعيد بصره نحو المتصارعين أمامه.. بقدر رغبته بالفرار والنجاة بحياته إلا أنه يكره أن يظهر بمظهر الجبان الذي يتخلى عن من يقاتلون من أجله.. حتى لو عاد إلى عالمه هل سيكون راضيا عن نفسه؟ لا وألف لا.. هل سينسى ما فعله به المسخ اللعين؟ لا بالطبع.. سيظل يتذكر كلما نظر إلى موضع أذنه المبتورة وكلما نظر إلى جسده الذي حفرت عليه ندوب العذاب.. تصاعد الغضب والمَقت من أعماق قلبه وتملكته الرغبة العارمة بقتل معذبه.. ولكن كيف؟ ربما لو التقط أحد الرماح التي

سقطت من حامليها هناك.. لا.. هو بحاجة إلى سلاح بعيد المدى مثل.. مثل بُندُقيّته.. كم تمنى لحظتها لو يمسك ببُندُقيّتِه لينسف رأس المسخ.. عضّ على شفته السفلى بحركة عصبية لا يحب أن يراها أحد.. بما أنه لا يملك أي.. مرق شيء بشكل مفاجئ أمام عينيه للحظة قبل أن يواصل طريقه ليسقط على بعد يسير منه.. التفت بسرعة نحو هذا الشيء -أو بالأصح هذه الأشياء- وتجمدت نظراته وأطرافه دفعة واحدة عندما وقعت عيناه على حقيبتِه وبلطتِه الرفيعة و.. بُندُقيّتِه! إنها حاجياته التي سلبت منه وهو قد نسي أمرها تماما.. لا بد وأنهم قد احتفظوا بها في مكان ما في البلدة.. ولكن.. من الذي رماها إليه؟! التفت بسرعة إلى الناحية التي قدر أنها قذفت منها.. لمحَ ظهر أحدهم يعدو مسرعا عبر أحد الأزقة ليختفي عن مجال بصره.. ترى هل هو..؟! لا.. لا وقت لهذا.. انطلق نحو أدواته لكي.. فجأة شعر بمن يتشبث بساقيه بقوة مُباغتة أفقدته توازنه ليهوي على وجهه.. التفت بذعر متصورا أنه المسخ.. لكن.. إنه (تشيه)! الدماء تغطي جانب رأسه المصاب والشرر يتطاير من عينيه الناريتين.. ألم يمت الوغد؟

صرخ (تشيه) بجنون مطبق:

- سأقتلك.. سأقتلك.

هتف (إميل) وهو يركله في وجهه:

- ابتعد.. ابتعد عني.

تأوّه (تشيه) وتراخت ذراعاه عن ساقي (إميل) الذي هبّ على قدميه ليواصل انطلاقه نحو بُندُقيّتِه.. لكن (تشيه) كان مصمما على تنفيذ ما في رأسه وهذا ما منحه قوة إضافية ليهب هو الآخر على قدميه بالرغم من إصابته وينقض على (إميل) صارخا بثورة ليقعا معا على الأرض ويشتبكا في القتال.. المعركة من حولهما تشتد ضراوة.. الجدران تتهاوى مخلفة أطنانا من سحب الغبار والحجارة تتطاير في كل مكان.. الساحة كلها تهتز وتئنّ تحت وطأة كل هذا العنف.. نجح (تشيه) أخيرا في اعتلاء صدر (إميل) وأطبقت يداه على عنقه.. قطرات الدم تتقاطر من صُدغ (تشيه) على وجه (إميل) الذي احتقن بشدة.. إنه يختنق..

(تشيه) والجنون يطل من عينيه:

- مت.. مت..

- إياك أيها العبد.

كانت هذه من (غالياس) الذي تنبّه لما يَنتويه عبده فحاول الاندفاع نحوه لولا استِبسال (باتار) و(أورغانا) لمنعه وكأنهما يعلمان أن الخطر الوحيد على (إميل) هو (غالياس) نفسه..

لم يضيع (إميل) الوقت في محاولات خرقاء لإبعاد اليدين اللتان تخنقانه كما يفعل البلهاء في كل زمان ومكان.. باعُه الطويل في المشاجرات أكسبَه خبرة لا يستهان بها وقد تجلى هذا في ردة فعله التي تمثلت في لكمتين

سريعتين على عضو خصمه التناسلي.. شهق (تشيه) بألم وارتخت يداه عن عنق (إميل) الذي أودع قبضته كل قوته ثم هوى بها على صُدغ خصمه الأيمن حيث إصابته النازفة ليطرحه جانبا قبل أن ينهض بسرعة ليواصل طر..

- لا.. لن تفرّ من هنا.

صاح (تشيه) وهو يتشبث بساق (إميل) الذي لكمه على أنفه هاتفا:

- يا لك من عنيد.

تفجرت الدماء من أنف (تشيه) لتغمر صدره كله وبالرغم من هذا لم يفلت ساق (إميل) وهو يصرخ:

- لا.. لن تفلت.

ثم انطلقت من حلقه ضحكة مجنونة وهو يتابع:

- لقد خالفت أوامر سيدي وسأعدم لا محالة.. لكني لن أعدم لوحدي.. بل سنعدم معا.. معا.

لكمه (إميل) بقوة أكبر على فمه:

- أيها الحقير.

تعالت ضحكة (تشيه) بالرغم من أسنانه المكسورة بفعل لكمة (إميل) الأخيرة:

- سنموت معا.. سنموت معا.

ألقى (إميل) نظرة متوترة نحو الساحة.. بدأ الإنهاك ينال من (باتار) و(أورغانا) في حين بدا المسخ شامخا وقويا لا يمنعه من الانقضاض على (إميل) إلا هجماتها المتكررة التي لا تزيد عن إزعاج الحشرات.. لن يضيع المزيد من الوقت.. استجمع (إميل) كل قوته ثم هوى بقبضته على ما بين عيني (تشيه):

- أنت أردت هذا.

اتسعت عينا (تشيه) عن آخرهما وقد توقف عن الضحك المجنون قبل أن تسقط رقبته إلى الخلف بلا حراك.. من الواضح أنه قد لقيَ مصرعه هذه المرة وإن ظلت أصابعه متمسكة بساق (إميل) الذي ركله مبعدا إياه وقد شعر بالأسف لأنه قتل إنسانا ولأول مرة في حياته.. التقط (إميل) بُندُقيّتَه وتأكد من أنها ما زالت محشوة بالطلقات في سرعة قبل أن يُصوّبها إلى (غالياس) الذي تنبّه إلى (إميل) فالتفت إليه وزمجر بغضب و.. انطلقت الرصاصة نحو هدفها وكانت المفاجأة من نصيب (إميل) الذي أصيب بشلل لحظي عندما تصدى (غالياس) للطلقة بمخالبه لترتد بعيدا.. كانت هذه الالتفاتة خطأ (غالياس) الذي استغلّه (باتار) ليَثبَ

على خصمه من الخلف ويحيط بذراعيه العلويين عنقه في حين أحاطت ذراعاه السّفليين بذراعي خصمه لتفردهما إلى الخلف بقوة.. تعالت زمجرة (غالياس) الغاضبة وقد أدرك خطأه متأخرا.. قفزت (أورغانا) على ساق (غالياس) الضخمة لتُثبّتها في مكانها وقد فهمت ما يبتغيه (باتار).. أخذ (غالياس) يطوح بجسده كله يمنة ويسرة لإبعاد مُكبليه مما أربك (إميل) الذي أفاق من المفاجأة وحاول إحكام التصويب مجددا على رأس خصمه الذي لم يتوقف لحظة واحدة عن الحركة بالإضافة إلى أن وجود (باتار) خلفه يعني أن الطلقة -إن أصابت هدفها- ستخترق رأسه أيضا.. ظهر التردد على (إميل) في حين استنفر (باتار) كل ذرة من كيانه صارخا و.. نجح في تثبيت (غالياس) بصعوبة بالغة وأذرعه كلها ترتعش مما يبذله من جهد في سبيل ذلك..

صاح (باتار):

- افعلها..

(إميل) بتردد:

- أنت أيضا ست...

صرخ (باتار):

- هياااا..

زمجرة (غالياس) تحولت إلى زئير مخيف.. احتقن وجه (باتار) حتى سال خيط من الدم الأسود من أنفه المسطح.. أشاحت (أورغانا) بوجهها لتداري دموعها وقد أدركت ما سيحصل.. تردد (إميل) للحظة ثم حسم أمره.. لا مجال للتردد أو العواطف الآن.. لكل شيء ثمنه وقد اختار (باتار) طواعية دفع هذا الثمن.. أحكم (إميل) التصويب وعض على شفته السفلى بمرارة وقهر ثم.. تعالى صوت حاد طويل وانطلقت الرصاصة..

- ابنتي.. اذهبي خلفه وأعيدِيه..

قالها (رايان) وهو يمسح دموعه ويتأمل الورقة التي تركها (يزن).. أومأت (أدريانا) بالإيجاب ثم تمشّقت قوسها وجَعبَة سهامها.. لم تكن بحاجة إلى أمر أبيها فقد كانت تنوي اللحاق به بالفعل ولكن لأسباب أخرى لا تخفى على القارئ.. ها هي تعبر الممر الجانبي من أسفل الشلال وتستنشق هواء الليل البارد.. إنه هناك! إنه يقف على حافة الجرف مع غريب الأطوار وكلاهما يحدقان إلى البلدة بوقفة متصلبة.. هناك شيء ليس على ما يرام.. لم يلتفتا إليها بالرغم من صوت خطواتها الواضح وهي تقترب لتتطلع إلى حيث يتطلعان.. اتّسعت عيناها الناعستان عندما وقعتا على النيران التي تلتهم جزءا من البلدة بالإضافة إلى تلك التي تنتشر ببطء في جزء من غابة الخوازيق..

ردد (يزن) بأنفاس مبهورة:

- يا إلهي.. (إميل).

ودون كلمـــة أخرى انطلق مســـرعا بين الأشجار ليـــذوب وسط الظلام..

- أنت عُد إلى الداخل.

قالتها (أدريانا) ل(أوليفر) دون أن تنتظر رده ثم انطلقت في ذات الاتجاه الذي سلكه (يزن).. إنه متوجّه نحو البلدة ولا شك.. كانت قد أدركت منذ اللحظة الأولى أن لصديقه المدعو (إميل) علاقة بما يجري في الأسفل حتى قبل أن يتلفظ (يزن) بحرف واحد.. لكن ما أثار دهشتها بحق هو الشجاعة المفاجئة التي بدرت منه للتوّ وهي التي تعلم مدى جُبنه لكنها سرعان ما أدركت أن خوفه على صاحبه هو ما ولّد في نفسه هذه الشجاعة المؤقتة حتى يتوغّل في الغابة في هذا الليل وهو ما لم يكن ليجرؤ على فعله في ظروف أخرى..

ها هو ذا يركض أمامها.. المسافة بينهما تتقلّص.. رائحة الجثث المحترقة تزكم أنفيهما.. لاحت لهما النيران التي.. تسمّرا دفعة واحدة وقد هالهما المنظر حتى خيل إليهما أنهما يقفان على حدود الجحيم ذاته.. الجثث المشتعلة وهي تحمل ضحكة الموت التي لا تخطئها العين.. الصرخات المتعالية من الحلوق التي يجاهد أصحابها لإطفاء النيران غير عابئين بهما..

خطر لـ(يزن) أن ينسحب الآن وهو يحدق إلى كل هذا الهول.. ولكن.. هل سيجبن الآن؟ هل سيتخلى عن (إميل)؟ انعكس صراعه الداخلي على وجهه وظهر عليه التردد.. العرق يغمر وجهه.. شعر بمن يقبض على ذراعه بقوة فالتفت إلى (أدريانا) وكأنه يراها للمرة الأولى وهي تتطلع إلى عينيه مباشرة بنظرة غريبة جدا!

(أدريانا):

– هل ستتراجع الآن؟ هل أفقت من نَوبة شجاعتك لتعود كما كنت؟

(يزن):

– ...

(أدريانا):

– ماذا لو كان في حاجة ماسّة إليك الآن؟ هل ستتخلى عنه؟

ارتعشت شفتاه وكأنه عاجز عن نطق أي جواب..

هزت (أدريانا) ذراعه بخشونة وصاحت متخلّية عن برودها:

– هل ستتخلى عنه؟

تبدت الحيرة على (يزن) وهو يتطلع إلى عينيها ثم وجه بصره نحو الغابة المشتعلة وبدا وكأنه يفكر فيما قالته.. لَمَعَت عيناه ببريق غامض وهو يتحسّس حقيبة ظهره ثم قال بحزم غير معهود وهو يشدها من معصمها:

- اتبعيني.

سحبها إلى الخلف بعيدا عن حافة الجحيم ثم أنزل حقيبته وأخذ يبحث فيها بلهفة أمام نظراتها المتسائلة.. تناول من حَقيبتِه كرة بيضاء بحجم عقدة الإبهام بدا من الواضح أنها تغلف شيئا أصغر بداخلها.. رفع الكرة أمام وجهها وقال:

- يمكننا القضاء على ذلك الوحش وإنقاذ (إميل) بهذه.

نقلت بصرها بينه وبين الكرة وقالت باستغراب:

- بهذه؟ ما الذي تعنيه؟

واصل كلامه بإصرار:

- نفّذي ما سأقوله.. ثقي بي.

شرح لها فكرته بكلمات مُوجزة وهي تستمع إليه بعدم اقتناع حتى انتهى من كلامه ثم انهمك في تنفيذ الجزء الخاص به..

(أدريانا):

- هل أنت متأكد أنك بكامل قواك العقلية؟

(يزن):

- يمكنك الانسِحاب.. أما أنا فسوف...

- سأذهب معك...

لوّحت بإصبعها في وجهه:

- ولكن تذكر ما ينتظرنا إن فشلت خطتك.

تجاهلها وهو يرتدي حقيبته ويناولها ما انتهى منه بصمت.. تناهى إليهما صوت دوي بعيد شبيه بدوي الانفجارات المتكررة.. تبادلا نظرات القلق وتساءلت (أدريانا):

- ما هذا الصوت؟

- لا أدري.. هيا لنسرع.

ثم تذكر شيئا وسألها:

- انتظري.. لما لحقتِ بي؟

أجابته وهي تدفعه إلى الأمام:

- ليس الآن.. صاحبك سيشبع موتا إن سألتني ثانية.

انطلقا بأقصى سرعة حتى بلغا غابة الجثث التي لم تعد كذلك في هذه الناحية على الأقل.. في هذه اللحظة سمعا دوي فَرقعَة بعيدة لم تميز كنهها (أدريانا) لكن (يزن) ميزها بوضوح.. إنه دوي عيار ناري.. إنه (إميل)..

غطّيا أنفيهما وفمَيهما وهما يعبران من بين الجثث المشتعلة والأجساد المنهمكة في محاولة السيطرة على هذا الجحيم.. لاحظهما واحد أو اثنين لكنهما لم يتوقفا ولم يستوقفهما أحد.. الحرارة تلهب الأجساد.. الحق يقال أن غابة الجثث هذه مترامية الأطراف إلى الحد الذي يحتاج فيه المرء لبضع دقائق حتى يقطعها ويصل إلى منطقة الحقول.. تعالى دوي طلقة أخرى.. لقد قطعا مسافة لا بأس بها.. لقد تجاوزا منطقة النيران ودخلا منطقة لم تنتشر فيها النار كثيرا وإن بدأت تزحف إليها ببطء.. تصلب (يزن) في مكانه بغتة وهو يحدق أمامه مَدهوشًا..

(أدريانا):

- أيها المعتوه لما توقفت؟

أشار (يزن) بإصبعه نحو نقطة بعيدة وقال بأنفاس متسارعة:

- إنه (إميل).

- ماذا قلت؟

ردد بصوت أعلى:

- إنه (إميل).

تطلعت إلى حيث أشار وبالرغم من بعد المسافة والنيران التي تلفح الوجوه إلا أنها استطاعت تمييز ذلك الشاب الذي يرتدي حقيبة على

ظهره ويحمل بيُمناه سلاحًا أشبه بالسيخ الرفيع.. لقد كان يركض بين الأعمدة المشتعلة بسرعة محمومة..

صرخ (يزن) بأعلى صوته وهو يُلوِّح بيده:

- (إميل).. (إميل).

التفت (إميل) إليهما وتسمر في.. فجأة تعالى زئير مرعب ارتجفت له قلوب الأموات قبل الأحياء وأعقبه تطاير الخوازيق من خلف (إميل) الذي لم يجد الوقت الكافي للالتفات إلى ذلك الكيان الضخم المندفع نحوه.. تجمدت الدماء في العروق عندما وقعت الأعين على ذلك الكيان الذي لم يكن سوى (غالياس)!

لن أستسلم...

لكي نفهم كيف جرت الأمور مع (إميل) علينا أن نعود إلى الوراء قليلا وتحديدا إلى الثواني التي سبقت إطلاق (إميل) النار على رأس (غالياس).. كان الطائر القبيح وقتها يحلق فوق ساحة البلدة ويراقب ما يجري بالأسفل عندما أحكم (إميل) تصويب فُوّهَة بُندُقيّتِه نحو سيده.. أدرك الطائر أن سيده سيتعرض للأذى لذا ودون أدنى تردد انطلق كالسهم نحو (إميل) مطلقا صيحة طويلة وخلال ثانيتين فحسب بلغ هدفه و.. انتزع البُندُقيّة من بين يدي (إميل) في ذات اللحظة التي انطلقت فيها الطلقة ومالت قليلا عن هدفها لتَحتكّ بجانب جمجمة

(غالياس) وجانب رأس (باتار) الذي صرخ بألم وتفجرت الدماء السوداء لتلوّث جانب رأسه الأيسر.. حدق (إميل) بذهول إلى الطائر الذي حلق مبتعدا وأطلق سبّة غاضبة خلفه.. حدث كل هذا في ثوان قليلة لا تتجاوز السبع هي المدة التي استطاع فيها (باتار) من تثبيت (غالياس) ولم يكن ليصمد أكثر من ذلك.. زمجر (غالياس) وهو يحرّر ذراعيه قبل أن يقبض على مؤخرة عنق (باتار) الذي خارت قواه ليهوي به بعنف ضاربا ظهره بالأرض ثم امتدت يده الأخرى لتقبض على عنق (أورغانا) التي صرخت بألم وهو يهوي بها إلى جانب (باتار).. وأمام عيني (إميل) الذاهلتين ضغط (غالياس) بقدمه على ذراع (باتار) العلوية اليسرى بخشونة ثم انحنى عليه وقبض على معصمه ثم.. تعالى صراخ (باتار) و(غالياس) يشد.. و.. تطايرت الدماء السوداء ودوت صرخة (باتار) الهائلة عندما انتزع (غالياس) ذراعه من مرفقه ثم أخذ يهوي بها على وجه صاحبها ووجه (أورغانا) وهو يردد:

– تريدان قتلي؟ أنا (غالياس) المعظم أحد الكبار الأربعة تتصوران أنكما..

بترَ عبارته بغتةً عندما رفع بصره نحو (إميل) الذي التقط ما بقي من حاجياته ثم انطلق مبتعدا عبر الزّقاق المؤدي إلى الحقول.. برزت مخالب (غالياس) ودون أي تردد كسر اثنين منها وغرس واحدا في كتف (باتار)

وفعل المثل مع (أورغانا) التي لم تعد تعي ما حولها.. لقد سمّرهما في الأرض بمخالبه!

(غالياس):

- سأعود إليكما عندما أنتهي من البشري النجِس.

وفي سرعة لا يملكها البشر عبر (غالياس) الزقاق خلف (إميل) الذي وصل إلى منطقة الحقول ليَعدو نحو الغابة المحترقة..

هتف (غالياس) فاردا ذراعيه على اتساعهما:

- أجل.. اركض.. اهرب.. حاول النجاة بنفسك.. امنحني متعة الصيد.

واصل (إميل) ركضه المحموم حتى بلغ غابة الجثث المشتعلة غير عابئ بنيرانها أو رائحتها الشنيعة ليتوغل فيها..

- (إميل).. (إميل).

التفت إلى مصدر الصراخ.. إنه.. إنه (يزن)! فجأة تردد في أذنه صوت أشياء تتكسر من خلفه للحظة قبل أن يشعر بتلك الضربة الساحقة التي انتزعته من مكانه ليرتطم بأحد الأعمدة ويسقط مُتكوّما على نفسه.. جسده يئن ألما.. اتّكأ على راحتيه ثم رفع عينين تنطقان بالكراهية نحو (غالياس) الذي أخذ يتقدم منه برَويّة وهو يقول:

- لا مفرّ لك من قدرك المحتوم.

أنهى عبارته ثم رفع مخالبه عاليا.. أخذ (إميل) يُلوِّح ببَلطتِه وهو يزحف إلى الخلف دون أن..

- (إميل) ابتعد بسرعة.

التفت كل من (إميل) و(غالياس) إلى (يزن) والفتاة التي شدت ثلاثة سهام في قوسها وأحكمت التصويب نحو (غالياس)..

(غالياس) موجها كلامه إلى (يزن):

- أنت؟! هذا مستحيل!

صرخ (يزن) بتوتر:

- (إميل) أسرع.

زحف (إميل) بأقصى ما يستطيع وقد أدرك أن شيئا رهيبا سيحدث.. انطلقت السهام الثلاثة وهي تصفر في الهواء نحو (غالياس) الذي تنبه متأخرا -مع حدة بصره-إلى أنّ أحد السهام مختلف.. نقول مختلف لأن رأسه يحوي حجرا صغيرا بني اللون بحجم عقدة الأصبع بدلا من الشفرة المدببة! هذا غريب! لكن وكما قلنا فات الأوان على ملاحظة كهذه لأنه لوح بمخالبه متصديا للسهام ثم.. دوى انفجار ارتجّت له الغابة كلها وقذفت موجته الضاغطة (إميل) لبضعة أمتار.. تطايرت شظايا الخوازيق

وأشلاء الجثث وعظامها في كل مكان.. تحول الحيّز الذي كان يشغله (غالياس) إلى كتلة كثيفة من الدخان الأسود ليضاف إلى أعمدة الدخان المتصاعدة إلى السماء..

(أدريانا) بأنفاس مبهورة:

- لا أصدق.. لقد نجحت خطتك البسيطة.. لقد فعلناها.

أجل.. لقد كانت خطته غاية في البساطة لكنها أتت ثمارها.. لقد كان يعلم أن الوحش سيتصدى حتما للسهام لذا استبدل أحد السهام بقطعة صغيرة من الحجارة المتفجرة التي جلبها معه من الأسفل.. ومن باب عدم ترك أي شيء للمصادفة مرغَ الحجر الصغير في التراب ليكسبه لونا بنيا مخالفا للونه الأحمر لأنه من المرجح أن يكون ذلك الوحش على علم مسبق بماهية الحجر المتفجر وبالتالي سيحرص على تفاديه بمجرد رؤيته.. وها قد نجحت الخدعة.. انطلق (يزن) نحو (إميل) وهو يهتف باسمه ولحقت به (أدريانا).. انحنى على (إميل) الذي ظلّ متشبّثا ببلطتِه وهو يحدق إلى ما خلّفه الانفجار من سحب سوداء..

(يزن) وهو يهز كتفي (إميل) بلهفة:

- (إميل).. (إميل).

التفت إليه (إميل) ورمش قليلا وكأنه يحاول استيعاب ما يراه وهو ينقل بصره بين (يزن) و(أدريانا) قبل أن يستقر نظره على الأول..

(يزن):

- (إميل) إنه أنا.. (يزن).

تطلع إليه (إميل) للحظات ثم انفرجت شفتاه ليقول...في الثانية التالية شعر (يزن) بشيء كالإعصار الهائج -بالطبع (يزن) لا يعرف معنى كلمة إعصار ولكنها تعبر بدقة عما شعر به-ينقضّ عليه وعلى من معه وهو يطلق خُوارا مرعبا! لا يدري إن كان ذلك الشيء المريع قد رفعه عاليا أولا ثم قذفه أو أنه طوّح به مباشرة ليرتطم جسده بالخوازيق وسط الصرخات المختلطة قبل أن يتكوّم على نفسه.. لا يدري ولا يذكر.. كل ما يذكره لحظتها هو الألم الساحق الذي اجتاح جانبه الأيمن.. يبدو أن ذلك الشيء قد كسر ضلعا أو اثنين من أضلاعه.. على أنه فتح عينيه بتهالك ثم اتسعتا عندما وقعتا على ذلك الشيء المُشوّه إلى حدّ البشاعة.. ذراعه اليمنى لم يتبقّ منها سوى جزء يسير من اللحم المتدلي من الكتف مع عظمة بارزة مكسورة والدماء السوداء تتقاطر منها بلا توقف.. أما يسراه فيمكن القول أنها شبه سليمة.. نقول شبه سليمة لأن مخالبه الباقية قد تكسرت حتى منتصفها.. ملابسه احترقت تماما والتصق ما بقي منها بجسده الذي تسلخ جلده وبرزت عظامه في أكثر من موضع.. رائحة الشّياط تتصاعد منه.. أما وجهه فلم يتبقّ من الجمجمة التي يرتديها دوما إلا حوالي النصف الذي بقي متمسكا بنصف وجهه الأيسر في حين تحول

النصف الآخر إلى كتلة من اللحم المفروم وقد ذابت عينه اليمنى وبانت عظام فكّه..

ما تبقى من (غالياس) هو آخر ما يذكره (يزن) قبل أن تغيم الدنيا أمام عينيه ويفقد الوعي..

انتزع (غالياس) ما بقي من قناعه وتأمل جسده الممزق ثم رفع عقيرته مطلقا صرخة هادرة ارتجفت لها السماء هذه المرة حتى كادت تهوي على الجميع.. ثم تأمل فرائسه الذين تكوّموا تحت قدميه.. أفواههم وأنوفهم تنزف لكنهم يتنفسون بصعوبة.. إنهم أحياء.. الأنجاس.. كيف؟!

امتدت يُسراه لتقتلع إحدى الخوازيق.. نفض ما علق بها من عظام بالية ثم تأمل رأسها المدبب بعينه اليسرى الحمراء تماما -ذات النظر الضعيف-وغمغم بصوت يقطر مَقتا:

- هذه ستفي بالغرض.

ثم تأملهم ثلاثتهم.. أيهم سيَبتر قدميه أولا؟ هل يبدأ بالذي عانده وأهانه أمام عبيده؟ أم بالشاب الآخر الذي يُقسم أنه مات أمامه قبل سنوات؟ أم بهذه الحقيرة التي تسببت بما هو فيه الآن؟ فكر قليلا غير مبال بالنيران التي ولدها الانفجار من خلفه ثم استقر رأيه على الأخيرة.. تحسّس قدميها برأس الخازوق المدبب.. فتحت عينيها بصعوبة بالغة

وحاولت النهوض وهي تئن لكنها تلقت ضربة قوية على رأسها أعادتها لما كانت عليه..

(غالياس) بصوت أشبه بالخوار:

- لا تتحركي حتى أنتهي.

شهق (رايان) بلوعة عندما وصل للتوّ ووقع بصره على هذا المنظر.. لقد كان قبلها في الكهف ينتظر عودة ابنته مع (يزن).. لكنها تأخرت.. لقد شعر بتلك النغزات التي تخترق قلبه وتُنبّئه بأن شيئا سيئا سيحدث لابنته.. تنامى شعوره بالقلق فلم ينتظر أكثر.. استل بُندُقيّتَه العتيقة.. عرف من (أوليفر) أي اتجاه سلكا فلم يضيع الوقت وانطلق وراءهما.. تناهى إلى سمعه دويّ انفجار مَهول فاختلجَ قلبه بين أضلاعه وتحول قلقه إلى يقين.. أسرع الخطى حتى بلغ حدود غابة الجحيم المشتعلة.. ما لا يعلمه القارئ هو أن (رايان) أجبن الجبناء.. هو لم يجرؤ يوما على الاقتراب إلى هذا الحد خاصة في الليل.. يبدو أن غريزة الأبوّة لديه قد أورثته شجاعة مؤقتة لفعلها.. ثم دوت تلك الصرخة الهادرة حتى كادت أن تصمّ أذنَيه.. ابتلع ريقه وتمتم بكلمات متوترة ليشجع نفسه على الولوج ثم انطلق إلى الناحية التي قدر أن الصرخة صدرت منها.. انخلع قلبه عندما رأى ذلك الوحش البشع يستعد لقتل فلذة كبده كما تصور.. تراءت له ومضات لما حدث مع زوجته الراحلة وصديق عمره (نايل)..

لا.. لا يريد للأمر أن يتكرر مع ابنته الوحيدة.. وفي غمرة خوفه على ابنته انطلق نحو (غالياس) بسرعة لا تتناسب مع سنه.. رفع (غالياس) العمود المدبب أمام عينيه المذعورتين.. صرخ بكل لَوعَة:

- لاااااااا...

التفت إليه (غالياس) بخوار غاضب ثم تخلى عما كان ينتويه وانقض على (رايان) الذي أطلق من بُندُقيّتِه طلقة اخترقت جانب عنق (غالياس) في ذات اللحظة التي اخترق فيها الخازوق بطن (رايان) وبرز من ظهره! تجمد (رايان) في مكانه وارتجفت شفتاه والدماء تسيل من بينهما ثم حاول تصويب بُندُقيّتِه مجددا لكن (غالياس) لم يُمهله إذ أنه رفعه عاليا بغتة ثم غرسه بالأرض بحيث أصبح (رايان) مستلقيا على ظهره ويواجه السماء بعينين لا تريان وجسده يتشطح في دمائه..

(غالياس):

- بشري أحمق.

قالها ثم عاد إلى فرائسه.. ولكن.. أحدهم غير موجود! تلفت حوله باحثا بغضب.. وبالرغم من ضعف عينه الباقية إلا أنه استطاع تمييز (إميل) الذي ابتعد لمسافة لا بأس بها وهو يجرّ قدميه جرّا ويَحبو على ركبتيه كل بضع خطوات.. ما هذا؟! إنه يشعر بالإعياء.. بالتعب.. إنه لم يشعر بهكذا شعور منذ قرون وتحديدا منذ أول إصابة تلقاها على يد

البشر.. إن حواسه تضعف ولا شك.. اللعنة.. صحيح إن جراحه كلها قد توقفت عن النزيف -باستثناء جانب عنقه- حتى ذراعه الممزقة بفعل سرعة التّخثّر التي يتميز بها التيتانيين لكن هذا لم يمنع من فقدانه الكثير من دمائه السوداء.. عليه أن يعود إلى قصره ليتلقى ما يلزم.. ولكن لا.. ليس قبل أن ينهي ما بدأه.. لحق ب(إميل) بخطى ثقيلة وهو يحطم ما يعترض طريقه..

(غالياس):

- أيها البشري الدّنِس.. أتعلم كم كلفتني هذه الحديقة؟

لم يلتفت إليه (إميل)..

(غالياس) والمسافة تتقلص بينهما:

- لقد كلفتني أجيالا كثيرة من بني جنسك الحقير.

(إميل):

- ...

(غالياس):

- ثم تظهر أنت لتُفسد كل شيء؟!

قالها وهو يلطم جانب رأس (إميل) الذي سقط ثم نهض ليواصل جرّ قدميه بصعوبة أكبر..

(غالياس):

– أهذا ما تجيد عمله أيها الجبان.. الهرب؟

قالها وهو يضرب ظهر (إميل) الذي انكبّ على وجهه في هذه البقعة التي لم تَطلْها النيران وهو يلهث بشدة..

وضع (غالياس) قدمه على ظهر (إميل) ثم ضغط عليه وهو يلهث بدوره قائلا:

– حتى لو نجحت بالفرار.. إلى أين ستذهب؟ إلى الأسفل حيث يختبئ قومك؟ أجل.. أنت أخبرتني بكل شيء بعدما ركعت لي أمام الجميع.

سكت قليلا ثم تابع:

– لقد أدهشني هذا في الواقع.. لم أكن لأتصور أنكم تختبئون تحت أقدامنا كل تلك القرون.. سأستعبدكم جميعا ثم...

التقط نفسا عميقا وواصل بتوحُّش:

– ثم سأعيد ترميم حديقتي بأجسادكم ال..

بترَ عبارته بغتة وتصلّب في مكانه ثم ردّد بذهول حقيقي:

– مهلا.. ما هذا؟! إني أتذكر الآن.. أنا كنت أعيش بالأسفل مع بقية التيتانيين.. ولكن.. متى حدث هذا؟! وكيف؟!

وقبل أن يستطرد أكثر في تساؤلاته شعر بجسد (إميل) يتحرك..

(إميل) بصوت منهك:

- أيها ال.. المسخ.. أنا لست.. جبانا.. أنا لم أكن أهرب.

قالها وهو يستند على كفيه ويرفع جسده ببطء! لم يصدق (غالياس) ما يحصل.. ضغط بقدمه على ظهر (إميل) لكنه واصل النهوض وأطرافه ترتجف من بذل كل هذا المجهود وهو يقول:

- كل ما أردته هو إبعادك عن أصدقائي.. أنت تُريدني أنا لا سواي.

أية إرادة إعجازية يمتلكها هذا البشري! شعر (غالياس) بالغيظ فزمجر وركل (إميل) الذي تأوّه بصوت مكتوم ثم واصل النهوض بجسد مرتعش أمام عين (غالياس) الذاهلة حتى وقف على قدميه وواجه سجّانه قائلا بثبات:

- تقول أني ركعت لك؟ ربما ولكن كلانا نعلم أنك لجأت للخديعة أيها الحقير.. أراهن أنك لم تنعم بنصرك المزيف.. لماذا؟ لأنك تعلم جيدا أنك لم ولن تقدر علي لولا خدعتك القذِرة.

تلقى (إميل) لكمة على وجهه مزقت شفته السفلى وأجبرته على الترنح للخلف لكنه سرعان ما تمالك نفسه وهو يعود ليواجه (غالياس) قائلا باستمتاع وتحد يناقضان حالته المزرية:

– عليك تقبل هذه الحقيقة أيها المسخ.. لن تقدر علي مهما حاولت وها أنا ذا أمامك.. هيا أرني ما لديك.

بدا (غالياس) حائرا و.. مترددا!

أضاف (إميل) بابتسامة مُستفزّة:

– هل تشعر بالتردد؟ هل تشعر بالعجز أيها المسكين؟

– اركع.

صرخ (غالياس) وهو يهوي بلكمة كالقنبلة على رأس (إميل) الذي سقط على ركبته لبضع لحظات ثم نهض مجددا بتصميم راسخ رافعا رأسه بشموخ.. يبدو أن ضرباته قد بدأت تضعف مع ضعف جسده.. يشعر بأن قواه ستخور في أية لحظة..

– اركع.

صرخ (غالياس) بجنون مطبق وهو يوجه لكمته التالية.. لكنه –وفي ذات اللحظة التي أصابت فيه لكمتَه هدفها–شعر فجأة بشيء أشبه بالغبار الكثيف يتناثر عليه.. بعدها مباشرة اشتعلت كل جراحه دفعة واحدة! إنه.. إنه مسحوق الكالاز! البشري الخبيث.. لقد تعمد استفزازه حتى ينهال عليه ضربا بيده الباقية وبالتالي يقذف المسحوق وهو مطمئن إلى أنه لن يكون قادرا على تفاديه في هذه اللحظة بالذات.. دارت هذه

الخاطرة في رأسه وهو يتلوى بعنف محطما ما حوله ويطلق صراخا جديرا بوحش يُشوى حيا! إنه لا يرى شيئا.. إنه يشعر بعينه ذاتها تحترق.. إنه يصرخ.. ويصرخ.. ويصرخ..

تسارعت أنفاس (إميل) وهو مُستلقٍ على ظهره يتابع ما يجري بعينين منهكتين.. لقد نجح الأمر.. الفضل يعود لـ(أورغانا) التي دسّت كيس المسحوق في جيبه وهمسَت له بأن يستخدمه عند الحاجة.. لم يعرف وقتها كيف سيفيد منه.. جال بخاطره أن يقذفه على عيني المسخ ولكنه سرعان ما استبعد هذا الخيار لأن معذّبه يرتدي قناع الجمجمة طوال الوقت.. لكن الفرصة أصبحت مُواتية بفضل (يزن) ومرافقته المجهولة مما أفسح له المجال للاستفادة القصوى من المسحوق اللعين.. والآن عليه مواصلة استغلال هذه الفرصة.. تلفت حوله باحثا عن أي شيء يصلح كسلاح بعينيه ويديه.. اصطدمت يده بشيء صلب.. إنه أحد الأعمدة التي شطرها المسخ بضرباته الهَوجاء.. سحب العمود من بين العظام ثم حاول النهوض لكن جسده انهار فسقط على ركبتيه واستند إلى العمود بإنهاك شديد.. استجمع قواك ولتنهي هذا الأمر.. هذه الفرصة لن تتكرر أبدا.. أغمض وأخذ بضعة أنفاس عميقة ثم استجمع كل قوته بالرغم من الصداع اللعين ثم.. نهض صارخا ثم ترنح قليلا وكاد يسقط مجددا لولا إرادته التي دفعت في جسده طاقة عجيبة..

حمل العمود بين يديه كالرمح.. على ضربته أن تكون حاسمة ودقيقة.. سيسدد نحو الرأس.. كل المخلوقات على حد علمه تموت إن طعنت في الرأس.. لكن حركات خصمه الثائرة تمنعه من الاقتراب.. ما العمل؟ لحظة.. ما هذا ال.. في الثانية التالية انقض (باتار) على (غالياس) الذي لم يكفّ عن الصراخ.. وبما تبقى له من قوة التفت أذرعه الثلاثة لتطوق (غالياس) وبالكاد تمكن من شلّ حركته.. لم يضيع (إميل) لحظة واحدة وهو يندفع شاهرا سلا.. فجأة أنشبَت كتلة من الريش مَخالبَها في رأسه وهي تطلق صيحات حادة مزعجة.. تبا.. لا وقت يضيعه مع الطائر البغيض.. سدد (إميل) ضربة موجعة إلى الطائر الذي تخلى عنه مضطرا.. وقبل أن يعاود الكرة استنفرَ (إميل) كل عضلاته ثم انزلقَ مُترنّحا نحو (غالياس) الذي تخلص من (باتار) والتفت إليه بسرعة و.. شعر (إميل) بطرف العمود المدبب يخترق اللحم والعظم بصوت بشِع.. تصلب في مكانه وهو يحدق إلى العمود الذي انغرس في فم (غالياس) وخنق صرخاته الشنيعة.. الدماء السوداء تتدفق من فمه بغزارة.. لقد فعلها.. ولكن.. لماذا يشعر بهذا الألم المميض تحت عظمة الترقوة اليمنى مباشرة؟ لماذا يشعر بهذا السائل الدافئ الذي ينزف من ذات الموضع ليغرق صدره؟ لماذا يشعر بهذا البرد المفاجئ؟ انزل عينيه للأسفل بحذر لتقعا على ما بقي من مخالب (غالياس) التي انغرست بالكامل في ذات موضع الألم الحارق.. نقل بصره نحو خصمه بذهول ثم مادت به الأرض

وسقط بلا حراك.. امتدت يد (غالياس) لتنتزع الخازوق من فمه.. ما كاد يفعل حتى تضاعف تدفق دمائه.. بدا مُشوّشًا وهو يترنح في الاتجاه الذي قدر أنه يؤدي إلى البلدة.. الضعف ينتشر في ما تبقى من جسده بسرعة رهيبة.. إنه يشعر بالألم لكنه لا يستطيع الصراخ.. يا له من عذاب.. لقد أصابه مسحوق الكالاز بالعمى -ربما مؤقتا- قالها لنفسه لأنه يرفض تصديق حقيقة كونه سيعيش ضريرا.. لا.. لن يحدث هذا.. يجب أن يصل إلى قصره أو إلى البلدة.. لا يهم.. المهم الآن أن يعالج إصابته البليغة.. لكنه تذكر أنه لا يوجد أي معالج في مقاطعته.. اللعنة.. كان عليه أن يبقي أحد المعالجين التيتانيين معه في المقاطعة.. لقد أفرط في الثقة بنفسه.. إنه يشعر بالهواء البارد يداعب جسده المثخن بالجراح.. إنه يشعر بالأعشاب تلامس قدميه اللتان تزدادان ثقلا مع كل خطوة.. لا بد وأنه قد بلغ منطقة الحقول.. يشعر بعبيده ينظرون إليه بوجل وخوف.. الصداع اللعين يثقل رأسه.. الوهن يستشري في كل ركن من كيانه بسرعة لا تصدق.. هل حانت نهايته؟ هل سيموت؟ أثار هذا التساؤل رعبه فامتدت يده تتحسس خاصرته حيث يخبئ جرعته اليومية تحت ملابسه لعلها تسعفه.. لا شيء سوى جلده المتسلخ.. لا بد وأنها قد تحطمت بفعل الانفجار الذي أطاح به.. الآن يتذكر ما قاله له الإمبراطور الأعظم عندما منحه جرعة الخلود لأول مرة.. لقد أخبره بأنه سيصبح خالدا مثله ما لم يتعرض للقتل أو الافتراس كما أن للخلود ثمنه.. أخبره بالثمن

ووافق دون تردد بالرغـم من أنه الوحيـد المتبقي من فصيلته ((المخلبيون)).. حذره الإمبراطور من أن نهايته قد تكون على يد البشر الذين يستعبدهم وأشار عليه بأن يُبقي بعض التيتانيين معه تحسبا لأي طارئ لكنه أبى.. وها هو الآن يدفع ثمن غروره.. أنفاسه تتثاقل إلى الحد الذي يحتاج معه إلى بذل مجهود خارق.. لا.. لن يموت.. سيعيش لينتقم من كل البشر.. سيعيش ليبطش بهم ويذيقهم الويل.. سيعيش ليعيد زراعة حديقته بأجسا.. جحظت عينُه وتراخى جسده دفعة واحدة ثم هوى بكل ثقله على وجهه بدوي تردد صداه في آذان عبيده الذين تجمهروا حوله بخوف.. لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب منه.. صحيح أنهم قد نجحوا في السيطرة على النيران لكن الخوف من ردة فعله لم يفارقهم حتى اللحظة..

فتح (يزن) عينيه بصعوبة وهو يئن.. جسمه كله يؤلمه وكأن قطيعا كاملا من حيوانات المندالون قد مرّت عليه.. تحسّس رأسه الذي ما زال يَكتنِفه الصداع ثم رفع جذعه ببطء شديد حتى اعتدل جالسا.. تلمس خيوط الدم الجافة التي توقفت عن النزيف من أنفه وفمه ثم.. لحظة.. هناك من يبكي بصوت مكتوم! تلفت حوله لتقع عيناه على (أدريانا) التي احتضنت ذلك الجسد المسمر إلى الأرض بعمود يخترق بطنه! نهض بتثاقل ثم ترنح في مشيته نحوها وقد خمن من يهتز جسدها بكاء عليه.. ألقى نظرة حذرة ليطالعه وجه (رايان) الذي تجمدت عيناه نحو السماء

وقد خبا منهما بريق الحياة.. من السهل عليه تخمين سبب موته هنا وبهذه الطريقة.. لا بد وأنه فعل ما فعل ليكفر عما بدر منه في الماضي.. (يزن) ليس من النوع الذي يحتفظ بكراهيته لشخص ميت لكنه لم يحزن لموته كذلك.. إلا أنه لم يستطع منع نفسه من الشعور بالتعاطف مع حزن (أدريانا).. ولكن.. أين (إميل)؟ وما الذي حدث بعد فقدانه للوعي؟ ترى هل..؟ يجب أن يتأكد.. تلفت حوله مدققا نظراته على ما حوله.. لاحظ تلك الأعمدة المحطمة بخطّ شبه مستقيم وكأن وحشا مريعا قد مرّ من هناك.. وبحذر شديد سار في ذات المسار وهو يترنح بألم ويصيخ السمع.. ترى هل لا زال ذلك الوحش البشع هنا؟ لم يكد ينهي تساؤله حتى اصطدمت عيناه بذلك الوحش ذو الأذرع الثلاثة -يذكر أنه رآه أكثر من مرة أثناء مراقبته لتعذيب (إميل) وقدر أنه ليس من الأعداء على الأقل ولكنه كان بأربعة أذرع-وهو يحدق إلى ذلك الجسد المسجى أمامه بنظرات هي أقرب للأسى والحزن بالرغم من ملامحه الصارمة.. تركزت أنظار (يزن) على ذلك الجسد.. إنه.. إنه (إميل).. ولكن هناك شيء خطأ.. (إميل) يبدو هادئا جدا في رَقدتِه تلك أكثر مما ينبغي.. كما لم يفته ملاحظة تلك القطعة القماشية البنية الملتفة على كتفه الأيمن بالكامل..

(يزن) بقلق:

- (إميل).. (إميل).

(باتار) بصوت خافت يملؤه الحزن:

– لقد أوقفت النزيف بقطعة من ثيابي.. صدقني لقد بذلت كل ما في وسعي.

علَت الصدمة وجه (يزن) وهو ينحني على (إميل).. تجمدت نظراته على وجهه بعدم تصديق وارتجفت شفتاه وهو يردد بصوت مختنق:

– لا.. لا يمكن.. (إميل)..

تحسّس صدره حيث موضع القلب.. إنه لا ينبض.. أمسك بكتفي (إميل) وهزّهما مرددا بلوعة:

– (إميل).. أجبني.. استيقظ.

ثم تذكر ما ينبغي فعله في حالة كهذه.. ضم يديه وأخذ يضغط على صدر (إميل):

– استيقظ أرجوك.

استمر بالضغط لبضعة دقائق انهمرت خلالها دموعه ثم هوى على صدر (إميل) محتضنا إياه:

– سامحني يا صديقي.. إنها غلطتي.. أنا السبب..

نهض (باتار) وتقلص وجهه ألما وهو يتحسس قطعة القماش التي شدها على موضع ذراعه المبتورة ثم ترنح وهو يخطو عائدا إلى البلدة

حيث ترك سيدته.. عليهما الإسراع بالمغادرة قبل أن يتعافى (المخوزق) من إصاباته.. سيستغرق هذا وقتا خاصة مع تلك الإصابة البليغة التي تسبب بها البشري الشجاع المدعو (إميل).. لن ينسى هذا الاسم.. ولن يسمح بنَصب جثمانه على الخازوق.. سيصطحب أصدقاء ذلك البطل معه فبقاؤهم هنا خطر عليهم.. دارت هذه الخواطر في رأسه وهو يدخل منطقة الحقول.. عقد حاجبيه باهتمام عندما وقعت عيناه على العبيد المتجمهرين حول شيء ما.. حتى سيدته كانت تقف بينهم بالرغم من إصاباتها وقد تركزت أنظارها الذاهلة على الشيء الذي يحدق إليه الجميع بوَجل.. لم يكن بحاجة إلى تفريق الجمع فقامته الفارعة مكّنته من رؤية ما يتحلقون حوله.. اتسعت عيناه وهو يحدق إلى (غالياس) الذي تمدد على الأرض بلا حراك.. أفسحت له الجموع الطريق برهبة فاقترب بحذر بالغ وكأنه يخشى أن يهب (غالياس) في وجهه بغتة.. امتدت يده المرتعشة نحو الرأس وسط شهقات الاستنكار.. تردد قليلا ثم رفع الرأس وألقى نظرة فاحصة على الوجه.. صعق (باتار) مما رآه.. لقد.. لقد مات (المخوزق)! حتى عندما بذل جهده لمساعدة ذلك الشاب كان يعلم أن (المخوزق) خالد مهما تكبّد من إصابات وما كانت مساعدته تلك إلا لإلحاق أكبر ضرر ممكن حتى يتسنى لهم الهرب.. لكنه لم يتصور أبدا أن ينجح ذلك الشاب في القضاء على أحد الخالدين الأربعة! إنها أشبه بالمعجزة.. التفت إلى سيدته وملامح الذهول عاجزة عن مفارقة وجهه.. ما إن رأت (أورغانا) وجهه حتى أدركت أن هناك أمرا خطيرا..

(أورغانا):

- (باتار) ما بك؟ ما الذي أصابك؟

نهض (باتار) ببطء دون أن يرفع عينيه المتسعتين عنها واقترب منها بصمت..

(أورغانا):

- (باتار) أنت تخيفني..

قالتها وهي تنقل بصرها بين (باتار) و(غالياس) وكأنها تتهيأ لنهوضه في أية لحظة..

(باتار):

- (المخوزق).. لقد مات يا سيدتي.

انتقل ذهوله إليها:

- ماذا.. ماذا قلت؟

قالتها وهي تصوب نظراتها نحو (غالياس) بعدم تصديق.. سمعهما الجميع فتعالت همهمة عالية..

- أنتما تكذبان.. السيد المعظم خالد ولا يمكن أن يموت.

– هذا صحيح.. إنه متعب فقط وسيتخذ معكما ما يلزم عندما يفيق.

ترددت الكثير من العبارات التي تحمل ذات المعنى..

(أورغانا):

– (باتار) هل أنت واثق؟

(باتار):

– صدقيني يا سيدتي أنا أعرف الموت عندما أراه.. لقد قتله ذلك الشاب.

– ولكن ذلك مستحيل.. ربما أنهكته إصاباته لا أكثر.

(باتار) وهو يسحبها برفق ليخرجا من بين الجمع بخطوات مترنحة:

– سيدتي في جميع الأحوال علينا الإسراع بالمغادرة.. إن كان (المخوزق) قد مات وهو ما أجزم به فإن خبر موته سيتردد صداه في كل مكان وسنكون أول من يتهم بقتله.. وإن اتضح أنه حي فأنت تعرفين ما سيفعله خيرا مني إن كان لي أن أقول ذلك.

(أورغانا) بعد تفكير:

– معك حق.

ثم تذكرت شيئا فسألت:

– أخبرني كيف تلقى (المخوزق) كل تلك الإصابات الشنيعة؟

روى لها كل ما حدث وهما يعبران غابة الجثث.. تبدى الحزن عليها وهي تتطلع إلى جثمان (إميل) الذي احتضنه (يزن) وهو ما يزال يجهش في البكاء..

(باتار) وهو يتأمل (إميل) باحترام شديد:

– يكفيه فخرا يا سيدتي أنه انتصر على أحد الخالدين الأربعة.. لقد حقق ما ظنناه مستحيلا.. لن أنسى اسمه ما حييت.. (إميل).

سكت قليلا ثم أضاف:

– كان بمقدور (المخوزق) قتلنا جميعا لو أنه استخدم مخالبه منذ البداية.. لكن شهوته في قتلنا ببطء هي من أوردته حتفَه.

لم تعلق على كلامه.. مرت هنيهة من الصمت ثم قال (باتار):

– سيدتي هل لي بسؤال؟

– هات ما لديك.

– لم لم تخبريني بتغيير الخطة؟ لم جازفت لوحدك وأشعلت النيران؟

التفتت إليه بحيرة وقالت:

– أنا لم أفعلها (باتار).. لقد ظننت أنك أنت من فعلها؟

تبدّت الحيرة عليه هو الآخر ثم تساءل:

– إن لم نكن أنا وأنت من فعلها.. إذن؟!

ومن فوق إحدى التلال المطلة على البلدة وقف ذلك الكيان الأسود ذو العينين الحمراوين متطلعا إلى حيث تجمهر العبيد حول (غالياس) وندّ منه صوت يدل على الرضا بما آلت إليه الأمور..

ماذا بعد؟

كما هو متوقع اختفى كل من (باتار) و(أورغانا) ومعهما جثة (إميل).. وفي الأيام التي تلت ذلك اليوم لم يتوقف سكان البلدة عن مزاولة أعمالهم اليومية بالرغم أن سيدهم لم يبارح مكانه.. لم يتوقفوا حتى عندما حط طائره القبيح وتحسّسه بمنقاره قبل أن يحلق مبتعدا.. لم يدركوا موت سيدهم إلا عندما عاد الطائر بصحبة سرب كامل من فصيلته لينهشوا من اللحم المتعفن أمام العيون الذاهلة المذعورة.. لكن الطيور سرعان ما حلقت بالجثمان بعيدا وكأنها تكره التهام طعامها أمام الأعين الفضولية.. السؤال الذي أرّقهم بعدها هو من سيخدمون الآن؟ من سيكون سيدهم الجديد؟ إنهم عبيد أبا عن جد ولا يمكنهم العيش من دون سيد يحكمهم.. تشجع بعضهم أخيرا وغادروا المقاطعة.. لم يمضِ يوم واحد بعدها إلا والخبر ينتشر كالنار في الهشيم..

إنه الصباح في العاصمة الإمبراطورية حيث يتوسط قصر هائل الحجم من الكريستال مباني العاصمة التي تحمل جميعها ذات الطابع الذي يمزج بين الشكلين اللولبي والمخروطي مع تباين الألوان.. انفتح باب قاعة العرش الإمبراطوري لتدلف قائدة الحرس وقد شدت قامتها الرفيعة ويتبعها ثلاثة رجال وامرأتان من عبيد (غالياس) وقد أحنوا رؤوسهم.. أمامهم مباشرة العرش البلوري الخالي في حين ازدانَ الجدار الأيمن بالكامل بنقوش لأسماء هائلة العدد تربط بينها خيوط رفيعة تجتمع كلها عند اسم واحد نقش بخط أكبر بما يشبه شجرة العائلة المنقوشة باللغة التيتانية.. أما الطرف الأيسر من القاعة فقد كان عبارة عن شرفة واسعة تطل على العاصمة إذ أن القاعة نفسها تقع في أعلى القصر.. تقدمت قائدة الحرس وحرملتها ترفرف وراءها نحو الشرفة حيث جلس الإمبراطور على مقعد بلوري مُوليا ظهره للقاعة متطلعا إلى العاصمة وقد انسدل شعره البني القاتم على ظهره وملابسه الأرجوانية الفضفاضة ذات الأطراف الذهبية تحركها نسمات الصباح.. عن يمينه يقف مستشاره العجوز ذو الوجه الأمرد المتغضّن وقد ارتدى ما يشبه مسوح الرُّهبان ذات غطاء الرأس زمردية اللون.. وتحت قدمي الإمبراطور تكوم حيوان مفترس يغطي جسده الضخم وبر بني اللون وقد برزت أنيابه السيفية من فكه العلوي وهزّ ذيله القصير للغاية برضا عندما داعب الإمبراطور رأسه..

كان الإمبراطور ومستشاره يتحدثان بصوت لا يكاد يسمع عندما ركعت القائدة وأحنت رأسها ليتناثر شعرها الأحمر كالدم على وجهها وحذا عبيد (غالياس) حذوها..

القائدة بتَبجيل:

- مولاي الأعظم.. لقد جلبتهم بنفسي كما أمرتني.

التفت إليها المستشار بوجه جامد كعهده دوما في حين قال الإمبراطور دون أن يلتفت بصوت عابث قاس:

- أنا مُنصت.

أثار هذا الصوت دهشة وحيرة العبيد.. فقد بدا لهم الصوت وكأنه صادر من شاب صغير السن بمقاييسهم والإمبراطور كما يعلمون خالد وعمره يتجاوز الـ 1500 عام.. أي أنه ينبغي أن يكون عجوزا على أقل تقدير وهذا لا يتفق مع صوته! ما سمعوه عنه صحيح إذا وهم الذين لم يتشرفوا برؤيته من قبل.. رفعوا أعينهم بحذر نحو الإمبراطور لعلهم يظفرون برؤية ولو جزء يسير من وجهه.. لكنه كان يوليهم ظهره بالكامل.. شعر أولهم بركلة عنيفة على وجهه ارتدّ لها رأسه إلى الخلف وتناثرت الدماء من أنفه وشفتيه في حيث قالت القائدة:

- ألم تسمعوا الإمبراطور الأعظم أيها الحقراء؟ هيا تكلموا.

أنزل العبيد عيونهم للأسفل بوَجل وتلعثم أحدهم ثم حكى بصوت مرتعش كل ما جرى.. أنصت الإمبراطور حتى النهاية دون أن يقاطعهم ولو لمرة واحدة.. انتهى العبد من حكايته وران الصمت على القاعة.. الحق يقال أن لحضور الإمبراطور هيبة تفوق هيبة (غالياس) على الرغم من صوته الذي لا يتفق مع سنه بل وحتى حجمه الذي لا يصل حتما إلى حجم سيدهم السابق.. بدا لهم أن الإمبراطور يفكر بعمق فيما سمعه منهم.. بعد صمت طال تحدث الإمبراطور بصوته العابث القاسي:

– تقولون أن (غالياس) قد قتل على يد بشري غير موسوم وبمساعدة اثنين من التيتانيين الموسومين.. أليس كذلك؟

أجابه أحد العبيد:

– بلى يا مولاي الأعظم.. لقد كنت هناك عندما حدث ما حدث.

الإمبراطور وهو يمسح على رأس حيوانه:

– وتقولون أن ذلك البشري قد لقي حتفه أيضا؟

– أجل يا مولاي الأعظم.. لقد رأيت التيتاني الضخم يحمل جثمانه والتيتانية تحمل جثمان رجل عجوز وبرفقتهما فتاة وشاب لم نتعرف عليهما.

– ما اسم ذلك البشري الذي قتل (غالياس)؟

حاول العبد التذكر ثم التفت إلى زملائه طالبا العون فأجابت إحدى المرأتين لتنقذه:

- اسمه (إميل) يا مولاي الأعظم.

- (إميل)! اسم غريب وغير مألوف.

فكر الإمبراطور قليلا ثم قال وكأنه يحدث نفسه بصوت مسموع ولكن بلغة التيتانيين التي لا يعرف العبيد منها إلا القليل:

- موت (غالياس) يعني أن فصيلة المخلبيّين قد انقرضت وإلى الأبد.. لقد جربنا كل شيء لإنقاذ هذه الفصيلة القوية ولكنها مشيئة الأقدار.. (غالياس) الأحمق.. لقد نصحته مرارا بالسماح لبعض التيتانيين بالوجود معه.. لو أنه استمع إلي لما انتهى إلى هذا المصير.. ولكن أن يقتل على يد بشري غير موسوم! هذا مثير للاهتمام.

قالت قائدة الحرس باللغة التيتانية وهي ترمق العبيد بشك واحتقار:

- عذرا مولاي الأعظم ولكن.. هل تصدق حقا ما قاله هؤلاء العبيد؟ -نطقت كلمة العبيد بتقرف شديد-هل تصدق أن (المخوزق) قد قتل حقا؟ وعلى يد من؟ بشري؟!

الإمبراطور:

- ما رأي مستشاري (غالاك)؟

انحنى (غالاك) بقامته القصيرة نسبيا مقارنة بباقي التيتانيين وهمس في إذن الإمبراطور بكلمات سريعة..

الإمبراطور:

– هذا ما فكرت فيه أنا أيضا يا مستشاري.. كون عبيد (غالياس) هنا يؤكد صدق كلامهم.. فعبيده لا يخرجون من مقاطعته سواء كانوا أحياء أم أمواتا.. أليس كذلك يا قائدة الحرس (أورميلا)؟

(أورميلا):

– بلى يا مولاي الأعظم.

سكتت قليلا ثم استطردت وهي ترمق العبيد بصرامة:

– ولكن يا مولاي الأعظم إن صح ما سمعناه ألا ينبغي منع تسرب الخبر إلى عامة الشعب؟

شعرت أن الإمبراطور يبتسم بتهكم قبل أن يقول:

– فات الأوان على ذلك.. من الصعب التستّر على خبر كهذا خاصة أن المقتول هو أحد الكبار الأربعة اللذين أصبحوا ثلاثة وأنت تقفين أمام اثنين منهم كما تعلمين.. برأيك كم مدينة وبلدة قطعها هؤلاء العبيد حتى يصلوا إلينا؟ هل تظنين أنهم أغلقوا أفواههم طوال الطريق؟

فكرت قليلا ثم غمغمت:

- معك حق يا مولاي الأعظم.

ثم تساءلت باهتمام:

- ماذا عن الخائنين (باتار) و(أورغانا)؟

انحنى المستشار للمرة الثانية ليهمس للإمبراطور دون أن يرفع بصره عنها.. هي تكن كل الاحترام للكبار الأربعة لكنها لم ترتح للمستشار (غالاك).. ربما لأنها لم تسمع صوته قط.. ربما لأنه ملازم للإمبراطور طوال الوقت إلى درجة أنها لم تسنح لها الفرصة للحديث معه أو لرؤيته لوحده ولو لمرة واحدة.. وإن فارق الإمبراطور فهي لا تراه ولا تعرف مكان إقامته في القصر بالرغم من منصبها! أو ربما -وهو الأهم-هو شعورها أن هناك شيء مختلف فيه لا تدري كُنهه ولا يمكنها تفسيره.. هذا الشعور تحديدا يلازمها كلما رأته مع الإمبراطور.. ثم ما بال نظراته الخاوية هذه؟! إنها مزعجة ومستفزة إلى حد لا يوصف..

الإمبراطور بعدما أنهى مستشاره كلامه الهامس:

- أعلم أنك متعطشة لاقتناصهما.. سيكون لك ذلك ولكن ليس الآن فهناك ما هو أهم.

رددت (أورميلا):

- ما هو الأهم؟!

نهض الإمبراطور وخطا نحو حافة الشرفة وتبعه حيوانه.. تلاعبت نسمات الصباح بملابسه وشعره الطويل وهو يتأمل العاصمة ثم قال:

– علينا أن نستعد لما هو آت.. خبر موت أحد الكبار الأربعة لن يمر مرور الكرام.

رددت (أورميلا) بحيرة:

– لن يمر مرور الكرام؟! عذرا مولاي الأعظم لكني لا أفهم ما ترمي إليه.

– موت (غالياس) على يد بشري سيحرك روح التمرد في نفوس العبيد بلا شك.. الثورة قادمة يا قائدة الحرس فاستعدي لها.

العبيد يثورون؟! مستحيل.. إنهم أتفه وأحقر من أن يفعلوها.. حتى مع تفوقهم العددي.. وإن تجرؤوا وفعلوها فسيُسحقون بلا رحمة.. كتمت خواطرها هذه ولم تقلها لأن محدثها هو الإمبراطور الأعظم شخصيا لا سواه.. ولهذا السبب أحنت رأسها وشدت قبضتها على صدرها قائلة:

– أمرك يا مولاي الأعظم.

ثم التفتت إلى العبيد الذين لم يفهموا الكثير مما قيل إذ إن الحديث كان يدور بلغة التيتانيين وقالت بلغة البشر:

– مولاي الأعظم ماذا عن هؤلاء العبيد؟

الإمبراطور موجها كلامه إلى العبيد وبلغتهم:

- أنتم أيها التعساء.. أتعلمون ما هو أبغض شيء إلي؟

تبادل العبيد النظرات الحائرة فيما بينهم ثم أجاب أحدهم:

- لا.. لا نعلم يا مولاي الأعظم.

- الخيانة.

ردد أحدهم:

- الخيانة؟!

الإمبراطور:

- لا أمقُت صفة قدر مَقتي للخيانة.. وأنتم بمجيئكم إلى هنا قد مارستم الخيانة ليس بحق ما فعله ذلك البشري المدعو (إميل) فقط بل بحق بني جنسكم بأكمله.. كان الأحرى بكم أن تكتموا ما حصل وتنظّموا صفوفكم من أجل الثورة.. من المخزي حقا أن تكونوا أنتم وقاتل (غالياس) من بني جلدة واحدة.

ازدادت حيرة العبيد فلم ينبِسوا ببنت شفة في حين بلغت دهشة (أورميلا) أوجها.. من الواضح أن قاتل (المخوزق) قد أثار إعجاب الإمبراطور في ظاهرة لم يسبق لها مثيل..

الإمبراطور:

- وبالرغم من ذلك.. وبصفتي الإمبراطور (آغرو) فإني أمنحكم شرف الاختيار.. إما أن أرسلكم إلى (كولاهو) أو تصبحون طعاما لحيواني (شار).. ماذا تختارون؟

التفت إليهم الحيوان وأطلق زئيرا مرعبا ارتجت له القاعة كلها وبرزت عضلاته وكأنه يتأهب لافتراسهم في حين تبسمت (أورميلا) بوحشية... شحبت وجوه العبيد واتسعت أعينهم بارتياع.. لقد تصوروا أنهم سيرسلون للعمل عند سيد جديد أو حتى أن يعودوا إلى مقاطعتهم ويتولى حاكم جديد الأمور في أسوأ الأحوال.. ولكن لم يتصوروا أن تكون حياتهم بين خيارين أحلاهما مر.. هم لا يعرفون عن (كولاهو) -أو كما يعرف بلقبه (مأمور الجحيم)- سوى أنه أحد الكبار الأربعة وأنه المسؤول عن التخلص من العبيد العاجزين في العاصمة بوسائل لا يعرف أحد عنها شيئا في قلعة الجحيم خاصته وهذا ما يثير رعبهم.. لماذا؟ لأنه لم يحدث أن خرج من عنده أحد ليحكي ما رآه.. الحيوان يدور حولهم ويتشمّمهم بنهَم.. لم يتمالك أحدهم نفسه أكثر فبلّل نفسه وهو يرتجف ويهذي بكلمات غير مفهومة.. ليتهم لم يأتوا إلى هنا.. ليتهم..

الإمبراطور عندما طال ترددهم:

- الخيار لي إذن.. واحد لك يا (شار) والبقية لـ(كولاهو).

لم يكد ينهي كلامه حتى زأر الحيوان وتعالت صرخات أحدهم والحيوان ينشب أنيابه السيفية في بطنه في حين تراجع البقية بهلع لتمتزج صرخاتهم بصراخ صاحبهم الذي بدأ الحيوان بافتراسه حيا!

تناثرت الدماء في كل مكان.. أشاح المستشار ببصره بعيدا في حين ارتسمت السعادة الغامرة على وجه (أورميلا).. أخيرا هدأت الصرخات وتعالى صوت القضم وانكمش بقية العبيد على أنفسهم وهم ينتحبون بصوت خفيض..

الإمبراطور دون أن يلتفت إلى الفوضى التي خلفها حيوانه:

- كم أتطلّع لما هو قادم.. كم أشعر بالإثارة.. ليتك لم تمت يا من قتلت (غالياس).. ليتك لم تمت.

تبدت الدهشة والحيرة على (أورميلا) وهي تتطلع إلى ظهر الإمبراطور.. يبدو أنها لن تفهمه أبدا...

لن نكونَ عبيدا بعد الآن

لم تصدق (ماكيبا) أذنيها عندما استمعت خلسة إلى سيدتها البدينة أثناء حديثها مع جارتها القبيحة بلغة التيتانيين التي -حسب ظنهم أن العبيد لا يفهمونها. صحيح أنها لم تفهم الكثير لكن ما سمعته كان كافيا لتعرف خبر موت (غالياس) على يد بشري لا يحمل أي وسم -كما كان كافيا لمعرفة بعض ما تعرض له ذلك البشري في فترة أسره وقبل موته هو الآخر. ما لم تعلمه (ماكيبا) أن كل البشر تقريبا قد علموا بالنبأ بذات الوسيلة تقريبا ودون علم أسيادهم.. ما سمعته قد ترك أثرا كبيرا على نفسها.. منحها شعورا عارما باللذة والسعادة.. لكن هذا لا يكفي لإشباع رغبتها في أن تشفي غليلها.. بدأت الفكرة تتقافز في ذهنها.. إن كان هذا الشاب غير الموسوم -والذي يعني بالضرورة أنه لا سيد عليه- قد فعلها وقتل (المخوزق) سيئ السمعة فلم لا تفعلها هي مع سيدتها؟! بدأت الفكرة تختمر في ذهنها تدريجيا وبالطبع لم تبُح بها لأحد حتى للعبيد المقرّبين منها.. كل ما تريده في هذه الحياة هو الانتقام لطفلها وزوجها.. ما فعله ذلك الشاب قد أشعل في نفسها نارا لن تنطفئ إلا بموتها أو بموت سيدتها الحقيرة.. هكذا قررت وضع فكرتها قيد التنفيذ -كما قررت أن جزاء سيدتها سيكون من جنس العمل. في تلك الليلة الظلماء وعندما تأكدت من نوم الجميع تسللت إلى المطبخ بهدوء وأوقدت الفرن الكهربائي على قدر من الزيت.. أخذت تبتسم لا شعوريا وتراقص الجَذل في عينيها الواسعتين وكأنها لا تطيق الانتظار حتى يغلي الزيت..

ها هي تحمل القدر وتتسلل كاللص إلى مخدع سيدتها المُزدان ببعض السيوف المسنّنة المتقاطعة على الجدران.. إنها نائمة بعمق.. هذا واضح من شخيرها الذي يصم الآذان.. ستنامين إلى الأبد ولن تزعجي أحدا بشَخيرك بعد اليوم.. تلفتت حولها للمرة الأخيرة لتتأكد أن أحدا لم ينتبه إليها ثم أخذت نفسا عميقا و.. هوب! أطلقت سيدتها صرخة كفيلة بإيقاظ موتى الكوكب كله وهي تهب من رقادها مفزوعة.. صرخة جديرة بأن تخرج من حلق من يسكب عليه زيت مغلي أثناء نومه.. صرخة ألقَت الذعر في قلب (ماكيبا) التي تراجعت بحدة حتى اصطدم ظهرها بالجدار وهي تحدق إلى سيدتها التي غادرت سريرها وجسدها البدين ينتفض ويتلوى ألما.. لا تدري متى انقضت سيدتها عليها صارخة كالكابوس.. لا تدري كيف لم تمت حتى الآن ورائحة الشياط تتصاعد منها.. لا تدري كيف وجدت نفسها ترفع من عنقها ووجه سيدتها الذائب يُحملق فيها بحقد وغضب.. لكن سيدتها لم تقل كلمة واحدة.. لقد كانت عملية للغاية إذ واصلت الصراخ وهي تعتصر عنق (ماكيبا) بيدها الذائبة بلا رحمة.. إنها تختنق.. لا.. لن تموت.. ليس الآن.. الوجه الصارخ يدنو من وجهها.. لا تذكر كيف خطر لها أن تغرس أصابعها في عيني سيدتها التي ازدادت حدة صرخاتها وهي تفلتها بغتة لتمسك بموضع عينيها المفقوءتين.. تلفتت حولها لتقع عيناها على السيوف المتقاطعة على الجدران.. ما هي إلا لحظات حتى استلّت أحدها وانقضت

صارخة على ذلك الجسد المترهل لتنهال عليه بالسيف المسنّن وهي تواصل الصراخ والدماء السوداء تتناثر في كل مكان.. أخيرا توقفت سيدتها عن الصراخ وهمدت حركتها لكنها واصلت التقطيع والضرب غير مبالية بأصوات الخدم الذين يتساءلون عما يجري خارج المخدع...

- ما الذي يحدث هنا؟

- ما هذا الصراخ؟

التقطت رأس سيدتها الذي يصعب التعرف عليه الآن بيد وجرّت السيف المسنن باليد الأخرى وهي تخرج من المخدع..

- (ماكيبا)؟ ما هذا الذي...

اختنقت الكلمات في حلق الخادم وشهق بعنف عندما مرت بجانبه وكأنها لا تراه.. تعالت الشهقات وأغشي على بعضهم عندما رأوا ما خلفته من فوضى.. لكنها لم تُبالي.. لقد نفذت ما برأسها.. لكنها لم تنتشي بعد.. إنها تريد المزيد.. تريد قتل أكبر عدد ممكن من التيتانيين.. تريد لنارها أن تكويهم جميعا.. خرجت من المنزل وسط صرخات الرعب والاستنكار.. عبرت الحديقة ومن ثم البوابة.. إنها في الشارع.. التفت إليها بعض التيتانيين مع عبيدهم باستغراب قبل أن تقع عيونهم على الرأس الدامي.. اتسعت العيون بذهول ولكنها رمت بالرأس جانبا وانقضت صارخة بوحشية على التيتانيين الذين لم يفيقوا من ذهولهم إلا

عندما انهالت بسيفها على أولهم.. تعالت صرخات الغضب هذه المرة وانقض عليها التيتانيّون الذين يفوقونها حجما وقوة بطبيعة الحال.. ولكن لم تدم متعتها طويلا فقد وجدت نفسها مكبلة بين أيديهم بعدما أصابت منهم من أصابت وانتزع أحدهم السيف ليضع نصله المسنن على عنقها وهو يقول محدقا إليها بعينين تشتعلان غضبا:

- أيتها العبدة السوداء الحقيرة.. كيف تجرؤين على قتل سيدتك؟ كيف تجرؤين على مهاجمتنا نحن أسيادك التيتانيين؟ لا.. لن أنتظر حتى يعلم الحاكم.. سأقطعك إربا هنا والآن.

قالها وهو يرفع السيف عاليا.. لا فائدة من المقاومة.. على الأقل لن تموت في قدر الزيت المغلي.. أغمضت عينيها باستسلام ثم.. سمعت أصوات صرخات مختلطة وشعرت بمن يكبلونها وهم يتخلون عنها صارخين.. فتحت عينيها بحذر قبل أن تتّسعا بذهول وهي تتطلع إلى ما يحدث حولها.. هذا أجمل من أن يصدق.. البشر يهاجمون التيتانيين.. يمزقونهم بلا رحمة.. اشتعلت النار في إحدى المحال بغتة وانطلقت كتلة من النار ذات حدود جسد تيتاني على غير هدى.. قاوم التيتانيون لكن هجوم البشر كان كالسيل الجارف ما إن ينال تيتاني من بشري واحد حتى يفاجأ بخمسة مكانه! النيران تندلع في أرجاء المدينة.. التقطت سيفها المسنن من يد التيتاني الذي لقي حتفه ورفعت عقيرتها مطلقة صرخة انتشاء قبل أن تشارك هي الأخرى في هذا المهرجان.. إنها الثورة التي

لطالما حلمت بها.. أخيرا.. سرعان ما جاءت قوات المدينة لتجد أنها هي نفسها بحاجة إلى الإنقاذ! لقد انتفض البشر أخيرا بعد قرون من الاستعباد.. لم تَمضِ بضعة ساعات إلا والمدينة قد أصبحت تحت سيطرة البشر! مات الكثير من الطرفين لكن الغلبة كانت للأكثر عددا.. وأمام غرفة الزيت التي هدم البشر جدرانها ليتسنى للجميع رؤية ما سيحدث وقفت (ماكيبا) تراقب قدر الزيت وهو يغلي شيئا فشيئا في حين تحلق من بقي من البشر –وهم كثر– حول من تبقى من التيتانيين المقيدين بالحبال والمقطعة أرجلهم وهم يُصوّبون أسلحتهم نحوهم بتحفز.. تعالى بكاء أطفال التيتانيين وانهارت بعض نسائهم في حين تظاهر بعض ذكورهم بالتماسك ورباطة الجأش.. الدماء السوداء الجافة تغرق وجوه وأجساد كل البشر وقد اختلطت بدمائهم الحمراء من بعض إصاباتهم.. ألسنه اللهب تتراقص في معظم أجزاء المدينة مخلّفة الكثير من الرماد المتطاير حول الجميع.. هتافات الظفر لم تتوقف حتى اللحظة..

– لن تفلتوا بفعلتكم هذه.

قالها أحد التيتانيين المقيدين فتعالت من حوله الضحكات الساخرة في حين التفتت إليه (ماكيبا) وهي تتحسس سيفها الملوث بالدماء السوداء وقالت بوجه خال من التعابير:

– سنبدأ بك أيها الحاكم العام.

اقتربت منه ثم قربت وجهها منه وأضافت:

- أعني يا من كنت الحاكم العام.

تعالت الضحكات الساخرة مجددا.. أشارت للرجال الذين ابتسموا بشراسة وهم يجرون الحاكم نحو قدر الزيت على الرغم من ضخامته..

(الحاكم) وهو ينقل بصره بقلق بينها وبين قدر الزيت:

- ما الذي تنوين فعله؟

(ماكيبا):

- هل أنت أحمق إلى هذا الحد؟ لماذا برأيك أوقدنا قدر الزيت؟

تبدّى الذّعر في عينيه للحظة وهو يقاوم باستِماتة وقال بصوت أراده قويا لكنه خرج مهزوزا:

- لا.. لن تجرؤي أيتها العبدة.. لن تف..

أخرسته صفعتها المدوية ثم شدت شعره من الخلف وقالت بتوحش:

- ألم تفهم أيها التيتاني المأفون أننا لم نعد عبيدا لكم بعد الآن؟

الحاكم العجوز بصوت مختنق:

- ستصل قوات الدعم عما قريب.

(ماكيبا) وهي تشير برأسها إلى مجموعة من التيتانيين المقيدين اللذين يرتدون الدروع:

- تقصد مثل تلك القوات هناك؟

تعالت الضحكات للمرة الثالثة في حين قال الحاكم:

- اضحكوا ما شئتم.. ستدفعون الثمن غاليا.

(ماكيبا) وهي تميل نحوه بصرامة وتشد شعره بقوة أكبر حتى تأوه ألما:

- ليس لدينا ما ندفعه أيها السافل.. لقد دفعنا الثمن مقدما بالفعل.. دفعناه بسنوات الاضطهاد والعبودية.. دفعناه بأحبابنا اللذين تفنّنتم في قتلهم.

التفتت إلى الوجوه المحيطة بها وهتفت:

- كلكم دفعتم الثمن مقدما.. كلكم شاركتم في نضال هذه الليلة وقتلتم من قتلتم من التيتانيين ونلتم حريتكم بدمائهم.. أليس كذلك؟

أومأ بعضهم موافقا وتعالت أصوات البعض الآخر وهم يرددون:

- بلى.

- أجل.

- هذا صحيح.

(ماكيبا):

- هل لديكم ما تخسرونه؟

تعالت الهتافات:

- لا.

- لا.

- لا.

الحاكم ووجهه يتقلّص ألما:

- لديكم ما تخسرونه أيها العبيد.. حيا..

أخرسته بلكمة سريعة على أنفه المسطح..

(ماكيبا) وهي تهز رأسه:

- أخبرتك أننا لم نعد عبيدكم.. إياك أن تكررها وإلا قطعت لسانك.. والآن أنت تريد القول أن هناك ما نخسره أليس كذلك؟

الحاكم وهو يثبت عينيه الحمراوين المشقوقتين على عينيها:

- أجل.. حياتكم.

ساد الصمت وتعلقت كل العيون بلا استثناء عليها باهتمام شديد.. تطلعت إلى وجهه قليلا ثم قالت بنبرة خالية من أي انفعال:

- حياتنا؟ هل تعني حياة العبودية التي كنا نحياها معكم؟ هل تسمي تلك حياة؟

لم يحرْ جوابا فتابعت بصرامة:

- اسمعني جيدا يا هذا.. حياتي بدأت منذ اللحظة التي قتلت فيها أول واحد منكم.. أفضل أن أموت وأنا أقتلكم وأقاتلكم على أن أعود لتلك الحياة.

حررت رأسه ثم التفتت إلى العيون المتطلعة إليها وقالت بصوت عال:

- وأنتم.. هل سترضون بالعودة إلى حياتكم السابقة؟ إلى العبودية؟ إن كان هذا ما تريدونه فأنا لا أريده.. لن أعود لتلك الحياة.. وحتى لو أردنا فقد فات الأوان علينا جميعا بعد ما فعلناه.. حتى لو عفا الإمبراطور عنا -ونحن نعلم أنه لن يفعل-فلن أقبل العودة للعبودية.. كلكم تعرفون ما فعله ذلك الشاب غير الموسوم مع (المخوزق).. تعرفون كيف قاتل ومات حتى لا يُستعبد.. إنه بشر مثلنا.. لم يكن يختلف عنا سوى أنه لم يكن عبدا للتيتانيين يوما.. إن كان هو فعلها فلم لا نفعلها نحن أيضا؟

سكتت لترى أثر كلامها الذي ترك أثرا لطالما أحبت أن تراه في وجوههم فتابعت:

– كيف كان شعوركم وأنتم تقتلون التيتانيين؟ ألم تشعروا بالانتشاء؟ بالبهجة؟ بلذة الانتقام؟ ألا تريدون المزيد؟ ألا تريدون التنكيل بمن أذلكم وسلبكم حريتكم وأحبابكم؟

أومأ بعضهم بالتأييد وهتف البعض الآخر:

– بلى.

هتفت (ماكيبا) بقوة:

– أسمعوني صوتكم.. ألا تريدون الانتقام؟

ضجّ الهتاف هذه المرة من مئات الحناجر وبصوت ارتجت له قلوب التيتانيين والمدينة كلها:

– بلى.. بلى.. بلى.

تردد الهتاف لما يزيد عن الدقيقة والتمعَت الأعين ببريق وحشي والجميع يلوحون بأسلحتهم وقبضاتهم فوق الرؤوس.. انكمش التيتانيون على بعضهم وهم يحدقون برعب إلى الجماهير المتحمسة في حين ارتسم شبح ابتسامة صفراء على شفتي (ماكيبا) الغليظتين ورفعت أحد حاجبيها ثم وهي تتطلع إلى الحاكم بمغزى واضح..

الحاكم:

- لن تنعموا باحتفالكم هذا طويلا.. تذكري هذا جيدا.

(ماكيبا) بلا مبالاة:

- لن تعرف أبدا لأنك لن تكون هناك حينها.

أشارت برأسها إلى من يكبلون الحاكم فابتسموا بشراسة وهم يلقون بالحاكم الذي لم يتوقف عن محاولات التفلت حتى لحظة سقوطه في قدر الزيت.. صرخ الحاكم صرخة مروعة امتزجت بضحكات الجماهير المتعطشة للعنف وارتجفت لها قلوب قومه.. حاولت يد الحاكم عبثا التشبث بحافة القدر لكنها سرعان ما غابت في بركة الجحيم وتناثرت قطرات الزيت في كل صوب أمام عيني (ماكيبا) الراضيتين..

- التالي...

قالتها وهي تشير إلى أحد التيتانيين الذي أغشي عليه فورا وسط بكاء وعَويل بني جنسه..

- لحظة.. توقفوا.

قالتها للرجال الذين هموا بجرّ التيتاني نحو القدر وقد برقت عيناها بفكرة مخيفة..

- الأطفال.. ألقوا بأطفالهم أولا.

شـهق التيتـانيون لهول مـا سـمعوه في حين تعـالـت صـيحـات الاستحسان من غالبية الجماهير بينما أبطنَ البقية استياءهم..

إحدى إناث التيتانيين وهي تبكي بلوعة:

- ألا تملكون شيئا من الرحمة؟ ما ذنب الأطفال؟

تقدمت (ماكيبا) حتى وقفت عند رأسها.. تأملتها قليلا ثم قالت:

- أخبريني أنت.. ما ذنب أطفالنا نحن؟ ما ذنب طفلي (زامبي) حتى يرقد في قاع ذلك القدر؟ ألأنه عجز عن العمل؟ هل أشفقتم عليه؟ هل شعرتم بالرحمة نحوه؟

ختمت كلامها ودمعة ساخنة تنحدر من عينها اليسرى قبل اليمنى.. تملك الذهول التيتانية وكأنها تفطن لما قيل للمرة الأولى في حياتها.. استدارت (ماكيبا) وهتفت بالرجال:

- ألقوا بالأطفال.

لا داعي للمزيد من الوصف فما حدث مع الحاكم تكرر حرفيا وكثيرا حتى لم يَبقَ من التيتانيين سوى واحد سمحت (ماكيبا) بإطلاق سراحه حتى يخبر قومه بما شهده وبالتفصيل..

(ماكيبا) وهي تحدق إلى الأبخرة المتصاعدة من قدر الزيت:

- هناك أمر مهم علينا فعله قبل مغادرة المدينة

سرت همهمة عالية بين الحشود وتبادل الجميع النظرات الحائرة ثم قال أحدهم متسائلا:

- أي أمر هذا؟

جالت ببصرها بينهم ثم قالت وهي تتحسس الوسم على خدها الأيمن:

- هذا الوسم.. لا ينبغي أن نحمله بعد الآن.. نحن لم نعد عبيدا ولذا يجب إزالته.

تحسّس الرجل وَسمَه كما فعل الجميع وردد بحيرة:

- إزالته؟! ولكن كيف؟!

- راقبوني.

قربت نصل سيفها المسنن من النار التي تغذي القدر بالحرارة حتى تشرب الحرارة واحمر لونه ثم رفعته أمام الأعين الذاهلة لتقربه من موضع الوسم و.. جزت على أسنانها وتقلص وجهها ألما وهي تمرر النصل الساخن حتى ذاب أثر الوسم..

- هكذا.. الآن فقط أصبحت حرة.

ثم وجهت بصرها نحو الفجر الذي يكاد يبزغ وأردفت:

– الآن أصبحت غير موسومة.. تماما مثل ذلك البطل الذي ألهمنا ومهد لنا الطريق إلى عصر جديد.. وبداية جديدة.

.....

وفي معمله المجهول غَمغمَ الرجل المتدثر بملابسه البيضاء ذات غطاء الرأس المُنسدل على وجهه وهو يتأمل المخلوقات الهلامية التي تسبح في الحوض المائي:

– لقد استيقظتم أخيرا من سُباتكم الطويل.. لقد حان الوقت لتغيير هذا الوضع وإلى الأبد.

وبعد؟ انتهى الجزء الأول وآن الأوان لينال الكاتب قسطا من الراحة قبل البدء بالجزء الثاني.. ماذا؟ أنتم حانقون لأنكم لم تطلّعوا على ما عرفه (يزن) من مذكرة (رايان)؟ لكن (يزن) أطلق وعدا بألا يخبرَ أحدا بما عرفه.. ولا بد أنكم قد خمّنتم أن (يزن) كاتم جيد للأسرار ولهذا أؤكد لكم أنه لن يبوح بالسرّ لا الآن ولا مُستقبلا وأظن أنه علينا أن نحترم رغبته كبشر متحضرين قبل كل شيء.. ماذا؟ لا زلتم حانقين؟ أمممممم.. لنرى.. وعود (يزن) أو غيره لا تعنيني في شيء ولست ملزما

بها ككاتب كما أني أكره أن أجعل الأمر متروكا لخيال القارئ كما يفعل بعض الكتاب الديكتاتوريين إن جاز التعبير.. أعلم أني قد أطلتُ قليلا في هذا الاستطراد ولكنها -وبكل أسف- عادة سيئة لم أنجح في التخلُّص منها حتى الآن.. دعكم من كل هذا ولننتقل إلى الفصل التالي لأطلعَكم على ما كتمه (رايان) طوال حياته..

ذكريات يجِب أن تُدفن

1- فيما يخص مغامرة (رايان) مع (نايل) والد (يزن).. ما رواه لـ(يزن) لم يكن دقيقا تماما.. فعندما طاردهما (غالياس) ادّعى (رايان) أنه تعثر ثم حدث ما حدث من تضحية (نايل) لإنقاذه.. ولكن هنا تحديدا موطن كذبة (رايان).. فالحقيقة هي أن (رايان) قد أقدم على فعل خَسيسٍ لا يصدر إلا من جبان مثله.. لقد كان عمليا حسب رأيه وقتها إذ أنه حين أدرك أن (غالياس) قاتلهم لا محالة فكر بينه وبين نفسه.. لماذا عليهما أن يموتا معا إن كان بالإمكان إنقاذ أحدهما مقابل حياة الآخر؟ بالتأكيد لن يكون هو الآخر.. ولذا لم يفكر مرتين عندما أطلق النار على ساق (نايل) الذي سقط مَذهولا على وجهه وواصل هو هروبه دون أن يلتفت خلفه.. لم يلتفت حتى وهو يسمع صرخة (نايل) المليئة بشعور من تعرّض للخيانة والتي ظلت تذكره بدناءة فعله القبيح..

((ما سيُحكى الآن لم يُذكر في المذكرة))

تطلع (نايل) مَصعوقا إلى من يفترض أنه صديقه وهو ينطلق مبتعدا غير عابئ به أو بـ(غالياس) الذي وقف بجانبه بهدوء وقال:

- عجبا ما هذا الذي أراه؟! يستخدمك كطعم حتى ينجو هو؟! يا للخسّة.. يا للحقارة.

تعالى صوت طائره وهو يهبط على كتف سيده وكأنه يوافقه الرأي.. لم ينبس (نايل) ببنت شفة فقد بدا مصدوما للغاية وهو يتنفس بصعوبة..

(غالياس):

– يمكنني اصطياده إن شئت.. ولكن أتعلم؟ سأخلي سبيله.. أتعلم لم؟ حتى تتعذب أكثر وأنت تعلم أن صاحبك اللئيم ينعم بحياته وحريته في حين أنك ستصبح عبدا لي.. أريد لهذا الشعور أن يلازمك حتى آخر لحظة من حياتك عندما تموت على الخازوق.. أريدك أن..

دوت الطلقة من بُندُقيّة (نايل) وتناثرت دماؤه وأجزاء من مخّه على ملابس (غالياس) الذي أخذه الحماس فلم ينتبه إلى (نايل) الذي لم يحتمل خيانة صديقه فصوب فُوّهَة بُندُقيّتِه نحو رأسه بحركة سريعة و.. بوووووم..

2– لقد تأخّرت زوجته أكثر مما ينبغي.. هذا غريب.. جلب النباتات التي تحتاجها لا يستغرق كل هذا الوقت.. تنهد وهو يتأمل ابنته ذات الاثني عشر ربيعا وهي تداعب الحصان (هيرو) وتطعمه.. استبد به القلق فأمر ابنته بالعودة إلى داخل الكهف.. استل بُندُقيّتَه وأسرع الخطى نحو المكان الذي ذهبت إليه.. إنه لا يبعد كثيرا عن الكهف.. تصلب فجأة في مكانه وتقلصت أصابعه على بُندُقيّتِه وأصاخ السمع.. هذه الضحكات الماجنة! إنها قادمة من المكان الذي يفترض أن تكون زوجته فيه! انحنى إلى الأسفل وتابع المشي على أطراف أصابعه بحذر.. إنه يقترب من مصدر الضحكات العابثة.. هناك امرأة تصرخ بجزع.. إنهم..

إنهم عبيد (غالياس)! توارى بسرعة خلف إحدى الأشجار ثم مدّ رأسه ببطء وبأقل قدر ممكن ليرى ما يفعلونه.. من موقعه هذا أمكنه رؤيتهم ورؤية صيدهم الثمين المكون من ثلاثة رجال وامرأة مقيدين بإحكام في حين تحلق كل العبيد الذين يربوا عددهم عن الثلاثين حول شيء يصرخ كامرأة مجنونة.. أو هذا ما خيل إليه وهو يدقق النظر من بين سيقانهم وهم يتواثبون ويضحكون ويهتفون بكلام يخجل أي إنسان محترم عن ذكره.. الأمر واضح.. إنهم يغتصبون إحدى ضحاياهم.. لا يدري لماذا تضاعف شعوره بالقلق..

هتف أحدهم:

- لقد أبليت بلاءً حسنا يا (تشيه).

- هههههههههه.

الآن فقط ميز (تشـيه) الذي نهض عن فريسـته وهو يرمقها بعين الرضا..

- إنها لكم يا رجال.. من التالي؟

قالها دون أن ينتظر الجواب وهو يشقّ طريقه بين الجمع المتحمّس محدثا فجوة سريعة كانت كافية لتلتقي عينا (رايان) بزوجته! لقد كان الفهم في هذه اللحظة بطيئا.. وقاسيا.. إنهم.. إنهم يغتصبون زوجته!

اعتصر بُندُقيّتَه وارتجفت يداه بغضب وهو يُصوّبها نحوهم كيفما اتفق.. لكنه وكما أسلفنا جبان.. وهو يعلم أنه جبان وأكبر جبان.. عددهم يتجاوز الثلاثين.. إن أطلق النار فكم سيردي منهم قبل أن يقع بين أيديهم؟ وبم سيفيد زوجته إن وقع معها في الأسر؟ وإن مات مع زوجته فمن سيهتم بابنته؟ زوجته قد وقعت وانتهى الأمر.. هذا هو قدرها.. إذا فليترك القدر يواصل مهمته.. هكذا صور له عقله المريض أنه قد فعل الصواب وقتها.. ولكنه لم يستطع المغادرة.. تلاقت أعينهما أكثر من مرة كلما فرغ أحدهم منها وشقّ طريقه بين الصفوف.. رأى نظرة الذهول في عينيها التي استحالت إلى إحساس بالخيانة ثم إلى نظرة اتّهام لم ينسَها أبدا.. لكنها لم تصرخ لتستنجد به.. لا يدري لماذا.. ربما لأن شعورها بالخيانة جعلها تُؤثر الموت على أن تعود معه.. وربما لأنها فكرت مثله – حسب ظنّه المختلّ–بأن موته معها لن يفيدها في كل الأحوال.. لا يدري بالضبط.. أما هي فقد بدا لها أن كل سكان الكوكب قد نالوا مرادهم منها.. لو كان هناك أحد في الجانب الآخر من الكوكب لم يقضِ وطرَه منها بعد فهذه مشكلته.. المهم أنه استمر بالمراقبة حتى فرغ آخر واحد منها.. لكنها لم تنهض.. الآن فقط لاحظ أنها كفت عن الصراخ والبكاء منذ فترة.. نظراتها الدامعة ما زالت مثبتة عليه.. عيناها لا تطرفان.. لم يكن بحاجة للاقتراب لكي يلاحظ أن بريق الحياة قد خبا من عينيها.. ركلها أحدهم آمرا إياها بالنهوض ولكنها لم تستجب.. اقترب بتوجس وتفحص نبض العنق ثم اتسعت عيناه بالفهم..

– لقد.. لقد ماتت.

– ماذا قلت؟

ساد الذعر والارتباك بينهم.. رفع (تشيه) يديه في وجوههم وقال بحزم:

– أنصِتوا إلي.. السيد المعظم لم يرسلنا خلفها وإنما أرسلنا خلف هؤلاء...

أشار نحو أسراهم المقيدين وتابع:

– لذا استمعوا لما سأقوله.. إذا التزمنا الصمت جميعا وعدنا بما أرسلنا من أجله فلن نعاقب.. وإن تحدث أحدكم فسيكون أول من يعدم...

التفت إلى الأسرى متابعا:

– وهذا الكلام ينطبق عليكم.. سنترك الجثة حيث هي ونرحل بهدوء.. هل لدى أحدكم اعتراض؟

التزم الجميع بالصمت..

– جيد.. هيا بنا نرحل.

لم تمضِ دقائق إلا والجثة وحيدة في مكانها.. دنا منها ببطء وهو يبكي بحرقة.. الآن فقط شعر بالندم يحرق قلبه.. تبا له من حقير.. تبا له من

جبان.. لو كان رجلا كما ينبغي لمات وهو يدافع عن عرضه وشرفه.. ليته مات قبل هذا.. ليته مات مع صديقه (نايل) ولم يشهد هذا اليوم.. أغمض عينيها بيد مرتعشة ثم حملها ليدفنها في قبرها الذي داومت ابنته على زيارته منذ ذلك الحين.

الخاتمة

من المُهين لذكاء القارئ أن نقول أن الشعور بالذنب والندم لم يفارق (رايان) حتى مَماته.. أدرك (يزن) هذا مما قرأه في المذكرة لكن غضبه مما جرى لوالده أعماه عن هذه الحقيقة.. لقد كان نادما بحقّ ومستعدا لفعل أي شيء ليكفر عن خطاياه وتضحيته الأخيرة خير دليل على ذلك.. لا داعي للاستطراد أكثر فخير الكلام ما قلّ ودلّ.. نلقاكم في الجزء الثاني بإذن الله.

فهرس

بين الدّيدان 7
رسالة من الماضي 25
رَدةُ فعل 35
عبرَ الأنفاق 51
عالمٌ جَديد 77
اكتشافٌ غير سارّ 91
أشياء غير مُتوقّعة 107
ما الذي يجري هنا؟! 145
رحلة العذاب 185
في مكانٍ آخر 209
حالة من التّرقّب والتّساؤُل 225
هل نحن سَواسية؟ 269
دعوةٌ خاصّة 283
حزنٌ عَميق 319
مُعضِلة 331
التّحدي 351

نَصرٌ زائف 377
لا أريد أن أراك ثانية 393
ألن تُقاتل من أجل حياتك؟ 407
لن نكونَ عبيدا بعد الآن 471
ذكريات يجِب أن تُدفن 489
الخاتمة 497